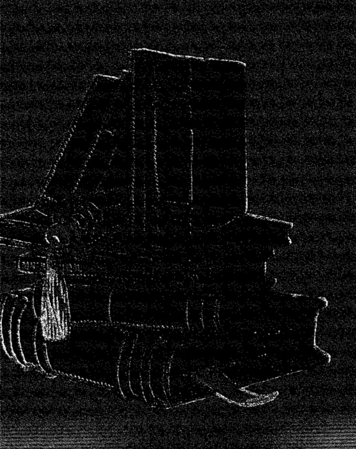
موسوعة معالم الأديان

علم الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم





موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

ظهور الإسلام وانتشاره

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرِّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء السابع عشر

ظهور الإسلام وانتشاره

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة : موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان

كُلُّ الأديَان والمَذَاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم

إسم الكِتَاب : ظُهُورُ الإسْلامِ وَانتِشَارُه

الجِزء : السّابِع عَشَر

المؤلّف : مجمُوعَة مِن كبَار البَاحِثِين بإشراف ط. ب. مفَرِّج

قياس الكتَاب : ٢٠ × ٢٨

مكَان النَّشر : بيروت

دَار النَّشر والتَّوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١

: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفصلُ الأوّل

مُحَمَّد ﷺ

الفَصلُ الثّاني

أبُو بِكْر وأيـّامُه

الفَصلُ الثَّالِث

عُمَر وأيـَّـامُه

الفَصلُ الرَّابِع

عُثمَان وأيـَّـامُه

الفَصلُ الخَامِس

عهدُ الإمام عليّ

الفَصلُ السَّادِس

إنتِشَار الإسلاَم قبلَ منتَصَفِ القَرنِ السَّابع

الفَصلُ السَّابع

فَتحُ الأندَلُس

الفَصلُ الأوّل

مُحَمَّد

مَولدُ الرّسُول ونَشأتُه؛ المبعث؛ مهَاجَرة الحَبَشَة؛
الهُجرَة إلى المَدينة؛ وَقعَـة بَدر؛ وقعـة أُحُـد؛ وقعَـة الخَندَق؛
وقعَات اليَهود؛ الحديبَـة، وفتح مكّة؛ غَزوَات الرسُول؛ أزواجُ الرّسول؛
حَجَّـة الوَداع.

مَولدُ الرَّسُول ونَشأتُه

كان مولد النبيّ العربيّ، محمّد ﷺ في العام ٥٧٠م. في مكّة، من آمنة، زوجة عبد الله بن عبد المُطّلب، من بطن هاشم، من قبيلة قريش "من العرب المستعربة، ويُسمّون العدنانيّين، والنزاريّين والحجازيّين والإسماعليّين، فينتهي نسبهم إلى إسماعيل الذي أنزله أبوه إبراهيم عليه السلام بمكان الكعبة[1] طفلاً. وتركه وأمّه هاجر هناك"[2].

لقد كان مولد هذا الطفل أحد أهمّ أحداث التاريخ لأنّه سيصبح النبيّ ﷺ الذي، غيّر مجرى التاريخ في الشرق الأدنى، وكاد أن يغيّره في العالم أجمع. ومَن يطالع مراحل رسالة النبيّ العربيّ ﷺ، لا يستطيع إلاّ أن يرى فيها ما لا يمكن اعتباره إلاّ معجزة وما يجب أن يُلحظ قبل ذلك، أنّ أكثر من نصف مليار من الناس اليوم، ينتمون إلى جميع الأعراق البشريّة، ويتكلّمون عددًا كبيرًا من اللغات، ويسيطرون على معظ المنطقة الواقعة بين بلاد المغرب ونايجيريا غربًا، إلى أندونيسيا وماليزيا شرقًا، هم مر أتباع النبيّ العربيّ ﷺ. ويذكر بعض مؤرّخي الإسلام حصول بعض الخوارق عنـ

---

١ ـ **الكعبة**: بناء مكعّب يتوسّط البيت الحرام في مكّة، وفي زاوية جدارها الجنوبيّ الحجر الأسود، كان العرب يعظّمونها فلمّا بُعث النبـ ﷺ أمر بالتوجّه إليها في الصلاة، والمسلمون يستقبلونها من جميع أقطارهم وبلادهم، طهّرها الرسول ﷺ يوم فتح مكّة من الأصنـ وغسلها.

٢ ـ القطب سمير عبد الرازق، أنساب العرب، نشر دار مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٨) ص ٣٩ ـ ٤٠.

لادة النبيّ ﷺ، منها أنّ "رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى جماعـة مـن قريـش يـوم ولادة حمّد ﷺ كان من بينهم هشام بن المغيرة والوليد بن المغـيرة وعتبـة بـن ربيعـة، فقـال: وُلد لكـم الليلـة مولـود" فقـالوا: "لا". قـال: "أخطـأكم والله معشـر قريـش، فقـد وُلـد إذاً فلسطين غلام اسمه أحمد، به شامة كلون الحرّ الأدكن، يكون به هـلاك أهل الكتـاب". قبل أن يبتعدوا عن المكان، قيل لهم إنّه وُلد لعبدِ الله بـن عبـد المطّلـب الليلـة غـلام. مضى الرجل قاصدًا الطفل، ولمّا نظر إليه قال: "هو والله هو! ويل أهل الكتابَ منـه". لمّا رأى سرور قريش بما سمعت منه قال: "والله ليسطونّ بكم سطوة يتحدّث بها أهـل المشرق والمغرب"[1].

ورُوي عن أمّه أنّها قالت: "رأيت لمّا وضعته نورًا بدا منّي ساطعًا حتّـى أفزعنـي، ولم أرَ شيئًا ممّا يراه النساء". وروى بعضهم أنّها قالت: "سطع منّي النور حتّـى رأيـت قصور الشأم. ولمّا وقع إلى الأرض قبض قبضة من تراب ثمّ رفع رأسه إلى السماء"[2].

ويذكرون أنّ "أمّه لم تشعر به قطّ في أحشائها حتّى ساعة مولده، عندما جاء مـلاك يبشّرها بمولود. وأنّ مرضعته شعرت بالحليب يمـلأ ثديَها الجـافّ ساعة وضعتـه فـي حجرها. وقد رأى ابنها الذي كان يلعب معه خلف البيوت رجُلين عليهمـا ثيـاب بيـض أضجعاه فشقّا بطنه، واستخرجا قلبه فشقّاه، واستـخرجا منـه علقـة سـوداء فطرحاهـا". وفي القرآن الكريم يخاطب الله تعالى نبيّـه قـائلاً: ﴿أَلَمْ نَشْـرَحْ لَـكَ صَـدْرَكَ. وَوَضَعْنَـا عَنْكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[3].

---

١ ـ اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، طبعة دار الصادر (بيروت،لا.ت.) ٢: ٩.

٢ ـ المرجع السابق.

٣ ـ الشرح: ١ : ٤ راجع: حتّي د. فيليب، صانعو التاريخ العربي، نشر دار الثقافة (بيروت،١٩٦٩) ص ١٥ ـ ١٦.

وبشأن مرضعته، ثوَيبة، مولاة أبي لهب[١] وهي التي أرضعت حمزة بن عبد المطّلب[٢] وجعفر بن أبي طالب[٣] وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ، "قال رسول الله ﷺ، بعدما بعثه الله: رأيت أبا لهب في النار يصيح العطش العطش، فيُسقى في نقر إبهامه. فقلت: بمَ هذا؟ فقال: بعتقي ثويبة لأنّها أرضعتك"[٤].

ويذكرون أنّه "لمّا وُلد رسول اللـه ﷺ رُجمت الشياطين وانقضّت الكواكب. فلمّا رأت ذلك قريش، أنكرت انقضاض الكواكب وقالوا: ما هذا إلاّ لقيام الساعة. وأصابت الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا حتى تهدّمت الكنائس والبيَع وزال كلّ شيء يُعبد دون اللـه، عزّ وجل، عن موضعه. وعميت على السحرة والكهّان أمورهم وحُبست شياطينهم. وطلعت نجوم لم تُرَ قبل ذلك، فأنكرتها كهّان اليهود. وزلزل إيوان[٥] كسرى[٦] فسقطت منه ثلاث عشرة شرّافة[٧]. وخمدت نار فارس[٨] ولم تكن خمدت قبل ذلك بألف

---

١ ـ **أبو لهب** (ت٢هـ/ ٦٢٤م): هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، عمّ النبيّ ﷺ، وزوج أخت أبي سفيان، دأب هو وزوجته على إيذاء النبيّ ﷺ، اعترضه يوم أن جمع أهله حول الصفا، داعيًا إيّاهم إلى رسالته، وقال له: "تبًا لك ألهذا جمعتنا؟"، فنزل فيه وفي زوجته قوله تعالى: "تبت يدا أبي لهب"، لم يشترك في بدر، مات بعدها بأيام وكلّه حسرة على هزيمة قريش.

٢ ـ **حمزة بن عبد المطّلب** (ت٣هـ/ ٦٢٥م): عمّ النبيّ ﷺ، من سادات قريش في الجاهليّة وصدر الإسلام، قاتل في بدر واستشهد في أُحد.

٣ ـ **جعفر بن أبي طالب** (ت٨ه/ ٦٢٩م): صحابيّ هاشميّ من الشجعان، ابن عم النبي ﷺ، حامل اللواء في غزوة مؤتة، لم يتركه حتّى بترت يداه واستشهد، كنّاه النبيّ ﷺ بذي الجناحين.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٩.

٥ ـ **إيوان**: قصر، أصلها فارسيّ. وتعني أيضًا المكان المتّسع من البيت يحيط به ثلاثة جدران.

٦ ـ **كِسرى الأوّل أو خسرو أنوشيروان**: ملك ساساني ٥٣١ ـ ٥٧٩، ابن قباذ، حارب يوستينيانس واحتلّ أنطاكية ولاذق، أجبر على عقد هدنة مع البيزنطيّين ٥٥٥، استولى على اليمن ٥٧٠، اشتهر بعدله، أهمّ مشاريعه: مسح الأراضي وإصلاح نظام الضرائب.

٧ ـ **الشّرّافة والشرفَة**: واحدة الشرفات، وهي مثلّثات أو مربّعات تُبنى متقاربة في أعلى سورٍ أو قصر.

٨ ـ **نار فارس**: هي النار الدائمة الشعلة في معابد المجوس.

عام. ورأى عالِم الفرس وحكيمهم، وهو الذي تسمّيه الفرس "موبذان موبذ"، القيّم شرائع دينهم، كأنَّ إبلاً عرابًا تقود خيلا صعابا حتّى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. راع ذلك كسرى أنوشروان * وأفزعه، فوجّه إلى النعمان[1] فقال: هل بقي من كهّان العرب أحد؟ قال نعم: سطيح الغسّانيّ[2] بدمشق من أرض الشأم. قال: فجئني بشيخ من العرب له عقل ومعرفة أوجّهه إليه. فأتاه بعبد المسيح بن بقيلة، فوجّهه إليه. فخرج عليه عبد المسيح على جمل حتّى قدم دمشق. فسأل عنه فدلّ عليه وهو ينزل في باب الجابية[3]، فوجده في آخر رمق. فنادى في أذنه بأعلى صوته:

أصمٌّ أم تسمعُ غطْريفَ اليمين   يا فارج الكُربة أَعْيَتْ مَنْ وَمَنْ
وفاصلَ الخطبة في الأمر العَنَنْ   أتاك شيخُ الحيِّ مِن آل يَزَنْ

فقال: عبد المسيح، على جمل مشيح، نحو سطيح، حين أشفى[4] على الضريح. بعثك ملك بني ساسان[5]، بهدم الإيوان[6]، وخمود النيران[7]، ورؤيا الموبذان[8]. رأى إبلا

---

١ ـ **النعمان الثالث ابن المنذر** (٥٨٠ ـ ٦٠٢): آخر ملوك اللخميّين في الحيرة، ومن أشهر ملوكها، نشأ في عائلة نصرانيّة، خلعه كسرى أنوشروان وسجنه في المدائن، مدحه النابغة الذبياني، دعته المصادر العربيّة بـ"أبي قابوس" وقالت إنّه صاحب يومَي "البؤس والنعيم".

٢ ـ **سطيح الكاهن** (ت٥٧٢): هو ربيع بن ربيعة، من أشهر كهّان العرب في الجاهليّة، يذكر مع زميله "شق"، كان أبدًا منسطحًا على الأرض لا يقدر على قيام أو قعود، وكان من المعمّرين.

٣ ـ **باب أو تلّ الجابية**: قرية في سورية غربي دمشق، أقام فيها أمراء بني جفنة الغسّانيّون، جعلها العرب جندًا عند فتحهم الشام، فيها تقاسم العرب الغنائم بعد معركة اليرموك ونزل الخليفة عمر ﷺ مع زعماء الصحابة للتداول في شؤون الفتح فكان يوم الجابية وكانت خطبة الجابية. وفي الجابية عقد المؤتمر الذي بايع مروان بن الحكم فانتقل الحكم من السفيانيّين إلى المروانيّين. انحطّت على أيّام العبّاسيّين. فيها مياه ومراع.

٤ ـ **أشفى** هنا بمعنى أشرف.

٥ ـ **المقصود** كسرى.

٦ ـ **المقصود** إيوان كسرى.

٧ ـ النار الدائمة الشعلة في معابد المجوس.

٨ ـ **موبذان موبذ**: عالِم الفرس وحكيمهم، كما ورد في صدر النصّ أعلاه

عرابًا تقود خيلاً صعابًا حتّى قطعت دجلة وانتشرت في البلاد. يا ابن ذي يزن تكون هنّة وهنّات ويموت ملوك وملكات بعدد الشرّافات. إذا غاضت بحيرة "ساوه[1]" وظهرت التلاوة بأرض تهامة[2] وظهر صاحب الهراوة فليست الشأم لسطيح شاما". ثم فاضت روحه[3].

وذُكر أنَّه "لمّا خرج الفتى محمّد ﷺ، وهو بعد في الثانية عشرة من عمره، مع عمّه أبي طالب إلى الشأم، نظر راهب مسيحيّ اسمهُ "بُحَيرا[4]" إلى ظهره فرأى خاتم النبوّة بين كتفيه[5]. وذكر باحثون أنّ "الأساطير الإسلاميّة والمسيحيّة التي حيكت حول بحيرا، من شأنها أن تعكس لنا شيئًا عن العلاقات القديمة بين الديانتَين المسيحيّة والأسلاميّة، وعن أثر المسيحيّة"[6]. وفي رواية "أنّ محمّدا ﷺ زار دمشق، وأنّه تردّد عند دخوله باب المدينة قائلاً إنّه يريد دخول الجنَة مرَة لا مرتّين"[7]. ولكن من العسير أن نأخذ بهذه الرواية... إذ لا نجد في القرآن الكريم إشارة إليها. ويبقى القرآن الكريم، في إشاراته إلى حوادث وقعت في حياة محمّد ﷺ، أفضل مصدر يوثق به في دراسة حياته. علمًا

---

١ - ساوه أو ساوى: مدينة ومقاطعة في شمال غربي إيران، خرّبها المغول ١٢٢٠.

٢ - تِهامَة: هي أراضي السهل الساحليّ الضيّق الممتدّ من شبه جزيرة سيناء شمالاً إلى أطراف اليمن جنوبًا، وفيها مدن نجران ومكّة وجدّة وصنعاء.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٨.

٤ - بُحَيرا الراهب (النصف الثاني من القرن السادس): راهب أقام في جزيرة العرب، ابتنى له صومعة على طريق القوافل، كان يدعو البدو إلى التوحيد، جاء عنه في "المنجد في الأعلام، دار المشرق، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت،١٩٧٦) ص١١٩" أنّه استضاف ركب تجّار قريش في بصرى من أرض الشام وفي الركب أبو طالب يصحبه ابن أخيه محمّد، وكان حدثًا، فلمّا تفرّس فيه بحيرا قال لعمّه: إنّه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. ثمّ حذّره عليه من اليهود.

٥ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٦.

٦ - حتّي، المرجع السابق.

٧ - حتّي، المرجع السابق.

بأنّ أوّل سيرة لحياته ﷺ وضعها إبن إسحق المتوفّي سنة ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م[١] وجمعها ابن هشام الذي توفّي في مصر سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣م[٢]، فكانت قد انقضت مدّة طويلة أُحيطت خلالها حياة النبيّ ﷺ بهالة من أعمال وعجائب وصفات لم يقل بها النبيّ ﷺ نفسه، ولا أشار إليها القرآن الكريم. وأمّا السيرة الثانية لحياته، فقد تضمّنها تاريخ الطبريّ الذي توفّي سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م. في بغداد[٣]. كما وضع أحمد بن واضح، المعروف باليعقوبيّ[٤] نتفًا بارزة من سيرة النبيّ ﷺ في تاريخه، وقد توفّي اليعقوبيّ سنة ٢٦٦هـ/ ٨٧٩م؛ وكان الواقدي، المتوفّي سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م[٥] قد كتب في مغازي

---

١ - **إبن إسحق**: محدّث ومؤرّخ من أصحاب السير والمغازي، نشأ في المدينة وتوفّي في بغداد، من تصانيفه: "السيرة النبويّة"، "الخلفاء"، "المبدأ"، "المغازي" الذي ألّفه لأبي جعفر المنصور.

٢ - **إبن هشام عبد الملك الحِمْيَري**: فيما ذكر حتّى أنّه توفّي سنة ٢١٨ هـ/ ٨٣٣م، ذكر "المنجد في الأعلام" أنّه توفّي سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨: مؤرّخ من الأوائل، وُلد في البصرة وتوفّي في الفسطاس (القاهرة) كتب سيرة الرسول مستندًا إلى" سيرة" إبن إسحق، له "التيجان في ملوك حِمير".

٣ - **محمّد بن جرير أبو جعفر الطبري**: مؤرّخ وموسوعيّ ومفسّر ومقرئ ومحدّث، وُلد في آمل (طبرستان) وتنقّل بين إيران والعراق وسورية ومصر وأقام أخيرًا في بغداد حيث توفّي، اختار لنفسه مذهبًا في الفقه، له "جامع البيان في تأويل القرآن"، "تاريخ الأمم والملوك"، "تهذيب الآثار"، "إختلاف الفقهاء"، و"آداب القضاة"؛ وهناك طبري آخر هو **محبّ الدين أحمد الطبري** (ت٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م): شيخ الحرم، فقيه شافعيّ ذو مشاركة في الحديث والتاريخ، وُلد وتوفّي بمكّة، له "خلاصة السير في أحوال سيّد البشر"، و"غاية الإحكام لأحاديث الأحكام"؛ وهناك **علي بن سهل بن ربّن الطبيري** (٧٨٥ - ٨٦١): كان نسطوريًا وأسلم، وكتب "الردّ على النصارى"، وله كتاب "الدين والدولة"، و"منافع الأطعمة"؛ وطبري رابع هو **عبد القادر بن محمّد الطبري** (ت١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣، أديب شافعيّ، وُلد وتوفي بمكّة، له "عيون المسائل من أعيان الرسائل".

٤ - **أحمد بن واضح اليعقوبيّ** (ت٨٩٧): جغرافي ومؤرّخ، قضى بعضًا من حياته في أرمينيا وخرسان ثمّ أقام في مصر، له "تاريخ" يتناول أحداث ما قبل الإسلام وما بعده، وكتاب "البلدان".

٥ - **محمّد بن عمر الواقدي** (٧٤٧ - ٨٢٢): من أقدم المؤرّخين في الإسلام، وُلد بالمدينة وأقام ببغداد حيث تولّى قضاءها وفيها توفّي، اتّصل بخالد البرمكي فأجزل عليه عطاياه وقرّبه من الخليفة، من مؤلّفاته "المغازي"، و"فتح أفريقية" و"فتح العجم"، و"فتح مصر والإسكندريّة"، و"فتوح الشام"، أشهر مَن روى عنه كاتبه ابن سعد؛ أمّا **المغازي**: فكتاب في الفتوحات الإسلاميّة؛ أمّا **إبن سعد محمّد الزهري** (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٥م): فمحدّث حافظ ومؤرّخ ثقة، وُلد في البصرة وتوفّي ببغداد، صاحب الواقدي فكتب له وروى عنه وعُرف بكاتب الواقدي، أشهر مؤلّفاته "كتاب الطبقات الكبير".

النبيّ ﷺ. وكان أوّل مَن كتب عن النبيّ ﷺ من البيزنطيّين، هو القدّيس ثيوفانس[1]، سنة ٨١٣. وقد كان محمّد ﷺ في نظره "أمير العرب وحاكمهم ومدّعي النبوّة"، وقد رسخت هذه الصورة بأذهان الناس من غير المسلمين.

تختلف الروايات في زمن وفاة أبي محمّد، عبد الله بن عبد المطّلب. فعلى ما روى "جعفر بن محمّد، أنّه توفّي بعد شهرَين من مولد النبيّ ﷺ. وقال بعضهم إنّه توفّي قبل أن يولد"، إلاّ أنّ اليعقوبيّ يعتبر أنّ هذا القول الأخير غير صحيح، لأنّ "الإجماع على أنّه توفيّ بعد مولده. وقال آخرون بعد سنة من مولده، وكانت وفاة عبد الله بالمدينة عند أخوال أبيه بني النجّار في دار تُعرف بدار النابغة، وكانت سنّه يوم توفّي خمسًا وعشرين سنة"[2].

غير أنّ مؤرخين محدثين يعتبرون أنّ عبد الله قد "توفّي أثناء سفرة قام بها مع قافلة إلى سورية قبل أن يولد محمّد ﷺ"[3]. وقد اعتبر المحقّقون أنّ "عبد الله بن عبد المطّلب، قد توفّي في العام ٥٧٠ وزوجته آمنة حامل بالنبيّ ﷺ"[4].

أمّا بشأن السيّدة آمنة، أمّ النبيّ ﷺ، فيُجمع المؤرّخون على أنّها قد توفّيت يوم كان محمّد ﷺ في السادسة من عمره، ولها ثلاثون سنة. وكانت وفاتها بموقع يقال له الأبواء، بين مكّة والمدينة. وكان جدّ النبيّ ﷺ، عبد المطّلب، يكفله ويأويه، وكان يومئذ سيّد قريش.

---

١ ـ **ثيوفانس**، ويقرن اسمه **بثيودورس**. وهما قدّيسان نشآ في دير مار سابا بفلسطين، نفاهما لاون الأرمنيّ لتكريمهما الأيقونات، فماتا في السجن: ثيودورس ٨٤٢، وثيوفانس ٨١٧، ولثيوفانس تاريخ قيّم عن القرون المسيحية الأولى.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٠.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٤.

٤ ـ راجع: المنجد في اللغة والاعلام، مرجع سابق، ص٤٥٢.

وذُكر عن جدّ النبيّ ﷺ أنّه "كان رفض عبادة الأصنام، ووحّد الله، ووفى بالنذر وسنّ سننًا نزل القرآن، في ما بعد، بأكثرها. وجاءَت السنّة من رسول الله ﷺ بها، وهي: الوفاء بالنذور، ومائة من الإبل في الدّيّة، وألا تُنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل المؤودة، والمباهلة، وتحريم الخمر، وتحريم الزناء، والحدّ عليه، والقرعة، وألاّ يطوف أحد بالبيت عريانًا، وإضافة الضيف، وألاّ ينفقوا إذا حجّوا إلاّ من طيّب أموالهم، وتعظيم الأشهر الحرم، ونفي ذوات الرايات... ولمّا قدم صاحب الفيل خرجت قريش من الحرم فارّة من أصحاب الفيل، فقال عبد المطّلب: والله لا أخرج من حرم الله، وأبتغي العزّ في غيره... فكانت قريش تقول: عبد المطّلب إبراهيم الثاني... وكان لعبد المطّلب من الولْد الذكور عشرة ومن الإناث أربع: عبد الله أبو رسول الله ﷺ، وأبو طالب وهو عبد مناف، والزُّبَير وهو أبو الطاهر، وعبد الكعبة وهو المقوّم، وأمّهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وهي أمّ حكيم البيضاء، وعاتكة وبرّة وأروى وأميمة بنات عبد المطّلب؛ والحارث وهو أكبر ولد عبد المطّلب وبه كان يُكنّى، وقثم، وأمّهما صفيّة بنت جندب بن حُجير بن زباب بن حبيب بن سوأة بن عامر ابن صعصعة؛ وحمزة وهو أبو يعلى أسد الله وأسد رسول الله ﷺ، وأمّه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي أمّ صفية بنت عبد المطّلب؛ والعبّاس، وضرار، أمّهما نتيلة بنت جناب بن كليب بن النمر بن قاسط؛ وأبو لهب وهو عبد العزي، وأمّه لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر الخزاعيّ؛ والغيداق، وهو حجل وإنّما سُمّيَ الغيداق لأنّه كان أجود قريش وأطعمهم للطعام، وأمّه ممنّعة بنت عمرو بن مالك بن نوفل الخزاعيّ؛ فهؤلاء أعمام النبيّ ﷺ وعمّاته، وكان لكلّ واحد عبد المطّلب شرف وذكر وفضل وقدر ومجد..."[1].

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١١.

بعد سنتَين من وفاة أمّ النبيّ ﷺ، آمنة؛ توفّي جدّه عبد المطّلب، عن عمر يناهز المائة وعشرين سنة، وقيل مائة وأربعين، ولمحمّد ﷺ ثماني سنوات... فاحتبى ابنه بفناء الكعبة، لما غيّب عبد المطّلب، واحتبى ابن جدعان التيميّ من ناحية، والوليد ابن ربيعة المخزوميّ، فادّعى كلّ واحد بالرئاسة. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: "إنّ الله يبعث جدّي عبد المطّلب، أمَّة واحدة في هيئة الأنبياء وزيّ الملوك"[1].

بعد وفاة عبد المطّلب، كفل محمّدًا ﷺ عمّه أبو طالب. وكان، على الرغم من فقره، سيّدًا شريفًا مُطاعًا مهيبًا... وقد قال ابنه عليّ عليه السلام: أبي ساد فقيرًا، وما ساد فقيرٌ قبله.

خرج أبو طالب بمحمّد ﷺ إلى بصرى من أرض الشام، وهو ابن تسع سنين. وربّته فاطمة، بنت أسد بن هاشم امرأة أبي طالب وأمّ أولاده جميعًا. ويُروى عن النبيّ ﷺ لمّا توفّيت، وكانت مسلمة فاضلة، أنّه قال: "اليوم ماتت أميّ".

هنا، تبدأ حقبة غامضة من حياة محمّد ﷺ، ولا تتجلي أخباره قبل بلوغه العشرين من عمره.

ويروي الرواة أنّه لمّا بلغ العشرين، ظهرت فيه العلامات... "وجعل أصحاب الكتب يقولون فيه ويتذاكرون أمره ويتوصّفون حاله ويقربون ظهوره... فقال يومًا لأبي طالب: يا عمّ، إنّي أرى في المنام رجلاً يأتيني ومعه رجلان فيقولان: هو هو، وإذا بلغ فشأنك به، والرجل لا يتكلّم. فوصف أبو طالب ما قال لبعض مَن كان بمكّة من أهل العلم. فلمّا نظر إلى محمّد ﷺ قال: هذه الروح الطيّبة. هذا والله النبيّ المطهّر ﷺ. فقال له أبو طالب: فاكتم على ابن أخي لا تُغرِ به قومه، فوالله إنّما قلت

---

١ ـ مرجع سابق، اليعقوبي، ٢: ١٣ ـ ١٤.

لعليّ ﷺ ما قلت، ولقد أنبأني أبي، عبد المطّلب، بأنّـه النبـيّ المبعـوث ﷺ، وأمرنـي أن أستر ذلك لئلاّ يغري به الأعادي"[1].

كان الحدث الأوّل المؤثّر في استقرار حياة النبيّ ﷺ زواجه من خديجـة، وهـو فـي الخامسة والعشرين من عمره. وفيما ذكر بعض المؤرّخين أنّ خديجة كانت أرملة على جانب من الثراء، تنتمي نسبًا إلى عشيرة محمّد ﷺ، وكانت تكبره بخمـس عشـرة سـنة، وكانت لها تجارة وقوافل، وكان محمّد يعمـل عندهـا[2]، يسـهب اليعقوبـيّ فـي خبر هـذا الحدث، فيذكر ما رواه بعضهم عن عمّار بن ياسر أنّـه قـال: "أنـا أعلـم النـاس بـتزويج رسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد: كنت صديقًا له، فإنّا لنمشي يومًا بين الصفا والمروة، إذا بخديجة بنت خويلد وأختها هالة. فلما رأت رسول الله ﷺ جاءتني هالة أختها فقالت: يا عمّار! ما لصاحبك حاجة في خديجة؟ قلت: والله ما أدري. فرجعت فذكرت ذلك له. فقال: الحمد للـه الـذي جعلنـا مـن زرع إبراهيـم ﷺ وذريّـة إسـماعيل وجعـل لنـا بيتًـا محجوجًا وحرمًا آمنًا وجعلنا الحكّام على الناس وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به، ثمّ إنّ ابن أخي محمّد ﷺ بن عبد الله لا يوزن برجل من قريش إلاّ رُجّح، ولا يقاس بـأحد إلاّ عظم عنه، وإن كان في المال قلّ فإنّ المال رزقٌ حائل وظـلّ زائـل، ولـه فـي خديجـة رغبة ولها فيه رغبة، وصدق ما سألتموه عاجله من مالي، وله والله خطب عظيم ونبـأ شائع. فتزوّجها وانصرف. فلمّا أصبح عمّها عمرو بن أسد أنكر ما رأى، فقيل له: هـذا ختنك محمّد ﷺ بن عبد الله بن عبد المطّلب أهدى لك هذا. فقـال: ومتـى زوّجتـه؟ قيـل له: بالأمس. قال: ما فعلت. قيل له: بلى، نشهد أنّك قد فعلت. فلمّا رأى عمـرو رسـول

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤.

٢ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٧.

الله ﷺ قال: إشهدوا أنّي إن لم أكن زوّجته بالأمس فقد زوّجته اليوم. وإنّه ما كان ممّا يقول الناس إنّها استأجرته بشيء، ولا كان أجيرًا لأحد قطّ..."[1].

المبعث

يومذاك، كانت مكّة قد أصبحت ملتقى الطرق التجاريّة التي كانت تربط بين اليمن، بلاد البخّور والأطياب، وبلاد الحبشة من جهة، وسورية وموانئها على البحر الأبيض المتوسّط والعراق من جهة ثانية. وكانت تجارة مكّة قد غيّرت المجتمع البدويّ إلى مجتمع تجاريّ متحضّر رأسماليّ.[4] وكانت الهوّة الاقتصاديّة الاجتماعية بين الأغنياء والمعدمين تزداد اتّساعًا، فكان ولاء الناس يتغيّر، ومع هذا التغيّر راحت العصبيّة القبليّة تتلاشى في المجتمع المتحضّر.

وكان محمّد ﷺ، بعد أن تزوّج بخديجة، قد انصرف إلى التأمّل الروحيّ، والعزلة. فكان يأوي إلى غار حرّاء[2] خارج مكّة. وبعد زمن طويل، ذات ليلة من ليالي أواخر رمضان سنة ٦١٠، بينما كان يتأمّل، فجأة، سمع صوتًا يقول له: "إقرأ". فكأنّه سأل: "ما أقرأ؟" ولكنّ الصوت أتاه ثانية يقول: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3].

"وبعد مدّة ليست بطويلة عاوده الصوت ثانية مثل صلصلة الأجراس".

---

١ ـ حرّاء: جبل يقع شرق شمالي مكّة، يُعرف كذلك بجبل النور، فيه غار كان النبيّ ﷺ يتحنّث فيه قبل بعثته، وبات فيه قبل هجرته إلى المدينة يصحبه أبو بكر.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٠ ـ ٢١.

٣ ـ العلق: ٣ ـ ٥.

أسرع إذّاك محمّد ﷺ إلى بيته وهو في حالة انفعال، وطلب إلى زوجته خديجة أن تدثّره، وهو في حالة اللاوعي، فسمع الصوت يقول: ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِرُ، قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[1].

هنا لم يعد يخامره أدنى شك في أنّ الصوت صوت ملاك من السماء، عرف في النهاية أنّه قال: "أتيت بيت رسول الله ﷺ أوّل ما بُعث وبلغني أمره فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به. فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: نعم! امرأة وصبيّ وعبد. يريد: خديجة بنت خويلد، وعليّ بن أبي طالب ؛، وزيد بن حارثة[2].

كان جوهر رسالة محمّد ﷺ في بدايتها مقتضبًا يمكن إيجازه ببضع كلمات: لا إله إلا الله وحده. هو الخالق والحيّ القيوم. ومحمّد ﷺ رسوله. وهناك يوم حساب، والجنّة ثواب الذين يطيعون أوامره، وجهنّم عقاب الذين يعصون وصاياه. ولم يكن الله الذي تكلّم النبيّ بلسانه إلهًا غريبًا عن أهل مكّة. والواقع أنّه كان إله الكعبة التي كانت تُعرف "ببيت الله" واسم أبيه عبد الله، يحتفظ باسم هذا الاله.

غير أنّ تعاليم محمّد ﷺ الجديدة، تتضمّن أمورًا اقتصاديّة واجتماعية وسياسيّة من شأنها أن تغيّر الأوضاع التي كان القرشيّون قد ألفوها. ولقد أدركوا خطورة ما تتضمّنه هذه التعاليم بالنسبة إلى مصالحهم الخاصّة. فهي قد تقوّض أسس الحجّ، وكان الحجّ بعد التجارة من موارد رزقهم الأوليّة. ذلك أنّ مكّة كانت أصلاً مدينة بوجودها إلى جوار بئر زمزم، الذي جعلت منها التقاليد بئرًا مقدّسة فاضت مياهها بأعجوبة لينجو إسماعيل وأمّه هاجر من الموت عطشًا عندما ضلاّ الطريق في الصحراء، وصار إسماعيل أبًا

---

١ ـ المدثّر: ١ ـ ٢.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٣ ـ ٢٤.

للعرب. وأعاد إبراهيم عليه السلام أبوه بناء البيت الحرام الذي هـو الكعبـة الآن، وسـنّ للنـاس الحجّ إليه. وأصبحت البقعة التي بُني عليها البيت ملجأً مَن دخله كـان آمنـًا، وكـان جدّ محمّد ﷺ قد أعاد حفر البئر ليوزّع ماءَها على الحجّـاج كسبًا لعيشـه. وتـوارث بعـض أبنائه، أعمام النبيّ، ﷺ هذا المورد.

وكان القرشيّون ينظرون نظرة إكبار إلى تعاليم النبيّ ﷺ، عن الكرم والعطاء، لانّ الكرم من الفضائل العربيّة، ولكنّ النظرة الدينيّة الجديدة إلـى أنّ الإنسـان مجـرّد وكيـل على ثروته وأملاكه، وأنّ للفقير حقًّا في هذا المـال ﴿وَالَّذِيـنَ فِـي أَمْوَالِهِـمْ حَـقٌّ مَعْلُـومٌ لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُومِ﴾[1]، لم تكن بالنظرة التي تقبّلها الناس برضى. وإلى جـانب هـذا، فـإنّ تعاليم النبيّ ﷺ تُحلّ الإيمان محلّ النسَب كرابطة تربط الإنسان بأخيه: ﴿إِنَّمَـا المُؤْمِنُـونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[2]، وهذا ما من شـأنه أن يقـوّض الأسس القديمـة للعائلـة، وللعصبيّـة القبَليّـة، ويحـلّ محلّهـا الوحـدة والرابطـة الدينيّتَيـن. وهكذا أدركت قريش أنّه إذا حالف النصر الدينيّ رسالة النبيّ محمد ﷺ، فإنّـه سـينتصر أيضًا سياسيًّا، وبهذا يكون قد ألَحق بسلطتها بعض الإجحاف. من هنا كانت معارضتهـا الشديدة له تتصاعد يومًا بعد يوم[3].

وكان محمّد ﷺ قد أقام بمكّة ثلاث سنوات يكتم أمره وهـو يدعـو إلـى توحيـد اللـه، وعبادتـه، والإقـرار بنبوّتـه. فكـان إذا مـرّ بمـلأ مـن قريـش، قـالوا: "إنّ فتـى ابـن عبـد المطّلب لَيكلَّم من السماء"... حتّى عاب عليهم آلهتهم، وذكر هـلاك آبـائهم الذيـن مـاتوا كفّارًا.

---

١ ـ المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

٢ ـ الحجرات: ١٠.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص٢٠.

ثم "أظهر رسول الله ﷺ أمره، وأقام بالأبطح، فقال: - إنّي رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت -. فاستهزأت قريش، وآذته، وقالوا لأبي طالب: - إنّ ابن أخيك قد عاب آلهتنا وسفّه أحلامنا وضلّل أسلافنا، فليُمسِك عن ذلك وليحكم في أموالنا بما يشاء -. فقال: - إنّ الله لم يبعثني لجمع الدنيا والرغبة فيها، وإنّما بعثني لأبلّغ عنه وأدلّ عليه - ... فآذوه أشدّ الإيذاء، فكان المؤذون له، منهم أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، وعديّ بن حمراء الثقفي، وعمرو بن الطلاطلة الخزاعيّ. وكان أبو لهب أشدهم أذى له. وقد رُوي أنّ رسول الله قام بسوق عكاظ، عليه جبّة حمراء، فقال: - يا أيّها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا وتنجحوا -. وإذا رجل يتبعه له غديرتان كأنّ وجهه الذهب، وهو يقول: - يا أيّها الناس إنّ هذا ابن أخي، وهو كذّاب فاحذروه -. كان هذا أبو لهب، عمّ النبيّ. وكان المستهزئون به، العاص بن وائل السهميّ، والحارث بن قيس بن عديّ السهميّ، والأسود بن المطّلب بن أسد، والوليد بن المغيرة المخزوميّ، والأسود بن عبد يهود الزهريّ، وكانوا يوكلون به صبيانهم وعبيدهم فيلقونه بما لا يحبّ، حتّى إنّهم نحروا جزورًا[1] ورسول الله ﷺ قائم يصلّي، فأمروا غلامًا لهم فحمل السلى[2] حتّى وضعه بين كتفيه وهو ساجد. فانصرف فأتى أبا طالب، فقال: - كيف موضعي فيكم؟ - قال: ما ذاك يا ابن أخي؟ فأخبره ما صُنع به. فاقبل أبو طالب مشتملاً على السيف يتبعه غلام له، فامتشق سيفه وقال: - والله لا تكلّم رجل منكم إلاّ ضربته -. ثم أمر غلامه فأمرّ ذلك السلى والفرث على وجوههم واحدًا واحدًا. ثم قالوا: - ندعوك إلى نصفة. هذا عمارة ابن الوليد بن المغيرة

---

١ - الجزور: ما يُجزر من النوق والغنم.

٢ - السلى: جلدة يكون فيها الولد في بطن أمه. والفرث[3] الفرث: الزبل ما دام في الكرش.

أحسن قريش وجهًا وأكملهم هيئة، فخذه فصيّره ابنك وصيّر إلينا محمّدًا ﷺ نقتله ــ. فقال: ـ ما انصفتموني! أدفع اليكم ابني تقتلونه وتدفعون اليّ ابنكم أغذوه !ـ[1]

"وأُسري به، وأتاه جبريل بالبرّاق، وهو أصغر من البغل وأكبر من الحمار، مضطرب الأذنين، خَطْوُهُ مدّ بصره، له جناحان يحفُزانِه من خلفه، عليه سرج ياقوت، فمضى به الى بيت المقدس فصلّى به ثمّ عرّج به إلى السماء، فكان بينه وبين ربّه كما قال الله: ـ قاب قوسين أو أدنى ـ. ثمّ هبط به فنزل في بيت أمّ هانيء بنت أبي طالب. فقصّ عليها القصّة، فقالت له: ـ بأبي أنت وأمّي، لا تذكر هذا لقريش فيكذّبوك ـ. وفي الليلة التي أُسري به افتقده أبو طالب، فخاف أن تكون قريش قد قتلته، فجمع سبعين رجلاً من بني عبد المطّلب، معهم الشفار، وأمرهم أن يجلس كلّ رجل منهم إلى جانب رجل من قريش، وقال لهم: ـ إن رأيتموني ومحمّدًا ﷺ معي، فامسكوا حتى آتيكم وإلاّ فليقتل كلّ رجل منكم جليسه ولا تنتظروني ـ. فوجدوه على باب أمّ هانيء، فأتى به بين يديه حتّى وقف على قريش. فعرّفهم ما كان منه، فأعظموا ذلك وجُلّ في صدورهم وعاهدوه أنّهم لا يؤذون رسول الله ﷺ ولا يكون منهم إليه شيء يكرهه أبدا"[2].

إلاّ أنّ هذه الوعود بقيت دون بَرٍّ بها من قِبَل أصحابها. وبينما كان محمّد ﷺ مندفعًا بين قومه، يعلّم ويعظ وينذر، مدفوعًا بالدعوة التي تلقّاها من ربِّه، وقد أَلهبت شعوره، سخروا منه، وأغلظوا له القول. فقالوا: "مجنون" ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[3]. ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُم وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَابٌ﴾[4]. وقال آخرون "كاهن" ﴿وَلاَ بِقَولِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[5]

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٥.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٦.

٣ ـ الذاريات: ٢٢.

٤ ـ ص: ٤.

٥ ـ الحاقة: ٤٢.

هذه الاتّهامات تدلّ بوضوح على أنّ محمّدًا ﷺ كان رجلاً تميّز بقوى روحيّة بالرغم من أنّ خصومه راحوا يفسّرون هذه التقوى تفسيرًا مهينًا. وأوّل مَن استجاب لدعوته، بعد صحبه والأقربين من أهله، كانت جماعة المنبوذين والمعدومين والعبيد. وهم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة:﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[1]. غير أنّه بعد انقضاء خمس سنوات، عمل فيها جاهدًا، جاءَت النتيجة مخيّبة للآمال.

مهَاجَرة الحَبَشَة

لمّا اتّضح لقريش أنّ تلك الأساليب من الهزء والسخرية لن تثني النبيّ ﷺ عن رسالته، لجأوا إلى العنف، فراحوا يرغمون مَن أسلموا على الرجوع عن الإسلام وشتم الرسول ﷺ. ومَن لا يفعل، كان يتعرّض للضرب، وأحيانًا للقتل.

ولمّا رأى النبيّ ﷺ ما في أصحابه من المعاناة والعذاب، قال لهم: "إرحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، إلى النجاشيّ، فإنّه يحسن الجوار". فخرج اثنا عشر رجلاً، سرعان ما تبعهم سبعون رجلاً ما عدا الأبناء والنساء. هؤلاء هم المهاجرون الأوّلون.

صدق ظنّ النبيّ ﷺ بأنّ الحبشة النصرانيّة لن تؤذي أتباعه. ولقد كان أولئك الذين انتقلوا الى الحبشة، المهاجرين الأُوَل، الذين يؤلّفون مع الصحابة، الطبقة النبيلة الراقية في المجتمع الجديد. ولقد كان انتقالهم إلى الحبشة في العام ٦١٥م.

---

١ ـ الشعراء:١١١.

وعبثًا حاولت قريش أن تقنع أبا طالب بتسليمها محمّدًا ﷺ، وقد رفض أبو طالب كلّ إغراءاتها وتهديداتها بإباء، عندها لجأت قريش إلى مقاطعته، "فكتبوا الصحيفة القاطعة القاضية بألاّ يبتاعوا أحدًا من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتّى يدفعوا إليهم محمّدًا ﷺ فيقتلوه[1]...".

لم ينتهِ هذا الحصار الجائر على النبيّ ﷺ، الذي دام ثلاث سنوات، إلاّ بعد أن توفِّيت خديجة، وأبو طالب، وولداه: القاسم وكان في الرابعة، وعبد الله، وكان لا يزال رضيعًا. وقد ساءَت أحوال النبيّ، إذ بالإضافة إلى فقدانه أعزّ مَن له، كان قد "أنفق ما له، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها، وصاروا إلى حدّ الضرّ والفاقة".

فكّر النبيّ ﷺ في الانتقال إلى الطائف، التي كانت مصيفًا لأهل مكّة، وكان فيها مزار للاّت[2]. إلاّ أنّ أهل الطائف لم يتلقّوا محمّدًا ﷺ بالترحاب والإكرام، بل تجمهر الناس ورجموه بالحجارة. فلجأ إلى حديقة كان يملكها أحد زعماء المعارضة. ومن ثمّ عاد إلى مكّة حزينًا، وهو يتلو الصلاة التالية:

> اللهمّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي إلى من تكلني، إلى بعيد يتهجّمني أو عدوّ ملّكته أمري، إن لم يكن بك عَلَيَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقَت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحلّ عليّ سخطك. لك العتبى ترضى، ولا قوة إلاّ بك[3].

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٣١.

٢ ـ كانت اللاّت والعزّى ومناة آلهة تُعبد في الجزيرة العربية.

٣ ـ ابن هشام، سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، طبعة فيستنفلد (غيتنغن،١٨٥٨ ـ ١٨٥٩) ص٢٨٠.

الهُجـــــرة
إلى المَدينَة

بعد عودته إلى مكّة، حاول الرسول ﷺ هذه المرّة أن يجلب إلى دعوتـه زوّار مكّـة من حجّاج وتجّار. إلاّ أنه لم يحقّق غايته في بادىء الأمر، كما أنّه لم ييأس.

ولدى قدوم جماعة من يهود يثرب[1]، إلى مكّة، وجد النبيّ ﷺ عندها أذنًا صاغيـة، فإنّ هؤلاء اليهود كانوا قد سمعوا من أبناء مدينتهم أنّ زعيمًا دينيًّا عظيمًا سيظهر. وقد يكون محمّد ﷺ، هذا الزعيم. وكان لأُمِّ النبيّ ﷺ، آمنة، صلـة قرابـة بيثرب. وفـي يـوم حسن الطالع، تلقّى عهـدًا مـن وفـد مـن يـثرب، تعهّدوا فيـه بحمايتـه هـو وصحبـه فـي مدينتهم.

في هذه الأثناء، كانت قريش قد أجمعت علـى قتـل الرسـول ﷺ. وقـالوا: ليـس لـه اليوم أحد ينصره وقد مات أبو طالب. وإذ علـم الرسـول ﷺ بنوايـا قريـش، طلـب إلـى حوالى مائتين من أتباعه بأن يبارحوا مكّة متفرّقيـن، ليتوجّهـوا سـرًا إلـى يـثرب، التـي أصبحت في ما بعد تُعرف بالمدينة. وفـي ٢٤ أيلـول (سـبتمبر) ٦٢٢م، وصـل المدينـة محمّد ﷺ، وبرفقته أبو بكر، وابن عمّه عليّ بن أبي طالب ﷺ. وقـد أصبـح هـذا اليـوم بدء التقويم الهجريّ كما اقترحه عمر ﷺ، ونهاية الحقبة المكّيّة فـي حيـاة الرسـول ﷺ، وبداية الحقبة في المدينة.

في المدينة، برزت قدرة محمّد ﷺ على حقيقتها. فـإنّ ذلـك الـذي كـانت عشـيرته تنعتـه بالجنون حينًا، وتتّهمه بأنّه كاهن، أحيانًا، قد أوجد الحكومة المثال الأوّل للأمبراطوريـة الإسلاميّة العتيدة، في المدينة، حيث وُلد الإسلام الذي عـمَّ العـالم. كما أنّ تلـك الجاليـة

١ ـ يثرب: الإسم السابق للمدينة المنوّرة.

الإسلامية الأولى التي أسّسها النبيّ ﷺ في المدينة، سوف تكون نواة الأمّة الإسلاميّة في ما بعد.

ففي المدينة "نشأت من الجماعة الدينيّة، من مهاجرين وأنصار، أمّة الإسلام، وبقي الدين أساس وحدتها. ولقد كانت هذه أوّل محاولة في تاريخ الجزيرة العربيّة لتكوين أمّة قائمة على رابطة الدين والنظم الإجتماعيّة، لا على أساس العصبيّة الدموية، كما كانت الحال في الماضي. وتولّى محمّد ﷺ زمام السلطة الزمنيّة، بالإضافة إلى سلطته الروحيّة... وأصبح المسلمون إخوانًا في الدين والعقيدة، بقطع النظر عن نزعتهم القبليّة"[1].

فبينما كان محمّد ﷺ وهو في مكّة، داعيًا لدين جديد فحسب... في المدينة، أصبح حاكمًا يرعى شؤون المسلمين ويوجّه أمورهم ويسنّ القوانين ويقود الجيوش ويقضي في جميع شؤون الناس[2].

كانت المشكلة الأولى التي توجّب على محمّد ﷺ حلّها في المدينة، "إطعام الفقراء من المهاجرين وإيواءَهم. فراح يوزّعهم بين الأنصار، الأمر الذي كان بمثابة تطبيق عمليّ لمبدأ الأخوّة في الإسلام. وأفلح النبيّ ﷺ في تطبيقه. ويبدو أنّ عدد الأنصار في المدينة ازداد بسرعة. وكانت الأمراض الاجتماعيّة الاقتصاديّة في المدينة، ذاتها في مكّة. فإنّ المدينة كانت تعيش حقبة انتقال من البداوة إلى الحياة المتحضّرة المتمدّنة، بفارق واحد، وهو أنّ أهل المدينة المتحضّرين كانوا يعتمدون الزراعة، بينما كان أهل مكّة المتحضّرون يعتمدون التجارة، ويعيشون عيش المدن. وهذا الانتقال من أسلوب

---

١ ـ حتّي د. فيليب، "العرب، تاريخ موجز" صفحة ٤٤ ـ ٤٥.

٢ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، دار الرقي (١٩٨٤) ص٤٦٦.

في العيش إلى آخر، يولّد الخصومة بين القديم والحديث. أمّا في السياسة، فكان هناك اختلاف بين المدينتَين. فإنّ مكّة كانت مدينة موحّدة القيادة بإشراف قريش وسلطتها، الأمر الذي كان ينقص المدينة، حيث كانت الحياة العامّة تتميّز بالحروب الثأريّة والمنازعات الداخليّة بين قبيلتَين رئيسيتَين: الأوس والخزرج[1]. وممّا زاد في تعقّد الحالة السياسيّة السائدة في المدينة، وجود ثلاث قبائل تدين باليهوديّة. هذا التفكّك السياسيّ، إلى جانب وجود جماعة تنتظر مهديًّا أو مخلّصًا مشيحًا منتظرًا، هي جماعة اليهود، قد هيّأ الجوّ لأهل المدينة لأن يتقبّلوا، عن رضى، نبيًّا ذا سلطة تقوم على الدين"[2].

في هذه الأثناء، "ومنذ وصل محمّد ﷺ إلى المدينة... بدأ العمل على إقامة شعائر دينه الجديد. فبنى مسجده الذي سوف يُدفن فيه. ولمّا اطمأنّ بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، واستحكم أمر الإسلام، أمر الرسول ﷺ بإقامة الصلاة خمس مرّات في اليوم... كما أمر بصوم شهر رمضان... وحمى حقوق الملكيّة... ومنذ ذلك الوقت قامت الحدود وعُرف الحلال والحرام، وكان محمّد ﷺ حين قدم المدينة يجتمع إليه الناس للصلاة في مواقيتها بغير دعوة. فتشاور المسلمون يومًا، فقال بعضهم: أنتّخذ ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال آخرون: لنتّخذ بوقًا مثل بوق اليهود. وبينما هم على ذلك، إذ قدم عبد الله بن زيد، وهو أنصاريّ من الخزرج، إلى رسول الله ﷺ وقال: ـ يا رسول الله إنّه طاف بي هذه الليلة طائف... مرَّ بي رجل

---

١ ـ **الأوس والخزرج**: قبيلتان عربيّتان من الأزد من كهلان، يمانيّتان، ارتحلتا إلى الجنوب إثر تصدّع سدّ مأرب فاستوطنتا المدينة وما داناها، اعتنق أبناؤهما الإسلام، وصفهم القرآن الكريم بالأنصار وهم الذين "أووا ونصروا" ثمّ عُرفوا بهذه التسمية وبها انتخوا وفاخروا.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٣.

عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسًا في يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلّك على خيرٍ من ذلك؟ قلت: وما هو؟ أجاب: أن تقول: ـ الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلاّ الله ـ قال محمّد ﷺ: إنّها لرؤيا حقّ إن شاء الله... فقم مع بلال[1] فألقها عليه. فليؤذّن بها فإنّه أندى صوتًا منك. ومنذ اللحظة، صار هذا النداء آذانًا للدعوة للصلاة. واستقلّت شَعيرة من شعائر الإسلام عن مجاراة اليهود في بوقهم والنصارى في ناقوسهم"[2].

حاول الرسول ﷺ طوال المرحلة الأولى من دعوته أن يقيم بينه وبين اليهود نوعًا من التعايش السلميّ، يجمع بين أقدم ديانتَين موحّدتَين[3]. فإنّ بعض العقائد الجوهريّة كانت مشتركة. ونبوّة محمّد ﷺ لا تختلف عن نبوّة إبراهيم عليه السلام ولا عن دعوة عيسى عليه السلام. وكانت القبلة في الصلاة بيت المقدس. وأحلّ للمسلمين أن يؤاكلوا أهل الكتاب وأن يتزوّجوا من نسائهم ولكن ما أن لبث النبيّ ﷺ مدّة في المدينة حتّى شعر بأنّهم ليسوا على ما ظنّه بهم. فإنّ اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار، وأنّهم الوحيدون من ذريّة إبراهيم عليه السلام. فلم يُبدوا استعدادًا لأن يدمجوا أحدًا في دينهم،

---

١ ـ **بلال بن رباح الحبشي** (ت٢٠ هـ/ ٦٤١م): صحابي، أوّل من أذّن، كان عبدًا افتكّه وحرّره أبو بكر، قاتل مع النبيّ ﷺ في جميع الغزوات، توفّي بدمشق.

٢ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٦٦ ـ ٤٦٧؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة: BARBIER DE MEYNARD ET PAVET DE COURTEILLE, تنقيح: CHARLES PELLAT، منشورات الجامعة اللبنانية؛ توزيع المكتبة الشرقية (بيروت،١٩٧٠) ٣: ٢٨.

٣ ـ ﴿وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ البقرة: ١٢٧ ـ ١٣١.

ولا أبدوا استعدادًا لأن يُدمَجوا في دين غيرهم. ونشبت حرب باردة بينه وبين اليهود. وهكذا، أمر النبيّ ﷺ، عند بدء السنة الثانية للهجرة، بأن تحول القبلة عن بيت المقدس إلى مكّة[1].

وقبل انصرام السنة الثانية لهجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة، كان قد عقد قرانه على عائشة بنت أبي بكر، وهي صغيرة، قبل وفاة ابنته رقيّة، وكان زواج عليّ عليه السلام بابنته الثانية: فاطمة. ولن تمرّ السنة الثالثة على الهجرة، إلاّ ويكون النبيّ ﷺ قد تزوّج زينب بنت خزيمة التي توفّيت بعد شهرين من ذلك الحدث، ويكون أيضًا قد تزوّج عفصة بنت عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، ويكون عثمان بن عفّان رضي الله عنه قد تزوّج أمّ كلثوم ابنة النبيّ ﷺ. ويكون قد وُلد لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ابنه البكر من بنت النبيّ ﷺ: الحسن عليه السلام[2].

مَعْرَكَةُ

بَدر

لم تكد تنقضي سنتان على الهجرة، حتّى كانت المدينة قد أضحت في وضع دقيق. فالحالة الاقتصاديّة قد ساءَت إلى حدّ الخطر، وموارد المدينة كانت محدودة. وما عادت تدابير الرسول ﷺ بكافية لتأمين الاستقرار. وكانت أنظار أهل المدينة تتطلّع إلى القوافل المكيّة الراجعة من سورية ناقلة البضائع، والدنانير الكثيرة في جيوب أصحابها.

---

١ - ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ. وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ البقرة: ١٤٤ - ١٤٥؛ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص٣٨؛ اليعقوبي، ٢: ٤٢؛ المسعودي، ٣: ٢٨.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٢٨.

إضافة إلى عامل الإغراء الماديّ الذي كانت تشيعه تلك القوافل، ذلك الإغراء الذي كان من الصعب على أهل المدينة، وهم على ما كانوا عليه من عوز، أن يستطيعوا مقاومته، قد كان إنزال الضربة في القوافل المكيّة بمثابة إنزال الضربة في شريان مكّة الاقتصاديّ الحيويّ.

وفي يوم من أيّام رمضان الحرام[1]، الموافق أواسط آذار (مارس) ٦٢٤م. كان النبيّ ﷺ قد جنّد ٣١٤ مقاتلاً بحسب تقدير ابن هشام[2]، رابطوا، وعلى رأسهم النبيّ ﷺ، على درب القوافل، في مكان فيه ماء للسقاية يقع إلى الجنوب الغربيّ من المدينة، ينتظرون مقدم القافلة. هذا المكان كان يسمّى بَدْر.

كانت القافلة تتألف من حوالى ألف جمل يقودها أبو سفيان[3]، زعيم بني أميّة، وهي عشيرة من قريش. وبالرغم من المدد الذي وصل سريعًا من مكّة بناء على طلب أبي سفيان، وقوامه تسعمئة رجل "ترافقهم مغنّيات لبعث الحماسة في قلوب المقاتلين" فلقد حقّق المسلمون بقيادة نبيّهم ﷺ أوّل نصر عسكريّ كان له وقعه الكبير وتأثيره المعنويّ الذائع.

فبعد مبارزة قصيرة بين فارسين، التحم الجيشان. وقد ظهرت براعة محمّد ﷺ القتاليّة في أوّل معركة حربيّة له، إذ كان أصدر الأوامر إلى رجاله كي يحاربوا متراصّين، مستعملين السهام أوّلاً، ومحتفظين بالسيوف إلى وقت لاحق في المعركة. وكانت قريش واثقة من النصر بحيث أنّ رجالها دخلوا المعركة بدون خطّة وبدون

---

١ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٢: ٢٨، أرّخها في ١٧ رمضان؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥، أرّخها في ١٣ رمضان.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٥، قدّرهم بثلاثمائة.

٣ ـ أبو سفيان صخر بن حرب بن أميّة (ت٣١هـ/ ٦٥٢م): ثريّ مكيّ من قريش، من أشدّ المناوئين للإسلام، قاد المشركين ضدّ المسلمين في أحد والخندق، أسلم يوم فتح مكّة وجاهد مع المسلمين، والد معاوية مؤسّس الدولة الأمويّة.

تدريب ونظام. وبينما كانت قريش تحارب لتخليص أموالها، كان المسلمون، يحاربون من أجل البقاء... بكلّ ما في هذا التعبير من معنى عميق، وفي سبيل الله، بكلّ ما يعنيه ذلك من إيمان... فكان النصر الذي أحرزه المسلمون، على قلّتهم، حاسمًا. وجاء فاجعة على أهل مكّة، الذين هربوا مخلّفين وراءَهم حوالى سبعين قتيلاً وسبعين أسيرًا. واستُشهد من المسلمين ثمانون رجلاً. وجاءَ الوحي: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]. وعلى هذا الذي أصبح سنّة في ما بعد، وُزّعت غنائم بدر[٢].

يفرض الإنصاف هنا إلقاء بعض الأضواء على خلفيّات معركة بدر، التي قد تبدو للوهلة الأولى وكأنّها نوع من قطع الطرق. إلاّ أنّ ما يجب إدراكه أنّ "هذه الحرب قد وجبت، حين كان على محمّد ﷺ أن يؤمّن حياة المسلمين في المدينة، ويردّ إلى المهاجرين حقوقهم التي سلبها منهم أهل مكّة وطردوهم عنها. وهو كان يعرف أنّه بهذا العمل سوف يثير أهل مكّة لكي يخرجوا إليه في قتال صريح، ولكنّه كان يعلم أيضًا ألاّ سبيل له إلى استرداد حقوق المسلمين إلاّ من هذا الطريق[٣].

معركة أُحُد

كان لمعركة بدر، ونتائجها، تأثير معنويّ إيجابيّ كبير على المسلمين، وقد أنزلت الإحباط والقلق في نفوس المشركين. فبينما فسّر المسلمون هذا النصر على أنّه نصر

---

١ ـ الأنفال: ٤١.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٦.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٦٨.

من السماء، جاء تأييدًا لدين الله، وعقابًا للمشركين، واشتركت الملائكة بألف منها في المعركة مُعينة المسلمين[1]، فقدت قريش نفوذها، وفقدت ثقتها بعزّها وسلطانها، وراح أبو سفيان يهيّئ لضرب المسلمين، إنتقامًا وإنقاذًا للمصالح. ذلك بعد أن قال أهل مكّة بأنّ تجارتهم فسدت، ولم يعودوا آمنين في إرسال سلعهم إلى الأسواق الخارجيّة... وكلّ هذا بسبب محمّد ﷺ والإسلام.

بعد حوالي سنة من وقعة بدر، "إجتمعت قريش، واستعدّت لطلب ثأرها... واستعانت بالمال الذي قدّمه أبو سفيان، وقد قالوا: لا تنفقوا منه شيئًا إلاّ في حرب محمّد" ﷺ.[2] وعندما وصلت أخبار هذه الاستعدادات الى الرسول ﷺ "كان رأيه ألاّ يخرج من المدينة لرؤيا رآها في منامه... تأوّلها بأنّ نفرًا من أصحابه يُقتلون، وأنّ رجلاً من أهل بيته يُصاب. فأشارت إليه الأنصار بالخروج، فلمّا لبس لباس الحرب ردّت إليه الأنصار الأمر، وقالوا: لا نخرج... فقال: الآن وقد لبست لأمتي[3]، والنبيّ ﷺ إذا لبس لأمته لا ينزعها حتّى يقاتل، ويفتح الله عليه. فخرج ومعه المسلمون وعددهم ألف حتّى صاروا إلى أُحُد"[4]. وخرجت قريش بثلاثة آلاف رجل... إلاّ أنّ أحداثًا جرت، غيّرت ما كان يمكن أن تكون عليه نهاية المعركة، إذ حدث انقسام في صفوف المسلمين بعودة فرقة منهم إلى المدينة، بينما أهمل الرماة، وسط المعركة، وصيّة الرسول ﷺ لهم بالثبات في أماكنهم دون طمع بالغنيمة حتّى يُصدر إليهم أمره. وكان لا بدّ حين اندفعوا يتعجّلون الغنيمة تاركين أماكنهم، من أن ينتهز المشركون بقيادة

---

١ ـ راجع: الأنفال: ٩ ـ ١٢، ١٧.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٧.

٣ ـ **اللأمة**: بمعنى الدّرع، جمعها اللأم.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٧؛ **أُحُد**: جبل يقع شمال المدينة.

خالد بن الوليد[١] فرصة خلوّ الجبل من الرماة، فيأتوا المسلمين من خلفهم ويعملوا في ظهورهم الرماح. ودبّ الذعر في المسلمين خاصّة عندما صاح صائح أنّ محمّدًا ﷺ قُتل. وكان الذي حدث لمحمّد ﷺ هو أنّ الاعداء وصلوا إليه بالفعل، ورماه أحدهم بحجر، فأُصيب في وجهه وشُقّت شفته، ثم ضربه آخر فشجّ جبهته، وتبعه ثالث بضربة في الوجه فدخلت حلقتان من خوذة الرأس في وجنتيه، فوقع في حفرة من الحفر التي كان المشركون قد حفروها لتكون أفخاخًا لاصطياد المسلمين. وانتشر في الناس أنّ محمّدا ﷺ قد قتل، وانطلق أهل مكّة عائدين وفي قلوبهم فرح كبير. وانتهت المعركة هذه المرّة بالفعل بانتصار قريش وهزيمة المسلمين[٢].

في هذه المعركة قُتل حمزة بن عبد المطّلب أسد الله وأسد رسوله ﷺ، رماه وحشيّ عبد، لجبير بن مطعم، بحربة، فسقط، ومثّلت به هند بنت عتبة بن ربيعة، وشقّت عن كبده فأخذت منها قطعة فلاكتها، وجدعت أنفه... وانهزم المسلمون ولم يبقَ مع الرسول سوى عليّ عليه السلام والزبَير[٣] وطلحة[٤]. وعاتب الله المسلمين في

١ ـ **خالد بن الوليد** (ت٢١هـ/ ٦٤٢م): صحابيّ مخزوميّ، قائد وفارس شجاع ثقف بفنون الحرب، سوف يتبع الدعوة الإسلاميّة في السنة السادسة للهجرة/ ٦٢٩م، من القادة في فتح مكّة مع النبيّ، سيلقّبه النبيّ ﷺ "سيفًا من سيوف الله"، سوف يقود بحروب الردّة ويظفر، وسيقود الجيوش الإسلاميّة في فتوح فارس والشام، وسينتصر على الفرس ويحتلّ الحيرة ٦٣٣، ويهزم الروم بأجنادين ٦٣٤ واليرموك ٦٣٦، وفاته في المدينة.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٧١ ـ ٤٧٠.

٣ ـ **الزُبَير بن العوّام** (ت٣٦هـ/ ٦٥٦م): قرشيّ أسديّ، ابن عمّة النبيّ ﷺ، اعتنق الإسلام بأوّل صباه، صحابيّ من العشرة المبشّرة، حواريّ النبيّ ﷺ، هاجر إلى الحبشة ثمّ المدينة، قاتل في جميع الغزوات مع النبيّ ﷺ، من أهل الشورى بانتخاب الخليفة، انسحب من قتال عليّ عليه السلام في الجمل، اغتاله ابن جرموز وهو يصلّي.

٤ ـ **طلحة بن عبيدالله** (ت٣٦هـ/ ٦٥٦م): صحابيّ قرشيّ تيميّ، من العشرة المبشّرة، من أغنياء قريش، كان يسمّى طلحة الفيّاض وطلحة الجود لسخائه، قُتل بوقعة الجمل وهو بجانب عائشة.

آيات من كتابه... وقُتل منهم ثمانية وستّون رجلاً، ومن المشركين اثنان وعشرون[1].

ولكن، بالرغم من أنّ قريشًا قد ثأرت لنفسها من معركة بدر، فإنّ موقعة أُحد، لم تستطع أن تحجب هالة النور التي كانت تجلّل هامة بدر. ولن يلبث الإسلام حتّى يستعيد بعدها قوّة ونشاطًا، ويضمن لنفسه البقاء والانتشار.

إلى هنا، كان الإسلام دينًا يدخل ضمن الدولة، ولكن بعد ذلك الحين، أصبح أكثر من دين الدولة، إذ أصبحت الدولة ذاتها تُعرف به. ومنذ ذلك الحين، أصبح الاسلام، كما عرفه ويعرفه العالم: دينًا ودولة وقوّة جهاديّة[2].

معركة الخَندَق

... بعد معركة أُحد، كان من الطبيعيّ ألاّ تسكت قريش، وألاّ يستكين المسلمون. فقريش، لن تدع تلك الفرصة بعد أن أطمأنّت إلى أنّها قد هزمت محمّدًا ﷺ وأتباعه، بل ستعدّ العدّة لغزوة أخرى بهدف القضاء على ما بقي له من قوّة. والمسلمون، وقد واجهوا ما واجهوه من استخفاف من قِبَل بعض القبائل المحيطة بهم، خاصّة اليهودية منها، حتّى استهانوا بقوة أتباع محمّد ﷺ... كان لا بدّ لهم من استعادة سطوتهم.

تشجّعت قريش بعد معركة أُحد، فأقدمت على مهاجمة المدينة، يساندها حلفاء من اليهود والبدو المرتزقة. كان ذلك سنة ٦٢٧، وقد بلغ عدد المهاجمين هذه المرّة،

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٨.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٧.

عشرة آلاف مقاتل، ولم يكن قد مضى على هجرة محمّد ﷺ إلى المدينة سوى خمس سنوات.

واجه محمّد ﷺ هذه الهجمة بقوّة. وبناء على مشورة من سلمان الفارسيّ[1]، أمر النبيّ ﷺ بحفر خندق حول المدينة، جاعلاً لكلّ قبيلة حدًّا يحفرون إليه، وشاركهم هو بالحفر. وبعد الانتهاء، جعل للمدينة معابر عُرفت بالأبواب، ووضع عليها حرسًا، قوامه رجل من كلّ قبيلة، بقيادة الزبَير بن العوام. وقد بلغ عدد المستنزفين مع محمّد ﷺ لهذه المعركة، سبعمائة رجل بحسب اليعقوبيّ[2]. بينما ذكر بعض المراجع أنّ عددهم بلغ ثلاثة آلاف[3].

فوجىء المهاجمون بالخندق الذي لم يكن للعرب سابقة به في فنونهم الحربيّة. وإذ تعذّر عليهم دخول المدينة، لجأوا إلى حصارها. وفي اليوم الخامس من الحصار، حصلت مبارزة بين الفريقَين، كما جرت العادة عند بداية كلّ معركة، اشترك فيها ابن عمّ النبيّ ﷺ، عليّ بن أبي طالب عليه السلام، عن المسلمين، وعمرو بن عبد ودّ عن المشركين، فقُتل عمرو، وآخر من رفاقه، هو نوفل بن عبد الله بن المغيرة، الذي قتله عليّ عليه السلام وهو يحاول الفرار مع بعض من جماعته.

بعد أيّام من حصار المشركين وحلفائهم، وقد عُرفوا بالأحزاب، للمدينة، ذكر بعضهم أنّها بلغت عشرين يومًا، إضطرّ المسلمون آخر الأمر إلى أن يُعملوا الوقيعة بين صفوف الأحزاب، فاختلفت، وعزم بعضها على الرحيل. ثم لعبت الطبيعة دورًا

---

١ ـ سلمان الفارسيّ (ت٣٥هـ/ ٦٥٥م): من خواص الصحابة، كان رقيقًا، أسلم بعد الهجرة، قال الرسول ﷺ عنه "سلمان منّا آل البيت"، أشار على النبيّ ﷺ بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، سيولّيه عمر عاملاً على المدائن، كان يأكل من كدّ يمينه ويتصدّق بالفائض، روى الحديث عنه ابن العبّاس وأبو هريرة.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٧.

آخر بريح عاتية جعلت تـنزع خيام المهاجمين... "فانصرفوا هاربين لا يلوون على شيء، حتّى ركب أبو سفيان ناقته وهي معقولة. فلما بلغ الرسول ﷺ ذلك قال: عوجل الشيخ. وكانت الحرب على ما رُوي ثلاثة أيّام بالرمي بغير مجالدة ولا مبارزة، باستثناء مبارزة عليّ ﵇ السابقة الذكر، وقد اتّصلت في اليوم الثالث حتّى فاتت صلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة، فقال محمّد ﷺ: شغلونا الصلاة، ملأ الله بطونهم وقبورهم نارًا. ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصلّى الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء، وذلك قبل أن تنزل الآية: "فإن خفتم فرجالاً أو ركبانًا" . وإثر هذه المعركة، نزلت سورة الأحزاب التي قصّ فيها ما قصّ[1].

أسفرت معركة الخندق عن مقتل ستّة مسلمين وثمانية من المشركين وأعوانهم بحسب اليعقوبيّ، بينما جعل بعضهم عدد القتلى الذين خلّفهم المهاجرون وراءَهم عشرين. إلاّ أنّ المؤرّخين أجمعوا على أنّ المكّيِّين قرّروا ألاّ يتحدّوا المسلمين بعد ذلك.

وقعَات اليَهود

قبل ذلك التاريخ، كانت الحرب الباردة بين اليهود والمسلمين قد شهدت بعض السخونة، منها ما عُرف بوقعة النَّضير. والنضير هي فخذ من جذام، كانوا تهوّدوا ونزلوا بجبل يُقال له النضير، فسمّوا به.

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

خبَر هذه المعركة التي وقعت بعد وقعة أُحد بأربعة أشهر، أنَّ بني النضير تآمروا على *قتل النبيّ ﷺ، وقد كلّفوا بذلك كعب بن الأشرف*[1]. *فوجّه النبيّ ﷺ من يقتل كعبًا* هذا، وفي الوقت نفسه، بعث إلى النضير: أن اخرجوا من دياركم ومعكم أموالكم. وإذا تمرّدوا، سار إليهم الرسول ﷺ، بعد العصر، فقاتلهم، وقتل منهم جماعة. فلمّا رأوا أنّه لا قوّة لهم على محاربة المسلمين طلبوا الصلح. وكعادته، أبدى الرسول ﷺ نبلاً ملحوظًا، فوافق، على أن يخرجوا من بلادهم ومعهم ما بوسع إبلهم أن تحمل من متاعهم، دون أن يأخذوا مغهم ذهبًا أو سلاحًا. فتحمّلوا إلى الشأم. وفرّق الرسول ﷺ الغنائم بين المهاجرين. وفي هذه الوقعة، "شرب المسلمون الفضيخ[2] فسكروا، فنزل تحريم الخمر"[3]. وعندما كانت وقعة الخندق بعد تلك الحادثة، كان اليهود من أبرز المتحالفين مع المشركين من بني قريش، انتقامًا. فقاتل يومها مع هؤلاء، إضافة إلى بني النضير، يهود خيبر[4] ومن ألّبوه معهم.

أمام هذا الواقع، كان لا بدّ للرسول ﷺ من أن يحوّل اهتمامه إلى اليهود، خاصّة وأنّهم قد نقضوا العهود، وبدل من أن ينصروه ويحموه كما تمّ التعاهد، ها هم يقاتلونه ويتآمرون عليه. من ذلك ما حصل مع بني قريظة، وهي فخذ من جذام إخوة النضير. قيل إنّ تهوّدهم كان في أيّام السموأل[5].

---

١ ـ **كعب بن الأشرف** (ت٣هـ/ ٦٢٥م): شاعر جاهليّ من طيء وأمّه من يهود بني النضير، كان يحرّض قريشًا على المسلمين ثمّ عاد من مكّة للمدينة فشبب بالمسلّمات فتواعد نفر من الأنصار على قتله، قتله محمّد ب مسلمة.

٢ ـ **الفضيخ**: شراب يُتّخذ من التمر.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٤٩.

٤ ـ **خَيبَر**: واحة في الحجاز، غزاها النبيّ ﷺ ٦٢٨ وفرض الأتاوة على سكّانها اليهود، ثمّ أخرجهم منها عمر بن الخطّاب ﵁.

٥ ـ **السموأل** (ابن عادياء): شاعر جاهليّ يهوديّ (صموئيل) صاحب الحصن المعروف بالأبلق، يُضرب به المثل في الوفاء لأنّه فضل قتل ابنه على التفريط بأمانة أودعها عنده امرؤ القيس لمّا سار إلى الشام يريد القيصر. توفّي حوالي ٥٦٠ م.

وبينما يرى بعضهم أنّ هؤلاء قد نزلوا بجبل يُقال له قريظة، فنُسبوا إليه، يعتقد آخرون بأنّ نسبهم يعود إلى اسم جدّهم: قريظة.

عشيّة وقعة الخندق واستعداد هؤلاء لمؤازرة المشركين، وجّه محمّد ﷺ إليهم من قبله رسولاً يذكّرهم بالعهد، فأساؤوا الإجابة. وهكذا، إثر الخندق، وهزيمة قريش، دعا محمّد ﷺ عليًّا ؏ وطلب إليه أن يهاجم بالمهاجرين بني قريظة، وتوجّه إلى المهاجرين بقوله: "عزمت عليكم ألاّ تصلّوا العصر إلاّ في بني قريظة".

بنتيجة ذلك، طُردت هذه القبيلة من المدينة، مخلّفة وراءَها مزارع النخيل التي وُزّعت على الفقراء المهاجرين والأنصار[1].

وقبل أن يسير هؤلاء لاجئين إلى خيبر "انصرف الرسول ﷺ واصطفى منهم ستّ عشرة جارية، فقسّمها على فقراء هاشم، وأخذ لنفسه منهنّ واحدة يقال لها ريحانة"[2]. كان ذلك في العام ٦٢٥، أي في السنة الرابعة لهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. وفي بداية السنة السابعة (٦٢٨) جاء دور خَيْبَر.

خيبر، واحة يهوديّة خصبة تقع على مسافة مئة ميل شماليّ المدينة. كانت منيعة الحصون يصعب على البدو مهاجمتها، ولذا أصبحت وكرًا للدسائس التي كانت تُحاك ضد الإسلام. وكانت قد أرسلت كتيبة لتساعد المكّيّين في حصارهم للمدينة.

كان لخيبر ستّة حصون، يرابط فيها عشرون ألف مقاتل. تمكّن المسلمون بقيادة محمّد ﷺ من فتحها حصناً حصناً، وبقي حصن "القموص"، الذي كان أشدّ تلك الحصون وأمنعها، وكان على هذا الحصن مرحب بن الحارث اليهوديّ. فقال الرسول ﷺ:

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٩.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٢.

لأدفعنّ الراية غدًا إن شاء الله إلى رجل كرّار غير فرّار، يحبّ اللـه ورسـوله، ويحبّـه الله ورسوله، لا ينصرف حتّى يفتح الله على يـده؛ ودفـع الرايـة إلـى علـيّ ﷺ، الـذي سرعان أن قتل مرحبا اليهوديّ، واقتلع باب الحصن، وكان حجـرًا طولـه أربعـة أذرع في عرض ذراعَين في سمك ذراع، فرمى عليّ بن أبي طالب ﷺ بالحجر خلفه ودخل الحصن ودخله المسلمون[1].

بعد قتال دام أسبوعَين، استسلمت خيبر في حزيران (يونيو) ٦٢٨، وقبلت أن تدفـع نصف قيمة إنتاج مزارعها وحقولها خراجًا لمحمّـد ﷺ، وكـان هـذا الخـراج ممّـا خفّـف عليه بعض الضائقة. وأصبحت خيبر بلدًا ضعيفًا لا يصدر عنه ضرر أو أذيّة[2].

وهنا يظهر مؤشّر آخر، عن نبل الرسول العربيّ ﷺ وروحه السـمحة. فهـو، علـى الرغم من كل ما عاناه على يد المكيِّين، كان قد بلغه أنّ في مكّـة ضـرًّا وحاجـة وجدبًـا وقحطًا. فبعد فتح خيبر، قسم بين بني هاشم من صحبه، أوساق التمر والقمح والشـعير، ثم قسم بين الناس كافّـة، وأرسـل إلـى مكّـة أحمـالاً مـن الغـلال، استلمها عـدوّه اللـدود السابق، أبو سفيان، وفرّقها على فقراء قريش، وقال: جزى اللـه ابـن أخـي خيرًا فإنّـه وَصولٌ لرحَمه[3].

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٦.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٩.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٥٦.

الحديبيَة،

وفتح مكّة

قبل الانتصار العسكريّ الذي حقّقه الرسول ﷺ في خيبر، كان قد حقّق انتصارًا سلميًّا رائعًا في مكّة. فإنّه بعد مفاوضات جرت بينه وبين أشراف قريش، انتهى الأمر إلى توقيع صلح الحُديبية[1].

خبر ذلك أنّ الرسول محمّدًا ﷺ، قد خرج في أواخر السنة السادسة لهجرته (٦٢٧) بمَن معه من المسلمين، معتمرًا، لا يريد حربًا. وساق معه الهَديَ[2] ليبرهن عن أنّ قصده زيارة البيت وتعظيم الحرمات. غير أنّ قريشًا علمت بنيّة الرسول ﷺ، فأمسكوه بمكّة. وإذ شاع أنّهم قتلوه، أعلن الرسول ﷺ صحبه بالبيعة، وبايعهم على الموت، وسُمّيت "بيعة الرضوان" وقد حصلت تحت الشجرة. إلاّ أنّ عثمان ﷺ قد عاد سالمًا، وأوفدت قريش مفاوضًا عنها، وتمّ عقد معاهدة الصلح، أو الهدنة، بين الرسول ﷺ وقريش، في موضع الحديبية. وقد جاء فيها: "إنّه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك، فدخلتها بأصحابك". وقد نصّ صلح الحديبية على أن يكون أجَل الهدنة عشر سنوات.

كان محمّد ﷺ يعرف جيّدًا أنّ الناس منذ قرون طويلة يعتبرون المسجد الحرام والحجر الأسود وبئر إسماعيل في مكّة، أماكن مقدّسة. غير أنّ الأمر الذي حدّد موعد غزو مكّة، كان نقض قريش لصلح الحديبية، بعد وقت قصير من إبرامه، عندما أغار المكّيّون على قبيلة خزاعة الموالية للمسلمين. فاستجارت القبيلة بمحمّد ﷺ. فكان لا بدّ من أن يسير إلى مكّة لفتحها.

---

١ - **الحديبية**: بلدة صغيرة على بعد تسعة أميال إلى الشمال من مكّة.

٢ - **الهَدي**: الواحدة "هَدْيَة": ما أهدى إلى الحرم من النعم - القرابين.

كان ذلك في السنة الثامنة للهجرة، حين جمع محمّد ﷺ جيشًا قوامه عشرة آلاف رجل مسلّح من أتباعه، وزحف بهم على مكّة[1].

يعتبر كبار المحقّقين المحدثين في التاريخ العربيّ، أنّ الجيش الذي زحف به الرسول ﷺ إلى مكّة، لم يتعدّ عدده الألف مقاتل، وأنّ الزحف قد حصل في كانون الثاني (يناير) ٦٣٠، وقد دخل الرسول مكّة، مسقط رأسه، دخول الظافر المنتصر، ولم تُبدِ قريش أيّ مقاومة. ودخل عدوّه الأوّل، أبو سفيان، في الإسلام، بعد أن قاومه طويلاً بضراوة شديدة، وقد أبدى الرسول العربيّ من ضبط النفس والشهامة ما يتناسب مع مقامه كرجل دولة، اذ لم يسمح بقتل سوى عشرة أشخاص من قريش، كانوا قد تطاولوا على الإسلام ورسوله ﷺ إلى حدّ قبيح. ولم يترك لنا التاريخ في سرد الأخبار عن دخول الظافرين المدن المغلوبة على أمرها ما يشبه دخول محمّد ﷺ مكّة من حيث التسامح والنبل[2].

وكان أهل مكّة، عندما عرفوا بنبأ اقتراب الجيش، هربوا إلى التلال رعبًا وفزعًا، ولم يعد بمكّة واحد من أهلها. وأخذ الناس وهم فوق التلال يرقبون في خوف تقدّم الجيش العظيم القادم من المدينة. ودخل المسلمون مكّة، المدينة المهجورة، وعلى رأسهم رسولهم ﷺ وقائدهم على ظهر جمله "القصوى". وزحفوا في الشوارع الخالية، رأسًا نحو المسجد الحرام. وأوقف محمّد ﷺ على الصنم وأنزلوه من مكانه وحطّموه. عندئذ مضى محمّد ﷺ إلى الصنم الثاني، وأشار إليه، وردّد قول: "قل جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقًا...". فحطّمه المسلمون هوالآخر. وأخذ محمّد ﷺ ينتقل من

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٧٧.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٣١.

صنم إلى آخر حتّى قضى على الأصنام الثلاثمائة والستّين. ثمّ أمر رجاله بعدم تحطيم أيّ شيء آخر في مكّة، أو سلب أسواقها، أو الإتيان بأيّ خطيئة. وعندما عاد الهاربون من الجبال ورأوا أنّ محمّدًا ﷺ قد جاء مسالمًا ليتعبّد في المسجد الحرام، ولم يكن يعتزم قتلاً أو نهبًا... دخلوا دين الإسلام واعترفوا بمحمّد ﷺ رسولاً وزعيمًا وقائدًا[1].

وإن اختلفت روايات المصادر الأساسيّة حول تفاصيل فتح مكّة، إلاّ أنّها تُجمع في النهاية على أنّ ذلك الفتح، لم يكن دمويًّا، وأنّ الرعب الذي سيطر على المكّيِّين عند وصول المسلمين إلى مكّة، سرعان ما زال، عندما تأكّدوا من سلامة نوايا محمّد ﷺ.

وبعد أن حطّم الرسول ﷺ الأصنام، أصبحت الكعبة طاهرة من الرجس، وجعل منها محمّد ﷺ، حرمًا إسلاميًّا إذ قال: "... ألا وإنّ مكّة محرّمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلي ولا تحلّ لأحد من بعدي وإنّما حلّت لي ساعة ثم أغلقت، فهي محرّمة إلى يوم القيامة لا يُختلى خلالها ولا يُعضد شجرها ولا ينفّر صيدها ولا تحلّ لُقطتها إلاّ لمنشد، ألاَ أنّ في القتل شبه العمد الديّة والولد للفراش وللعاهر الحجر"[2].

وأمر بلالاً أن يصعد على الكعبة، فأذّن. فعظم ذلك على قريش، وقال بعضهم: إنّ ابن رباح ينهق على الكعبة... وعندما علم الرسول ﷺ بذلك، أرسل إليهم بعض رجاله، فقالوا: قد قلنا، فنستغفر الله، فقال محمّد ﷺ: ما أدري ما أقول لكم ولكن يُحضر الصلاة فمن صلّى فسبيل ذلك وإلاّ قدمته فضربت عنقه.

لا شكّ في أنّ ذلك اليوم الذي تمّ فيه فتح مكّة، كان من أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح الدعوة الإسلاميّة. فقد تأكّدت القبائل العربيّة التي رفضت الدعوة من قبل

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٧٧ ـ ٤٧٨.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٠.

"من أنّ المسلمين تلحظهم عناية إلهيّة لا قبَل لغيرهم بها... فسارعوا إلى الإسلام ودخلوا فيه أفواجًا"[1]. وجاء اعتراف الرسول ﷺ بالكعبة وبالحجر الأسود[2] وببئر زمزم[3]، وهي من بقايا الجاهليّة العربية، ليجعل الإسلام يبتعد عن الديانتَين التوحيديّتَين: اليهوديّة والمسيحيّة[4].

غَزوَات الرسُول

بعد فتح مكّة، لم يهجر محمّد ﷺ المدينة، بل هو عاد إليها. وإذا كانت مكّة قد غدت، منذ ذلك الحين، عاصمة الإسلام الدينيّة، فإنّ المدينة بقيت، عاصمته السياسيّة[5]. ومن هناك، إستأنف الرسول ﷺ رسالته على كافّة الصعد: النبويّة والسياسية والعسكريّة والاجتماعيّة.

وكان الرسول ﷺ، قبيل دخوله مكّة، بدأ يرسل كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام. فكتب إلى هرقل ملك الروم:

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٥١٠.

٢ ـ **الحجر الأسود**: وضعه إبراهيم واسماعيل في الركن الشرقيّ من الكعبة عندما رفع قواعدها، أعاد محمّد ﷺ وضعه حين أعادت قريش بناء الكعبة وعرف كيف يفضّ الخلاف بين قبائلها التي كانت تتسابق على شرف وضعه، يبدأ الطواف بالكعبة من الحجر الأسود وينتهي عنده، وتقبيله سنّة وتكفي الإشارة إليه عند الزحام.

٣ ـ **بئر زمزم**: بئر في مكّة في الحرم الشريف قرب الكعبة، احتفرها إسماعيل وأمّه هاجر، ثمّ عدت أيّام وطُمّت فاكتشف موقعها عبد المطّلب جدّ النبيّ ﷺ فأعاد حفرها، كانت معظّمة في الجاهليّة كما هي اليوم في الإسلام، يشرب الحجّاج من مائها وينقلون منه إلى بلادهم تبركًا، يتولّى السقاية منها بنو عبد المطّلب إلى اليوم.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٣١.

٥ ـ بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الاسلام، دار عودة، (بيروت، لا.ت.) ص٧١.

بسم اللّـه الرحمَن الرحيم... من محمّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم... السلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد: أسلم تسلم. أسلم يؤتك الله أجرك مرّتَين. وإن تتولّ فإنّ إثم الأريسيين[1] عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئًا... ولا يتّخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله. فإن تولّوا فتولّوا اشهدوا بأنّا مسلمون.

وكتب إلى نجاشي الحبشة كتابًا تضمّن كلامًا ألطف[2]. وقد عبّر الرسول ﷺ في هذا الكتاب عن معان هامّة في ما يتعلّق بالمسيحيّة وقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من محمّد رسول اللّـه إلى النجاشيّ الأفخم ملك الحبشة، سلام أنت فإنّي أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة. فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه. وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءَني فإنّي رسول الله. وقد بعث إليك ابن عمّي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين. فإذا جاؤوك فأقرّهم ودع التجبّر. فإنّي أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على مَن اتّبع الهدى[3].

---

١ ـ لعلّ المقصود بالأريسيّين الذين عبدو آريس ARÉS إبن زوش وهيرا، إله الحرب لدى اليونانيّين، رديفه مارس عند الرومان؛ أو الآريوسيّين أتباع آريوس ARIUS: كاهن اسكندري زعم أنّ "الكلمة" غير مساوٍ للآب في الجوهر، فحرمه المجمع النيقاويّ ٣٢٥، ومنه البدعة الآريوسيّة التي استمرّت حتّى أواخر القرن الرابع في الشرق والقرن السابع عند القوط واللومبارد.

٢ ـ كان محمد ﷺ قد قام بهجرته الأولى إلى الحبشة النصرانيّة مع أصحابه وأتباعه في العام ٦١٥. وكان النجاشيّ ملكًا.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، ص٤٧٩.

ومن الذين كاتبهم محمّد ﷺ في الموضوع نفسه: الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ[1]، والمقوقس صاحب الإسكندريّة[2]، وذو الكلاع الحميريّ[3]، والمنذر بن ساوى من بني تميم بالبحرين، والأيهم بن النعمان الغسّانيّ، وابنا هوذة بن عليّ الحنفيّ باليمامة، والحارث بن عبد كلال الحميريّ، والديّان، وبنو قنان[4]. ومنهم أيضًا، ملك الفرس: كسرى*، الذي كتب إليه محمّد ﷺ بمثل ما كتب إلى مَن جاءَ ذكرهم:

> بسم اللّه الرحمَن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على مَن اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأنّ محمّدًا عبده ورسوله إلى الناس كافّة لينذر مَن كان حيًّا ويحقّ القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت فإنّ عليك آثام المجوس[5].

لم يستجب الملوك والأمراء لدعوة محمّد ﷺ. فكان لا بدّ من أن تسير جيوش المسلمين بعد ذلك لتقرّ دعوة الإسلام بين الشعوب. فلم يمضِ وقت طويل على دخول مكّة، حتّى كانت وقعة حُنين[6]، حيث جمع مالك بن عوف النصريّ[7] قبائل

---

١ - **الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ**: من ملوك الغساسنة من العرب المتنصّرة في شمالي سورية.

٢ - **المقوقس**: اسم أطلقه العرب على كورش وزير حاكم مصر البيزنطيّ وبطريرك الإسكندرية لمّا فتح عمرو بن العاص مصر ٦٣٩ - ٦٤٢.

٣ - **حمير**: شعب قديم في بلاد اليمن. وريث الحضارة السبئيّة المعينيّة. ذكرته الآداب اللاتينيّة. دخلت إليه المسيحيّة في عهد الأمبراطور قسطنطيوس ٣٣٧ - ٣٦١ على يد ثيوفيلُس الهنديّ الآريوسيّ.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٧٧ - ٧٨.

٥ - مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٧٩.

٦ - **حُنين**: وادٍ بين مكّة والطائف.

٧ - **مالك بن عوف النصريّ** (ت نحو ١٠هـ/ ٦٤٠م): من هوازن، صحابيّ من أهل الطائف، تولّى قيادة المشركين في حنين، أسلم بعد ذلك، يعد بين المؤلفة قلوبهم، قاتل في فتوح الشام وفارس.

هوازن[1]، لحرب المسلمين، بعد أن فتح الرسول ﷺ مكّة. فسار رسول الله ﷺ إليهم بجيش الفتح والمكّيّين وانتصر عليهم وحاز المسلمون غنائم عظيمة. كان ذلك في العام الثامن للهجرة (٦٣٠م)[2]. وفي السنة نفسها، وجّه جعفر بن أبي طالب[3] وزيد بن حارثة[4] وعبد الله بن رواحة[5] على رأس جيش إلى الشام لقتال الروم. وقد استُشهد الثلاثة بأرض مؤتة[6] من أعمال دمشق بخلال وقعة مع الروم، إنهزم فيها المسلمون[7]. وفي السنة نفسها كانت غزوة الطائف[8].

تلك كانت الغزوات التي جرت بعهد الرسول ﷺ، وقد شهدت قتالاً. بيدَ أنّ غزوات عدّة قد قام بها محمّد ﷺ من دون أن يلقى مقاومة، ذُكر منها: الأبواء، وبواط، وذو العشيرة، وقرقرة الكدر، وحمراء الأسد، وبدر الصغرى، وتبوك[9].

---

١ ـ **هوازن بن منصور**: جدّ جاهليّ من قيس عيلان من عدنان، بنوه قبائل كثيرة منها: ثقيف، بكر، عامر، نصر، كعب، كلاب، جعدة، عُقيل، قشير، خفاجة، حاربوا قريشًا في عكاظ، دخلوا الإسلام بعد وقعة حُنين.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٢؛ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٣٠.

٣ ـ **جعفر بن أبي طالب** (ت٨هـ/ ٦٢٩م): صحابيّ هاشميّ من الشجعان، ابن عمّ النبي ﷺ، لم يترك اللواء في غزوة مؤتة حتّى بُترت يداه واستُشهد، كنّاه النبيّ ﷺ بذي جناحين.

٤ ـ **زيد بن حارثة** (ت٨هـ/ ٦٢٩م): صحابيّ، من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام، استوهبه النبيّ من زوجه خديجة وتبنّاه وأعتقه، عقد له لواء غزوة مؤتة، استُشهد في المعركة.

٥ ـ **عبد الله بن رواحة** (ت٨هـ/ ٦٢٩م): صحابيّ أنصاريّ خزرجيّ، من الشعراء الشجعان، لم يترك اللواء في غزوة مؤتة رغم جراحه حتّى سقط شهيدًا.

٦ ـ **مؤتة**: موضع جنوب شرق البحر الميت في الأردن حاليًا.

٧ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٣٠؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٣.

٨ ـ **الطائف**: مدينة في الحجاز (المملكة العربيّة السعوديّة حاليًا) جنوب شرقي مكّة، على قمّة جبل غزوان ١٦٣٠م. سكنها في الجاهليّة بنو ثقيف، هي نقطة مواصلات هامّة بين الرياض ومكّة وغامد وزهران ونجران؛ راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٧ ـ ٦٨.

٩ ـ تفاصيل تلك المواقع في: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٩ ـ ٧٨.

كما أنّ الرسول، ﷺ كان بحياته، قد أمر جيوشه بالانتشار في مواقع استراتيجيّة بمحيط الجزيرة العربيّة، فوجّه حمزه بن عبد المطّلب على سريّة على ساحل البحر، وكذلك عبيدة بن الحارث بن المطّلب، الذي ركّز حامية بأسفل ثنية المرّة عند ماء الحجاز. وسعد بن أبي وقّاص على سريّة الخراز، وهو ماء من الجحفة. كما وجّه سواهم إلى العديد من المواقع، التي زاد عددها على الثلاثين. وأرسل بطلب القبائل العربيّة لمواجهته في المدينة، فقصدته عشرات القبائل وعلى رأس كلّ منها أميرها أو شيخها أو رئيسها، فكانَ الرسول يحدّثهم، طالبًا إليهم اعتناق الإسلام، فمنهم مَن شهروا إسلامهم، ومنهم مَن رفضوا. بيدَ أنّ الأكثرية أسلمت، ومَن لم يقبل بالدعوة، تعرّض للغزوات[1].

أزواجُ الرَّسول

كان محمّد، ﷺ قبل البعث، قد تزوّج خديجة ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزيّ بن قصيّ، كما ذكرنا سابقًا، وولدت له أولاده أجمعين، خلا إبراهيم الذي ولدته ماريّة القبطيّة. ومات إبراهيم وعمره أقلّ من سنتَين.

لم يتزوج محمّد ﷺ على خديجة، حتّى ماتت. وكانت وفاتها في شهر رمضان، قبل الهجرة بثلاث سنوات، ولها خمس وستّون سنة. وقد دخل عليها محمّد ﷺ وهي تجود بنفسها، فقال:

---

١ ـ تفاصيلها في اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٧٩ ـ ٨٠.

بالكره منّي ما أرى. ولعلّ الله أن يجعل في الكره خيرًا كثيرًا. إذا لقيت ضرّاتك في الجنّة يا خديجة فاقرئيهنّ السلام.

قالت: ومن هنّ يا رسول الله؟ قال:

إنّ الله زوّجنيك في الجنّة وزوّجني مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكلثوم أخت موسى.

فقالت: بالرفاه والبنين.

ولمّا توفّيت خديجة، جعلت فاطمة، ابنتها، تتعلّق بأبيها، رسول الله، وهي تبكي وتقول: "أين أميّ؟ أين أميّ؟" فنزل عليه الوحي:

قل لفاطمة إنّ الله تعالى بنى لأمّك بيتًا في الجنّة من قصب لا نصب فيه ولا صخب[1].

بعد خديجة، تزوّج الرسول ﷺ عشرين امرأة، وقيل اثنتين وعشرين، طلّق بعضهنّ، ولم يقرب بعضهنّ، ولم يمت من نسائه عنده، إضافة إلى خديجة، سوى زينب بنت خزيمة بن الحارث من بني عامر بن صعصعة، الملقّبة بأمّ المساكين. ومات ثلاث منهنّ قبل وصولهنّ إليه، هنّ: خولة بنت الهذيل بن هبيرة الثعلبيّة، وشراف بنت خليفة الكلبيّ، وسنا بنت الصلت بن حبيب بن حارثة السلميّ. أمّا ليلى بنت الحطيم الأوسيّ، فقد استقالته، فأقالها، فدخلت، مختارة، حائطًا من حيطان المدينة، فأكلتها الأسود[2]. وطلّق كلاّ من غزيّة بنت دودان من بني عامر بن لؤي، وقد عُرفت بأمّ شريك. وعمرة بنت يزيد بن عبيد الكلابيّ التي طلّقها من دون أن يقربها. وكذلك العالية بنت ظبيان بن عمرو الكلابيّ، وضباعة بنت عامر القيسيّة. أمّا اللواتي ألحقهنّ

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٣٥.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٨٦.

بأهلهنّ دون أن يقربهنّ فهنّ: أسماء بنت النعمان الكنديّ من بني آكل المرار. والجونيّة من كندة، وصفيّة بنت بشامة العنبريّة. وبقيت ريحانة بنت شمعون القريظيّة اليهوديّة الأصل في ملكه دون أن يقربها. وقبض الرسول قبل أن يقرب من زوجاته: قتيلة بنت قيس بن معديّ كرب، فخلف عليها عكرمة بن أبي جهل[1]. أماّ اللواتي أرجأهنّ فهنّ: سودة بنت زمعة بن قيس... بن لؤي، تزوّجها في مكّة. وأمّ حبيبة بنت أبي سيفان... بن عبد مناف، وجويريّة واسمها برّة من خزاعة، وصفيّة بنت حيي من سبط هارون النبيّ، وميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير الهلاليّ. وآوى من نسائه: عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة التي تزوّجها بمكّة، وحفصة بنت عمر بن الخطّاب ﷺ، وزينب بنت جحش من بني أسد، وأمّ سَلِمة بنت أبي أميّة... بن مخزوم.

ولم يخلف الرسول ﷺ بعد مماته سوى فاطمة، التي كانت زوجة لابن عمّه عليّ ابن أبي طالب عليه السلام[2].

حَجَّةُ الوَداع

في السنة العاشرة للهجرة، كان محمّد ﷺ قد بلغ الثالثة والستّين. وقد شعر بأنّ نهايته على هذه البسيطة قد دنت. فخرج من المدينة للحجّ إلى مكّة في أكثر من مائة

---

١ ـ **عكرمة بن أبي جهل** (ت١٣هـ/ ٦٣٤م): صحابيّ قرشيّ مخزوميّ من رواة الحديث، سيوجّهه أبو بكر بجيش لقتال مسيلمة الكذّاب بحروب الردّة، وسيكون ذا بلاء في فتوح الشام، وسيستُشهد في اليرموك.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٨٤ ـ ٨٦ و١١٥.

ألف مسلم. وعند جبل عرفات[١]، وقف يلقي خطبة الوداع الخالدة، التي بيّن فيها دستور الإسلام وقواعده، ونادى بالمساواة بين الناس، لا فرق في ذلك بين العبد الحبشيّ والشريف القرشيّ:

> أيّها الناس... إنّ ربّكم واحد. وإنّ أباكم واحد. كلّكم لآدم. وآدم من تراب. إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم. لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلاّ بالتقوى[٢].

في هذه الحجّة الأخيرة إلى مكّة، جاء في خطبة النبيّ ﷺ التي تُعدّ القمّة في حياته الخطابيّة:

> أيّها الناس، إسمعوا قولي واعقلوه. تعلّموا أنّ كلّ مسلم أخ للمسلم وأنّ المسلمين أخوة فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه[٣].

وقال في خطبته:

> نضَّر الله وجه عبد سمع مقالتي فوعاها وحفظها ثمّ بلّغها مَن لم يسمعها، فربّ حامل فقه غير فقيه، وربّ حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه.
>
> ثلاث لا يُغلّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمّة الحقّ، واللزوم لجماعة المؤمنين، فإنّ دعوتهم محيطة من ورائهم[٤].

---

١ ـ عَرفَات أو عَرَفَة: جبل غرانيتيّ بالحجاز يقع شرق مكّة، في الجهة الشماليّة منه صخرة مرتفعة تسمّى جبل الرحمة، في سفحها الجنوبيّ خطب الرسول ﷺ خطبة الوداع المشهورة، قال النبي ﷺ : "الحجّ عرفة"، فأضحى عرفة من مناسك الحجّ بل لا يتمّ حجّ المسلمين إلاّ بالوقوف به، نافرين إليه حامدين واقفين داعين بين يدَي اللـه قبل عيد الأضحى بيوم، ومِن ذا سُمّي هذا اليوم يوم الوقفة، ومَن فاته هذا الوقوف ولو لحظة بين زوال اليوم التاسع من ذي الحجّة إلى فجر العاشر فاته الحجّ، ووجب عليه قضاؤه في العام التالي وتحلّل من الإحرام، والإثنا عشريّة يوجبون البقاء على الإحرام حتّى العام التالي.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٧٩.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٣١.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٠٩.

وكان واضحًا أنّ خطبة الرسول ﷺ هذه، كانت الوصيّة. فهو كان يخاطب المؤمنين موصيًا، فيقول:

... هل تدرون أيّ بلد هذا؟ وهل تدرون أيّ شهر هذا؟ وهل تدرون أيّ يوم هذا؟

فقال الناس: نعم! هذا البلد الحرام واليوم الحرام. قال:

فإنّ الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة بلدكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وكحرمة يومكم هذا. آلا هلّ بلّغت؟

قالوا: نعم. فقال:

اللهمّ أشهد.

ويقول:

... فأوصيكم بمَن ملكت أيمانكم فاطعموهم ممّا تأكلون، وألبسوهم ممّا تلبسون، وإن أذنوا فكِلوا عقوباتهم إلى شراركم، ألا هل بلّغت؟

فيقولون: "نعم" فيقول:

اللهمّ أشهد.

وختم:

اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينًا[1].

وعاد إلى المدينة. وبعد شهرَين من رجوعه، وكان الثامن من حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢م[2]، أصيب محمّد ﷺ بألم حادّ في رأسه، وقبض، دون أن يترك وصيّة تعيّن خليفته. وهذا ما سيكون له أثر كبير على وحدة الإسلام.

---

١ ـ أنظر كامل مضمون خطبة حجّة الوداع في: اليعقوبي، مرجع سابق، ص١٠٩ ـ ١١٢.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٣١؛ أرّخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص١١٣ الوفاة يوم الإثنين لليلتَين خلتا من شهر ربيع الأوّل، ومن شهور العجم آذار، وكان قران العقرب.

الفَصلُ الثَّانِي

أبُو بَكْر وأيَّامُه

الإنتقال؛

مَسألَة الخلافَة؛ مُدَّعُو النبُوَّة؛

فتُوحَاتُ أبي بَكر .

الإنتِقال

كان اليوم الثامن من حزيران (يونيو) سنة ٦٣٢م[١]، أخطر يوم شهدته، ليس المدينة وحسب، بل الجزيرة العربيّة، في تاريخها.

في ذلك اليوم الشديد الرطوبة والحرارة، سُجِّي محمّد ﷺ على فراش الموت في منزل عائشة في المدينة، والمسلمون في ذهول رهيب. كيف يموت رسول الله ﷺ؟ ثمّ... ماذا بعد؟!

فبالرغم من أنّ محمّدًا ﷺ كان أعلن وهو يتلو:

إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ...

فإنّ كثيرين من أتباعه رفضوا أن يصدّقوا بأنّ محمّدًا ﷺ يمكن أن يموت. وصعق آخرون واستولت الحيرة على عقولهم، فكانوا بين مصدّق... ورافض التصديق. أمّا المدركون أنّ محمّدًا ﷺ بشر، فراحوا يبكون الرسول ﷺ.

وكان الصخب وسط المصاب الجلل، وقد طغى عليه صوت راعد يقول:

إنّ رجالاً من المنافقين يزعمون أنّ رسول الله ﷺ توفّي وأنّ رسول الله مات. والله ما مات ولكنّه ذهب إلى ربّه.. فليقطعنّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله ﷺ مات.

---

١ ـ أو لعلّه يوم الإثنين لليلتَين خلتا من شهر ربيع الأول، كما أرّخ اليعقوبي، مرجع سابق، ص١١٣.

كان صاحب الصوت رجلاً كهلاً، مديد القامة، نحيفها، خفيف العارضَين، هو عُمر ابن الخطّاب.

وبعد قليل، سُمع صوت آخر هادئ يقول:

أيّها الناس، إنّ مَن كان يعبد محمّدًا ﷺ، فإنّ محمّدًا ﷺ قد مات، ومَن كـان يعبـد اللـه فإنّ الله حيّ لا يموت.

وكان صاحب الصوت رجلاً شـيخًا نحيـل الجسـم، هـو أبـو بكـر، الـذي قـال هـذا، والدمع يتساقط من عينَيه. فإنَّه كان قد ذهب إلى بيت النبيّ ﷺ فكشف الغطاء عنه وقبّله ثمّ ردّ الثوب على وجهه وخرج.

هدأت العاصفة، ودُفن النبيّ ﷺ حيث كان مسجّى، ونشأ بعد ذلك أمر أشدّ خطورة، وأكثر واقعيَّة: من سيخلفه؟[1]

مَسألَـة
الخلافَة

هكذا، بدأت مسالة الخلافة.

ومنذ ذلك اليوم، لن يتمكّن أحد مـن توحيـد المسـلمين، كمـا وحَّـد بينهـم محمّـد ﷺ: الرسول والقائد والحاكم والقاضي والآمر والناهي.

إلاَّ أنّه لم يكن بدّ من وجود خليفة لسيّد المسلمين. والمشيخة العربيّة حينئذ لـم تكـن وراثيّة، بل شبه انتخابيّة، على أساس الأقدميّة في السنّ.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٣٥ ـ ٣٦.

ولكن، أيّ أقدم في السنّ؟!

فما أن طُرحت قضيّة الخلافة للنقاش، حتّى ظهرت الأحزاب:

الأولّ، كان حزب المهاجرين، وغالبيّته من قريش، ممّن تبعوا الرسول ﷺ منذ البداية، وهاجروا معه إلى المدينة، واعتبروا أنّهم الأحقّ بالخلافة.

والثاني، كان حزب الأنصار، ولسان حال هؤلاء يقول بأنّه لو لم ينصروا النبيّ ﷺ ويأووه وصحبه، ويقدّموا له العون في القتال، لما قام الإسلام.

والثالث، حزب أهل البيت، وهو حزب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولسان حال أصحاب هذا الحزب، أنّ عليًا عليه السلام هو ابن عمّ الرسول ﷺ، وختنه، وأبو حفيدَيه الحسن والحسين، ومن المؤمنين الأُول، فهو أولى شرعًا بالخلافة من غيره، خاصّة وأنّ محمّدًا ﷺ قد أوصى بذلك قبل وفاته[1] كما يقولون.

يذكر المؤرّخون أنّ جدلاً خطيرًا قد حصل يومها، لا بل صراعًا بلغ حدّ الاقتتال. بيدَ أنّه في النهاية، فاز حزب المهاجرين، وكان لديه مرشّحان للخلافة: أبو بكر، وعُمر بن الخطّاب.

كان أبو بكر والد عائشة زوجة الرسول ﷺ، وعُمر والد زوجته الأخرى: حفصة. كما أنّ الرجلَين كانا من أوفى أصدقاء محمّد ﷺ، وهما صحابيّان مقرّبان إليه، ومستشاران كان يعتمد عليهما، إضافة إلى ما كان لهما من مقام رفيع في أعين المؤمنين. وإذا كان الرجلان يختلفان في الشخصيّة وفي المظهر والتصرُّف في العمل،

---

١ ـ يقول أنصار عليّ عليه السلام، بأنّ محمدًا ﷺ عندما خرج ليلاً منصرفًا من مكّة إلى المدينة، بعد حجّة الوداع، سار إلى موضع بالقرب من الجحفة يُقال له غدير خم. وهناك قام خطيبًا، وأخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: فمن كنت مولاه، فعليّ مولاه، اللهم والِ مَن والاه وعاد مَن عاداه.

فإنّهما كانا يتّفقان في شدّة إخلاصهما وولائهما للإسلام، ولصاحب الرسالة الذي جاء بالإسلام. وإذا كان عمر أكثر اقتدارًا من أبي يكر، وكان العقل المفكِّر في الصحابة التي كانت تحيط بالرسول ﷺ، فإنّ أبا بكر، كان يكبره بإحدى عشرة سنة، كما أنّه كان أسبق من عمر إلى الإسلام، وكان النبيّ ﷺ قد طلب لأبي بكر في أثناء مرضه بالصلاة الجامعة.

ووقع الاختيار على أبي بكر، وكان عمَر أوّل من بايعه[1].

إنّ ما سمّاه المدوِّنون القدماء: "المجاذبة في الإمامة"[2]، التي حصلت في يوم السقيفة ذاك، كان إيذانًا بما سيتعرَّض له الإسلام في ما بعد، من انشقاق خطير.

أمّا خبر السقيفة التي تكنّى بها يوم المبايعة للخلافة الأولى، فهو أنّ الأنصار كانوا قد اجتمعوا، يوم وفاة الرسول ﷺ، في سقيفة بني ساعدة، وبادروا إلى "إجلاس سعد بن عبادة الخرزي، وعصَّبوه بعصابة، وثنوا له وسادة[3]. أي أنّهم عيّنوه خليفة. غير أنّ أبا بكر، وعمر والمهاجرين، عندما علموا بذلك، سارعوا إلى سقيفة بني ساعدة، ونَحّوا الناس عن سعد، وقالوا: "منّا رسول الله يا معاشر الأنصار. فنحن أحقّ بمقامه". فقالت الأنصار: "منّا أمير ومنكم أمير!". فقال أبو بكر: "منّا الأمراء ومنكم الوزراء". وبعد مساجلة قصيرة، إقتنع القوم بمبايعة أبي بكر.

وجاء مَن يسارع إلى بني هاشم، ليبلغهم أنّ الناس قد بايعوا أبا بكر، فكانت ردّة فعلهم غضبًا وعتبًا وأسفًا، فقال بعضهم: "ما كان المسلمون يحدثون حدثًا نغيب عنه، ونحن أولى بمحمّد ﷺ". وقال العبّاس: "فعلوها وربِّ الكعبة".

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٣٧.

٢ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٢.

٣ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٣.

بدأت معارضة أنصار عليّ عليه السلام بمواجهة الفضل بن العبّاس للخليفة المبايَع جديدًا ومَن بايعوه، وقوله لهم: "يا معشر قريش، إنّه ما حقّقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم، وصاحبنا أولى بها منكم"[1].

وكان ما قاله عليّ لأبي بكر، مشوبًا بلهجة العتاب: "أفتّ علينا أمرنا ولم تستشر ولم ترعَ لنا حقّنا؟!". فقال أبو بكر: "بلى... ولكنّي خشيت الفتنة".

وكانت النتيجة أن تخلّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين، والأنصار، ومالوا، مع بني هاشم، إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام... واجتمعوا إليه في منزل فاطمة، بنت الرسول ﷺ، وزوجة عليّ عليه السلام؛ فهاجم عمر بن الخطّاب منزل فاطمة، فخرج إليه عليّ، وبارزه خارج البيت، وكان أن كسر عليّ عليه السلام سيف عمر، ودخل وجماعته الدار. فخرجت فاطمة صارخة: "والله لتخرجنّ او لأكشفنّ شعري ولأعجّنّ[2] إلى الله"!

فخرج عمر وأتباعه، كما خرج سائر مَن كان في دار فاطمة. وبعد أيّام جعل الهاشميّون وأنصارهم يبايعون أبا بكر، تباعًا، "ولم يبايع عليّ عليه السلام، إلاّ بعد مرور مدّة، بعضهم ذكر أنّها أربعون يومًا، وبعضهم قال أنّها ستّة أشهر"[3].

إنتهت المبايعة الأولى، بعد الرسول ﷺ، بسلام. إلاّ أنّ بذور الشقاق كانت قد ذُرّت، وبقيت مسألة الخلافة موضع أخذ وردّ في المدينة.

سرعان ما ذهب أنصار عليّ عليه السلام في رأيهم إلى أبعد ممّا كانوا قد ذهبوا إليه قبلاً، من أنّه الأَولى بالخلافة لأنّه ابن عم النبيّ لحًّا، والثاني أو الثالث بين مَن آمنوا

---

١ ـ لتفاصيل هذه المساجلة، راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٣.

٢ ـ عجّ: عجّ، عجًّا وعجيجًا: صاح ورفع صوته.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٢٦.

بالرسالة، وزوج لابنة الرسول ﷺ الوحيدة التي قُدّر لها أن تبقى بعده على قيد الحياة، ووالد للحسن والحسين، وهم كلّ من ترك النبيّ ﷺ من ذريّة. ذهبوا إلى المجاهرة بالاعتقاد بأنّ تولّي هذا المنصب، وهو أرفع منصب في الإسلام، لا يمكن أن يكون قد تُرك رهنًا بميول الناخبين ونزواتهم. وبأنّه لا بدّ من أن يكون الله ومحمّد ﷺ قد أعدّا له ما يلزم، وبأنّ عليًا عليه السلام هو الشخص الذي أعدّاه له. وهذا من شأنه أن يجعل عليًّا عليه السلام الخليفة الشرعيّ الوحيد للنبيّ ﷺ، ويُنزل خلفاءَه الآخرين بمنزلة المغتصبين[1].

مُدَّعُو النُبُوَّة

وإذا كان أنصار عليّ عليه السلام قد اكتفوا بالتعبير عن موقفهم من الخلافة دون أن يعرِّضوا الإسلام، كدين، لأيّة خضّة، فإنّ أناسًا آخرين قد اتّخذوا هذا المنحى الخطير، وكان على الإسلام القويم أن يحاربهم بقسوة.

أولئك هم الذين ادّعوا النبوّة.

كذلك بعد انتقال النبيّ ﷺ من هذه الفانية، إرتدّ جماعة من العرب عن الإسلام، وامتنع آخرون عن دفع الجزية.

وكانت كلّ هذه الأمور تدعو الخلافة، لأن تنفّذ المكافحة السريعة لا بل توجب عليها ذلك.

---

١ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، نشر دار الثقافة، بالاشتراك مع مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت،١٩٥٩) ٢: ٢٩.

كان من الذين ادّعوا النبوّة: طُليحة بن خويلد الأسديّ في نواحيه. ومُسيلمة ابن حبيب الحنفيّ باليمامة. والأسوَد العنسيّ الكذّاب المعروف بـ"عيهلة" باليمن وصنعاء. وسجاح بنت الحارث بن سويد ـ وقيل بنت عقفان ـ وتُكنّى بأمّ صادر، من بني تغلب[1].

فقد كان طليحة بن خويلد كاهنًا من بني أسد، وقد ادّعى بأنّ الوحي ينزل عليه من ملك أسماه "ذا النون"، ثمّ عدل عن "ذي النون" وقال لا بل هو جبريل. ولم يُعرف عن قرآنه شيء، إلاّ أنّه كان يعترض على السجود في صلاة المسلمين ويقول: "صلّوا قيامًا فإنّ الله لا يقنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم".

أمّا مسيلمة فقد زعم أنّ وحيًا يهبط عليه في الظلام فقط، من السماء، يُسمّى "رحمان" ويقرئه قرآنًا. وكان مسيلمة هذا قد أرسل إلى محمّد ﷺ، قبل وفاته، كتابًا يدّعي فيه مشاركته في الرسالة، ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب. فكتب إليه الرسول ﷺ:

> من محمّد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب. سلام على مَن اتّبع الهدى، أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين.

غير أنّ مسيلمة تمادى في الحديث عن الوحي الذي يهبط عليه وقال في قرآنه: "يا ضفدع يا بنت ضفدعين. نِقّي ما تنقّين. نصفك في الماء ونصفك في الطين. لا الماء تكدّرين ولا الشارب تمنعين".

وقال مسيلمة آيات أخرى حاول عبثًا أن يقلّد فيها، آيات القرآن الكريم التي نزلت على محمّد ﷺ، منها: "والباذرات زرعًا. والحاصدات حصدًا. والذاريات قمحًا. والطاحنات طحنًا. والعاجنات عجنًا. والخابزات خبزًا. والثاردات ثردا. واللاقمات

---

١ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٤ ـ ٤٥؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣١.

لقمّا. وأهالة وسمنًا. لقد فُضّلتم على أهل الوبر. وما سبقكم أهل المدر. ضيفكم فامنعوه. والمعترّ فآووه. والباغي فناوئوه".

أمّا الأسود العنسيّ الذي ادّعى النبوّة في اليمن وتبعه قومه، فقد طغى وبغى ودانت له بلاد نجران. هاجم صنعاء وقتل أميرها وتزوّج امرأته. وألقى الرعب في قلوب ولاة المسلمين على اليمن، حتّى كتبوا بذلك إلى الرسول ﷺ. فبعث محمّد ﷺ إليهم فأمرهم بالقيام على دينهم ومناهضة الأسوَد الذي كان يقول أنّ وحيه ينزل به عليه ملك سمّاه "ذا خمار". وقد إئتمر الولاة به حتّى قتلوه غيلة في الليلة التي مات الرسول ﷺ في صبيحتها.

وأمّا المتنبيّة: سجاح، فزعمت أنّ لها قرآنًا يهبط عليها به الوحي. غير أنّ هذا الوحي قد صمت حين لقيت مسيلمة وتزوّجته، بالرغم من أنّها كانت قبلاً ضدّ مسيلمة. والذي حصل، أنّ مسيلمة، المتنبّي الكذّاب، أعطاها صدقًا بأن أعفى أتباعها من صلاة العصر. وقد ظلّ بنو تميم وقتًا غير قصير لا يصلّون العصر حتّى لا يضيّعوا صداق ابنتهم زوجة مسيلمة[1].

واضح أنّ هؤلاء المتنبّئين قد لاقوا، بعد انتقال الرسول ﷺ من هذه الفانية، أنصارًا عديدين، ليس لقناعة بنبوءاتهم، إنّما هم انحازوا إلى هؤلاء، ليستنصروا بهم على قريش، بهدف التخلّص من زعامتها وسيادتها. وإذا كان بعض هؤلاء المنحازين من القبائل التي تظاهرت قبلاً باعتناق الإسلام، فقد أضحوا من المرتدّين.

بدأ أبو بكر المكافحة بإرسال خالد بن الوليد لضرب طليحة المتنبّىء، "فقصد خالد طليحة وفرّق شمله بعد أن قتل عددًا من أتباعه، وأسر آخرين. وفرّ طليحة إلى الشام،

---

١ ـ جميع ما أوردناه عن المتنبّئين الكذّابين جاء في كتاب: مظهر سليمان، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

حيث جاور بني حنيفة. ومن هناك، بعث بشعر في رسالة إلى أبي بكر يعتذر عمّا بدا منه، ويعلن عن رغبته في أن "يراجع"، أي، عن رغبته في العودة إلى الإسلام. وإذ رقّ أبو بكر له، قبل برجوعه، غير أنّ طليحة قد وصل إلى المدينة بعد موت أبي بكر بوقت قصير، وكانت الخلافة قد أضحت بيد عمر، الذي بعث بطليحة مع سعد بن أبي وقّاص[1] إلى العراق، وأمر سعدًا بألاّ يستعمل طليحة في شيء. ذلك أنّ عمر، كان حذرًا من ألاعيب هذا الذي تنبّأ.

بعد طليحة، أرسل أبو بكر خالد بن الوليد* أيضًا لضرب المتنبّىء الآخر: مسيلمة. فراح خالد إلى مسيلمة وقاتله بمَن معه من ربيعة[2] وغيرها قتالاً شديدًا، وقُتل يومها من المسلمين خلق عظيم. وفي النهاية، قُتل مسيلمة بطعنة من أبي دجانة الأنصاريّ. وتمكّن مسيلمة من قتل قاتله بضربة من رمحه قبل أن يسلم الروح. فكانت نهاية مسيلمة في هذه المعركة التي عُرفت بـ "حديقة الموت"، وهو الذي كان قد أزعج المسلمين بحياته إلى حدّ بعيد، وتغلّب عليهم سابقًا عندما حاولوا ضربه بقيادة عكرمة*. أمّا تاريخ تلك النهاية فكان في العام ٦٣٢، وقيل أنّ عمره قد بلغ يومذاك مائة وخمسين سنة.

---

١ ـ **سعد بن أبي وقّاص** (ت٥٥هـ/ ٦٧٥م): قرشيّ زهريّ، صحابيّ، خامس السابقين إلى الإسلام، أحد العشرة المبشّرة، قاتل إلى جانب النبيّ ﷺ في جميع الغزوات، كان راميًا ماهرًا، قاد جيوش فتح فارس وانتصر على رستم في القادسيّة، اتّخذ الكوفة مقرًّا له وشيّد فيها أوّل مسجد، أدخله عمر في أهل الشورى للخلافة، مستجاب الدعوة، توفّي بالمدينة.

٢ ـ **ربيعة**: نسبة إلى ربيعة بن نزار: جدّ جاهليّ من مَعَد من عدنان، ينتمي إليه أكثر من عشرين قبيلة، كانت مواطنهم تهامة مع إخوتهم مضر، وبسبب فتن بين قبائلها تفرّقت وارتحل بعضهم إلى البحرين، ومنها عبد القيس، ونزلت أسد وعنزة وبكر وتغلب وضبيعة فأقامت في ظواهر نجد والحجاز حتّى وقعت حرب البسوس.

فتُوحَاتُ

أبي بكر

لمّا تخلّصت الخلافة من المتنبّين الكذّابين، رأى أبو بكر، قبل أن يبدأ بقتال مَن أرتدّ، أن يأمر خالدًا بالسير إلى أرض العراق. وبينما كان خالد يفتتح بانقيا[1] وكسكر[2]، ويهزم النعمان* في الحيرة[3]، وينزل في الخورنق[4]، ويسبي كلّ ما افتتح من مدن وقبائل، وجّه أبو بكر إلى المرتدّين قادة آخرين، فوجَّه العلاء بن الخضرميّ[5] إلى أوّل مَن ارتدّ ووضع التاج على رأسه من العرب: النعمان بن المنذر التميميّ في البحرين. وتمكّن العلاء من النعمان وقتله بسرعة. كذلك وجّه الخليفة حذيفة بن محصن[6] إلى مرتدّ آخر، في عُمان، هو ذو التاج لقيط بن مالك. وتمّ إهلاك ذي التاج بصمّار من

---

١ ـ **بانِقيا**: ناحية من نواحي الكوفة، إسمها نبطيّ يعني بيت الغنم، جاء ذكرها في أخبار ابراهيم الخليل، ذكرها الأعشى في شعره، فتحها خالد صلحًا مع بصبهري بن صلوبا بعد معركة قاومه فيها فرخبنداذ.

٢ ـ **كسكر**: أقدم مدينة مسيحيّة بالعراق، لعبت دورًا هامًّا في العهد الساساني، سوف يشيّد الحجّاج مدينة واسك بين الكوفة والبصرة على شاطئ دجلة المقابل لها، دعتها المصادر السريانيّة كشكر، أنجبت رهبانًا ورؤساء أديرة عظامًا أمثال أبراهام الكبير المتوفّي ٥٨٨ ويشوع دنح وغيرهما، قضى عليها أردشير الأوّل.

٣ ـ **الحيرة**: قاعدة الملوك اللخميّين بين النجف والكوفة بالعراق، كان أهلها من المسيحيّين النساطرة ومنهم الشاعر عدي بن زيد، أقامت هند أم الملك عمرو بعد سنة ٥٥٠ ديرًا في المدينة بعد أن تنصّرت العائلة المالكة، فتحها خالد بن الوليد ٦٣٣، أخذت بالانحطاط تدريجًا.

٤ ـ **الخورنق**: موضع في العراق قرب النجف، سكنه بنو أياد، عمّر فيه النعمان اللخمي قصرًا سوف يوسّعه العبّاسيّون وسيخرب في القرن الرابع عشر، أشاد بذكره شعراء الجاهليّة.

٥ ـ **العلاء بن الخضرميّ** (ت٢١هـ/ ٦٤٢م): صحابيّ من رجال الفتوح، ولاّه النبيّ ﷺ البحرين، وبعد وفاة النبيّ ﷺ أقرّه أبو بكر ثمّ عمر، غزا شواطئ فارس.

٦ ـ **حذيفة بن محصن أو بن اليمان** (ت٣٦هـ/ ٦٥٦م): صحابيّ من الولاة الفاتحين، ولاّه عمر على المدائن فتغلّب على الفرس في نهاوند ٦٤٢ وغزا همذان والريّ، توفّي بالمدائن.

أرض عُمان، وسبى المسلمون ذراري بني ناجية وعبد القيس، الذين كانوا قد ارتدّوا مع ذي التاج.

بعد تخلّصه من المتنبّين الكاذبين ومن المرتدّين، قرّر أبو بكر الانقضاض على مَن امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب إلى خالد بن الوليد كي يتوجّه لإخضاع مالك بن نويرة اليربوعيّ[1]. وسرعان ما نفّذ خالد المهمّة، إذ قصد مالكًا وضرب عنقه وتزوَّج امرأته. كما كان قد تزوَّج ابنة مسيلمة الكاذب، يوم تغلّب عليه.

هنا، تبرز عقيدة السنّة المستقيمة تبعًا لتعاليم الرسول ﷺ، إذ لمَّا بلغ الخليفة أنّ خالدًا قد قتل مالكًا، وهو مسلم، وتزوج امرأته، أرسل أبو بكر إلى خالد يؤنّبه، فاعتذر خالد بقوله: يا خليفة رسول الله ﷺ، إنّي تأوّلت، وأصبت، وأخطأت.

لم يمنع هذا أبا بكر عن متابعة مقاتلة رافضي دفع الزكاة، فكتب إلى زياد بن لبيد البياضيّ يأمره بقتال مَن ارتدّ ومَن امتنع عن الزكاة في اليمن، فقاتلهم. وكان لِكندة[2] ملوك عدّة متمرّدون، فأغار زياد عليهم ليلاً، وقهرهم. بيدَ أنّ تمرّدًا جديدًا قد ظهر من قبَل الأشعث بن قيس[3]، الذي انتزع سبايا المعركة من جند زياد؛ فلمّا انتهى الأمر إلى أبي بكر، عدّ الأشعث من المرتدّين، فوجّه عكرمة بن أبي جهل في جيش لمحاربته، وتمكّن القائدان: عكرمة وزياد، من الأشعث، وقتلا من جماعته عددًا كبيرًا

---

١ ـ **مالك بن نويرة اليربوعيّ** (ت١٢هـ/ ٦٣٤م): شاعر من فرسان الجاهليّة، أدرك الإسلام وأسلم ثمّ امتنع عن دفع الزكاة في أيّام أبي بكر، بعدما قتله خالد بن الوليد أقام أخوه متمّم يرثيه السنين الطوال.

٢ ـ **كندة**: قبيلة شهيرة من عرب اليمن، بطن من جذام المنتسبة إلى كهلان بن سبأ، حكموا حضرموت، نزحوا إلى الحجاز ونجد فسادوا بعض القبائل فيهما، عُرفوا بنصرانيّتهم في الجاهليّة وظلّ بعضهم عليها حتّى أوائل العصر العبّاسيّ، رحل قسم منهم إلى مصر مع عمرو بن العاص، منهم كان الحارث ملك الحيرة وحجر والد امرئ القيس والمقنّع والمتنبّي، إليهم ينتسب الكندي الفيلسوف.

٣ ـ **الأشعث بن قيس الكِندي** (ت٦٦١): من أمراء كندة، وفد على النبيّ ﷺ مع جماعة من قومه ليعلنوا إسلامهم ٦٣١، شهد اليرموك والقادسيّة ونهاوند وصفّين، توفّي في الكوفة.

وغنما مغانم كثيرة، وأحضرا الأشعث موثوقًا إلى أبي بكر، ذلك الخليفة الطيّب الذي حنّ قلبه على الأسير، فأطلق سبيله وزوّجه أخته، أمّ فروة[1].

وفي عمر ولاية أبي بكر القصير، الذي لم يدم سوى أكثر من سنتَين بقليل، تمكّن جيش الإسلام، بعد إخضاع الجزيرة العربيّة، من بدء مواجهة الروم في بلاد الشام ونواحيها.

إلاّ أنّ أبا بكر، بالرغم من سلامة طويّته التي جعلت لقب "الصدِّيق" يُضاف إلى اسمه[2]، حرص على ألاّ يُشرك في الجهاد ضدّ الروم وفي فتح البلدان بعد حروب الردَّة أيّاً من أهل الردَّة، رغم عودتهم إلى السنَّة وخضوعهم للخليفة. وقد بقي أبو بكر حذرًا ودقيقًا في تقبّل المرتدّين واندماجهم في المجتمع الإسلاميّ. ويحدّثنا الشعبيّ[3] عن أنّ أبا بكر "كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردَّة حتّى مات"[4]. حتى إنّ الخليفة الأوّل قد جعل ذلك جزءًا من سياسته الداخليّة ونظام حكمه. فكتب إلى عمّاله: "لا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ"[5]. وكتب إلى خالد بن الوليد وعيّاض بن غنم[6]: "ولا

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٠ ـ ١٣٢.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٨.

٣ ـ **عامر بن شرحبيل الشعبي** (ت١٠٣هـ/ ٧٢١ م): نسبته إلى شعب، بطن من همدان. تابعيّ، محدّث، رواية، حافظ ثقة. وُلد ونشأ في الكوفة.

٤ ـ الطبري أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، طبعة ليدن (١٨٧٩ ـ ١٨٨١) ١: ٢٤٥٧.

٥ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠١٤.

٦ ـ **عيّاض بن غنم** (ت٢٠هـ/ ٦٤١م): قائد عربيّ من شجعان الصحابة وغزاتهم، أسلم قبل الحديبية وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، فتح بلاد الجزيرة أيّام عمر فعيّنه عاملاً على حمص وقنسرين، غزا بلاد الروم.

يغزونّ معكم أحد ارتدّ حتّى أرى رأي"[1]. ولم يستطع "المثنّى"[2] أن يثني أبا بكر عن رأيه، عندما استأذنه في الاستعانة بمَن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردّة ممّن يستطعمه الغزو، فظلّ الصدّيق على خطّته التي انتهجها "فلا يشهد الأيّام مرتدّ"[3]. ولن يبدأ هذا النهج الحذر من المرتدّين بالزوال قبل عهد الخليفة الثاني: عُمَر[4].

وقبل أن تدرك المنيّة خليفة المسلمين الأوّل، وهو في الثالثة والستّين من عمره، في العشرين من جمادي الآخرة، قبل نهاية العام الثالث عشر للهجرة بليلتَين[5](آب ـ أغسطس ٦٣٤)، وقيل إنّ اليهود كانوا قد سمّموا له في الطعام قبل سنة من وفاته ممّا جعله يعلّ طويلاً[6]، كان أبو بكر قد أنفذ جيوش المسلمين إلى سورية وجوارها لمحاربة الروم وإخضاعهم، بقيادة كلٍّ من يزيد بن أبي سفيان[7]، وأبي عبيدة بن الجرّاح[8]،

---

١ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠٢١.

٢ ـ **المثنّى بن حارثة الشيباني** (ت١٣هـ/ ٦٣٥م): من مشاهير القادة في عهد الخليفة أبي بكر، تعاون مع خالد بن الوليد في فتوح عدّة واستُشهد في إحدى المعارك.

٣ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢١٢٠ ـ ٢١٢١.

٤ ـ راجع: فيصل د. شكري، المجتمعات الإسلامية في القرن الاول، منشورات دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة (بيروت،١٩٨١) ص٤٠ ـ ٤١.

٥ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٨.

٦ ـ المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٤٣.

٧ ـ **يزيد بن أبي سفيان** (ت١٩هـ/ ٦٤٠م): لقبه أبو خالد، أخو معاوية لأبيه، أسلم يوم الفتح، سُمّي يزيد الخير لصلاحه، وجّهه أبو عبيدة للقيادة بفتح فلسطين، ولاّه عمر فلسطين، توفّي في طاعون عمواس بعد أن فتح قيصريّة.

٨ ـ **أبو عبيدة بن الجرّاح** (ت١٨ هـ/ ٦٣٩م): هو عامر بن عبدالله، صحابيّ قرشيّ فهريّ، أحد كبار قادة الفتوح، لقّبه رسول الله ﷺ بأمين الأمّة، تولّى القيادة العامّة لجيوش فتوح الشام بعهدي أبي بكر وعمر بعد خالد، كان داهية عادلاً مهيبًا، توفّي بطاعون عمواس ودُفن بغور بيسان.

وشرحبيل بن حسنة[١]، وعمرو بن العاص[٢]، وخالد بن الوليد*. كما أرسل جيوشًا أخرى بقيادة عثمان بن أبي العاص[٣]، والعلاء ابن الحضرميّ[٤]، إلى تقرج ومكران والزراة ونواحيها من أرض البحرين.

وكان أبو بكر قد أقدم أيضًا على إنجاز كبير على صعيد آخر، رغم تردّده في البداية، وخوفه من أن "يفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ". غير أنّه في النهاية، وبعد إلحاح عمر، أقدم أبو بكر على جمع القرآن الكريم وكتابته في صحف، بعد أن كانت الآيات متفرّقة في الجريد وسواها. فأمر خمسة وعشرين رجلاً من قريش، وخمسين من الأنصار، بكتابة القرآن، وعرْضه على سعيد بن العاص[٥] "فإنّه رجل فصيح".

وروى بعضهم أنّ عليًّا بن أبي طالب عليه السلام كان قد جمع القرآن الكريم لمّا قُبض الرسول ﷺ، وأتى به إليه يحمله على جَمل، وقال: "هذا القرآن قد جمعته"[٦].

---

١ - **شرحبيل بن حسنة** (ت١٨هـ/ ٦٣٩م): صحابيّ، أحد قوّاد الجيوش الإسلاميّة في عهد الفتوحات الأولى، عهد إليه الخليفة الأوّل أبو بكر مع يزيد بن أبي سفيان بالهجوم على مقاطعة البلقاء بفلسطين فافتتحها ١٣هـ/ ٦٣٤م.

٢ - **عمرو بن العاص** (ت٤٣هـ/ ٦٦٤م): قائد عربيّ شهير انتصر على البيزنطيّين في أجنادين فلسطين، فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون، احتلّ الإسكندريّة ٦٤٢، حكم مصر، بنى مدينة الفسطاس، اشترك في التحكيم الذي عقب صفّين فرجّح بدهائه كفّة معاوية، توفّي بالقاهرة.

٣ - **عثمان بن أبي العاص** (ت٥١هـ/ ٦٧١م): صحابيّ من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، استعمله النبيّ ﷺ على الطائف، ولاّه عمر عمان والبحرين، له فتوح وغزوات بالهند وفارس، توفّي بالبصرة.

٤ - **العلاء ابن الحضرميّ** (ت١٢هـ/ ٦٤٢م): صحابيّ من رجال الفتوح، ولاّه النبيّ ﷺ البحرين، بعد وفاة النبيّ ﷺ أقرّه أبو بكر ثمّ عمر، غزا شواطئ فارس.

٥ - **سعيد بن العاص** (ت٥٩هـ/ ٦٧٩م): صحابيّ من الأمراء الولاة الفاتحين، ولاّه عثمان الكوفة ثمّ المدينة، ساعد الخليفة عثمان على جمع القرآن بعد أبي بكر، قاد جيوش المسلمين في طبرستان وجرجان، اعتزل الجمل وصفّين، تولّى المدينة في عهد معاوية حتّى وفاته بالعقيق بقرب المدينة.

٦ - **اليعقوبي**، مرجع سابق، ٢: ١٣٥.

... وإذ كان أبو بكر الصدّيق ابن الثالثة والستّين، بنحافة بدنه، وبياض محيّاه المعروق، وبعينَيه الغائرتَين، ولحيته المخضّبة، كما دومًا، بالحناء... يقترب من أجله، عهد إلى عمر بن الخطّاب كاتبًا:

> بسم اللّه الرحمَن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى المؤمنين والمسلمين: سلام عليكم، فإنّي أحمد إليكم الله، أمّا بعد، فإنّي قد استعملت عليكم عمر بن الخطّاب، فاسمعوا، واطيعوا، وإنّي ما ألوتكم نصحًا، والسلام[1].

وكان آخر ما ذكره الخليفة الأوّل قبيل وفاته، ندمه على ثلاثة من أعماله، هي: تفتيشه لبيت فاطمة ـ وذكر في ذلك كلامًا كثيرًا ـ وحرقه لأحدهم قصاصًا، وخصوصًا، ندمه لأنّه قَبِل بالخلافة. وقال: "وددت لو أنّي كنت قذفت الأمر في عنق أحد الرجلَين[2]، فكان أميرًا... وكنت وزيرًا". كما ودّ لو أنّه كان سأل الرسول ﷺ في مَن يولّى الخلافة من بعد محمّد ﷺ، فلا ينازِع الأمرَ أهلُه[3].

وفي البيت الذي دُفن فيه الرسول ﷺ، قُبر أبو بكر، بعد أن صلّى عليه خليفته: عُمر.

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٧.

٢ ـ في المسعودي أنّ المقصودَين بـ "أحد الرجلَين" هما : سعد بن عبادة، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام. وقد جاء هذا في الحاشية.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٤٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٧.

الفَصلُ الثّالِث

عُمَر وأيّامُه

عُمَر: الخَليفَةُ الثّاني؛ أعمَال عُمَر؛ أبو عُبيدة أم خَالد؟
تقشُّف عُمَر؛ فتوحات ما بعد دمشق؛ معركة اليرموك؛
مقرّرات الجابية؛ فتح مِصر؛ طاعُون عمواس وعام الرمّادة؛
فتح بلاد فارس؛ إغتيال عمر.

عُمَر: الخَليفة الثَّاني

لم يكن مفاجئًا، ولا غريبًا، أن يعيِّن أبو بكر الصدّيق، عُمر بن الخطّاب، خلفًا له في الخلافة. فقد وقف عمر إلى جانب صديقه ورفيقه أبي بكر طوال مدة خلافته، وعمل معه مخلصًا وفيًّا مدّة سنتَين كمستشار له دون أن يُبدي تذمّرًا أو حسدًا. ويقول لنا الرواة أنّه كان يعمل قاضيًا عند أبي بكر في أيّام خلافته.

لقد كان أثر عمر، في حياة الإسلام الأولى، أبعد خطرًا من كونه قاضيًا. فهو الذي حاول أن يجمع القرآن الكريم، وأن يقضي على حروب الردّة، إذ يُعزى إليه الفضل في أنّه كان أوّل مَن أوعز أنّ كلام الله يجب أن يُجمع وأن يدوَّن في كتاب، لأنّ حفّاظ القرآن كانوا يُستشهدون بكثرة في الحروب التي كانت قائمة أنذاك... وكان لعمر أثر بارز في مشوراته أيّام النبيّ ﷺ... وكانت يد عمر سريعة في امتشاقها السيف. فهو الذي، بعد موقعة بدر، اقترح قطع رؤوس الأسرى. وبعد ذلك عندما دخل النبيّ ﷺ مكّة ظافرًا أوصى عمر أن يُقتل أبو سفيان، زعيم قومه، ووالد معاوية الذي سيصبح خليفة في ما بعد. وممّا يدلّ على المنزلة التي كانت لعمر عند النبيّ ﷺ، اللّقب الذي جعله النبيّ ﷺ له: الفاروق، أي الذي يفرّق بين الحقّ والباطل. ومن أحاديث الرسول ﷺ قوله:

إنّ الله جعل الحقّ على لسان عمر، وقلبه.

وقوله ﷺ:

لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب[1].

وإذا كان أبو بكر، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، قد سبقا عمر في دخول الإسلام، فإنّ اعتناقه من قِبَل عمر، كان مميّزًا.

قبل ذلك، كان عمر من أشدّ أعداء الدعوة ومن ألدّ خصومها، وكانت معارضته للدين الجديد، صادرة عن تخوّفه من أن يُحدث ذلك الدين انشقاقًا في قريش. فإنّ العصبيّة القبَلِيّة المحبّبة إلى نفس كلّ عربيّ، وهي التي باتت حديثًا تُعرف بالقوميّة، كانت أمرًا خطير الشأن بالنسبة لعمر. وكان عمر يعمل كسفير لقبيلته. ذلك أنّ قريشًا كانت إذا وقع نزاع في ما بينها، أو حرب مع غيرها من القبائل، تعهد إليه بالسفارة، وهي من أجلّ المناصب في الجاهليّة. فقد كان عمر يتميّز بموهبتَين تؤهّلانه لهذا المنصب: قدرته الخطابيّة، وقوّة ملامحه الجسديّة. وقد نمت فيه مواهبه في سوق عكاظ بالقرب من الطائف، حيث كانت تُقام سوق سنويّة يحضرها رجال القبائل ونساؤهم في الأشهر الحرُم، ومعهم من نتاج أنعامهم، وغلال واحاتهم، وصنع أيديهم سلع وبضائع للمقايضة. وكان يفد معهم أهل الفكر: الشعراء والخطباء، وكان للرياضة الجسديّة يومُها في عكاظ. فكانت هذه السوق السنويّة سوقًا تجمع بين التجارة والرياضة والأدب. فكان الشعراء يتبارون في إلقاء قصائدهم لنيل الجائزة، وكانت الجائزة كتابةَ قصيدة الفائز بماء الذهب، وتعليقها عند باب الكعبة، وفي ذلك أكبر مكافأة يفخر بها الشاعر. وفي أيّام شبابه، كان عمر يرتاد هذه الأسواق، وكان يميل إلى الشعر والخطابة، وينبغي أن يكون قد حفظ كثيرًا ممّا سمعه... وكان قد نشأ على أفضل ما

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٣٧ ـ ٣٨.

كان ينشأ عليه أبناء قريش من البراعة في الفروسية وحفظ الأخبار والشعر. ويقال إنّه كان يبرز في عكاظ للمبارزة، وفي ذات مرّة صرع إلى الأرض فارسًا من فرسان البدو الصناديد. ويقال أيضًا إنّه كان يستطيع أن يمتطي صهوة جواد وهو يجري وبدون عنان فيستوي على ظهره. وكانت نساء مكّة تتغنّى بهيبته وبفروسيّته. وإذا انصرف عن هذه الأمور عاد إلى تجارته لأنّه كان تاجرًا، ونحن نعلم أنّ مكّة كانت في ما مضى أشبه بجمهوريّة تجاريّة. ويُظنّ أنّ تجارة عمر كانت الشعير وغيره من أصناف الحبوب. وكان له مصالح في تجارة القوافل التي كان مركزها مكّة... والتجارة تتطلّب معرفة القراءة والكتابة. وكان عمر أوّل الذين كانوا يقرأون ويكتبون في قريش، وعددهم سبعة عشر نفرًا على ما ذكر البلاذريّ[1]... ويبدو أنّه كان لعمر أربع زوجات أو خمس، قبل إسلامه، وكان مغرمًا بالخمر، وبالنساء.

كذا كان عمر، قبل اعتناقه الإسلام، يوم كان يصبّ جامّ غضبه على كلّ مَن اعتنق الإسلام، ومن بينهم جاريته، فكان يجلدها بالسوط، ويقسو في جلدها.

وفي ذات يوم من سنة ٦١٦، عندما كان النبيّ ﷺ مع رهط من صحبه محاصَرًا في حيّ ضيق، والناس يقاطعونه، هبّ عمر والسيف في يده لمهاجمة الحيّ. فقال له حارس الباب: "ولِمَ لا تبدأ بأختك وصهرك؟" - وكانا قد اعتنقا الإسلام - فكان لكلام الحارس وقع السيف في نفسه. فارتدّ إلى بيت أخته، وعندما دخل رآها تخبّىء شيئًا لم يستبنه، ولكن ظنّ أنّه كتاب له علاقة بالدين الجديد، فانهال عمر على شقيقته وعلى زوجها بالضرب، فقالت له، والدم يسيل من وجهها: "إفعل ما تشاء، فالإسلام لن

---

[1] أحمد بن يحيى البلاذريّ (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): مؤرّخ عربيّ وُلد في بغداد ودرس فيها مع المدائني والزبيري، اشتهر بالنقل عن الفارسيّة، أهمّ مصنّفاته التاريخيّة كتاب "فتوح البلدان" وكتاب "أنساب الأشراف"، اعترف له الجميع بصحّة الرواية والنقاء.

يغادر قلوبنا". وبعد أن فاهت بهذه العبارة، سلّمته رقعة كُتب عليها:

تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العُلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السرّ وأخفى... إنّني أنا الله لا إله إلاّ أنا، فاعبدني وأقم الصلوة لذكري[١].

وكان هذا ما غيَّر قلب عمر، فراح يسعى إلى باب بيت الرسول ﷺ، وسمع صوتًا من الداخل يقول:

أدخله. فإن كان قادمًا للسلام فسلامًا يلقى، وإن كان قادمًا للقتال فسيُقتل بحدّ سيفه.

وكان السلام الذي سعى له عمر ووجده، نقطة تحوّل في حياته الغنيّة بالأحداث الجسام، وأسلم عمر[٢].

ما أن اعتنق عمر الإسلام، حتّى اندفع إليه بالحماسة ذاتها، وبالشعور نفسه، اللذَين أبداهما في عدائه له... فغدا بذلك أعظم شخصيّة عربية بعد النبيّ ﷺ. وكان عمر عند اعتناقه الإسلام في الأربعين من عمره. ويجب أن يكون قد بلغ الثالثة والخمسين عندما جاء يوم مبايعته الخلافة، في نهاية العام الثالث عشر للهجرة[٣].

---

١ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤١ ـ ٤٢.

٣ ـ يذكر حتّي، في المرجع السابق، أنّ عمر، كان في الخامسة والأربعين عندما اعتنق الاسلام، (صفحة ٣٩) ولكنّه يعود فيذكر أنّه كان في الرابعة والثلاثين (صفحة ٤٠). إلاّ أنّنا نميل إلى الاعتقاد بأنّه كان في السادسة والثلاثين، لأنّ المؤرخين القدماء، يُجمعون على أنه لمّا قُتل، كان له من العمر ثلاث وستّون، في العام ٢٣ هـ واعتنق الاسلام، قبل الهجرة بأربع سنوات.

أعمَال

عُمــر

يوم مبايعته الخلافة، صعد عمر بن الخطّاب المنبر في المدينة، وجلس دون مجلس أبي بكر بمرقاة، وكان أبو بكر قبل ذلك، قد جلس دون مجلس الرسول ﷺ بمرقاة.

وفي أوّل خطبة له، حمد عمر الله، وأثنى عليه وصلّى علـى النبـيّ ﷺ، وذكـر أبـا بكر، وفضله، وترحَّم عليه، ثم قال:

يا أيّها الناس، إنّي قد وُلِّيـت عليكـم، ولـولا رجـاء أن أكـون خـيركم لكـم، وأقواكم عليكم، وأشدّكم استضلاعًا بما ينوب من مهمّ أموركم، ما تولّيت ذلك منكم.

وقال أيضًا:

ما أنا إلاّ رجل منكم، ولولا أنّي كرهت أن أردّ أمر خليفة رسول الله ﷺ لما تقلَّدت أمركم.

فأثنى الناس عليه خيرا[1].

كان أوّل ما قام به عمر بعد تولّيه الخلافة، أن ردّ سبايا أهل الرِدّة إلى عشـائرهم، وقال: "إنّي كرهت أن يصير السبي سنّة على العرب"[2].

حتّى ذلك الوقت، كانت حالة المرتدّين: جماعة معاقبة تكفّر عن سـيّئاتها بلـون مـن النبذ والحرمان.. أمّا وقد قوي أمر المسلمين، وامتدّت قوّتهم، وغابت في ضباب رقيـق من الماضي ذكريات الارتداد عنهم والانقضاض عليهم، إتّجـه عمـر بـالمرتدّين وجهـة

---

١ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

جديدة. فلم يشأ الخليفة الثاني أن تظلّ هذه القوى معطّلة تفنى في قلقها وتذوب في أساها، ولم يشأ أن يحرم المجتمع الإسلاميّ ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدّين من اندفاع ورغبة في التكفير، فأذِن أن يشاركوا في الحرب، ورضي لهم أن يكونوا في الجند، ثمّ مضى خطوة أخرى، فأذِن لهم أن يولّوا بعض المراتب في الجيش، ولكنّه لا يُطمعهم، كما يقول الشعبيّ[1]، في الرياسة[2]، وإنّما يحدّ سلطاتهم بما دون المائة، ويكتب إلى سعد: "أن لا يولّي رؤساء أهل الردّة على مائة"[3]. ويضطر سعد ليلة الهرير[4]، تقيّدًا بسياسة الدولة نحو هذه الطبقة من الناس، أن يبعث بقيس بن المكشوح[5]، وكان من أولئك الرؤساء الذين نُهي عنهم أن يولّيهم المائة، في سبعين رجلاً[6] فحسب.

كان المرتدّون في عهد عمر، "ضمن هذا الحيّز الضيّق من المدى الإسلاميّ الواسع، في المشاركة الاجتماعيّة"، يعانون هذه الأزمة العميقة في نفوسهم، فراحوا يسعون لتعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاّحقة، ولذلك اندفعوا في الفتوح اندفاعًا مشرّفًا وأقبلوا إقبالاً لا يعرف الهيبة.

---

١ - **عامر بن شرحبيل الشّعبي** (ت١٠٣هـ/ ٧٢١م.): نسبته إلى شعب بطن من همْدان، تابعيّ، محدث، راوية، حافظ ثقة، ولد ونشأ في الكوفة، اتّصل بعبد الملك بن مروان وكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم، أخذ عنه الإمام أبو حنيفة.

٢ - فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٤٢، عن الطبري، ١: ٢٤٥٨.

٣ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٧.

٤ - **ليلة الهرير**: من ليالي معركة القادسيّة كما سيأتي، وتسمّى أيضًا ليلة القادسيّة.

٥ - **قيس بن المكشوح** (ت٣٧هـ/ ٦٥٧م): هو ابن هبيرة الملقّب بالمكشوح، صحابيّ من الشجعان، شاعر وفارس، كان سيّد بجيلة في الجاهليّة، شارك في الفتوحات في زمن عمر وعثمان، حضر صفّين مع عليّ عليه السلام وقُتل في إحدى معاركها.

٦ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٨.

وإذا كان المرتدّون قد ظلّوا، في عهد عمر، على حدّ تعبير الشعبيّ "من حشوة الناس"[1]، فإنّهم قد أحرزوا تقدّمًا واسعًا في الاعتبار، قياسًا على ما كانوا عليه في عهد أبي بكر، ويُعدّ هذا أحد إنجازات عمر.

في هذا الوقت، كانت جيوش الإسلام قد وصلت إلى الأراضي السوريّة، بناء على أمر أبي بكر، الذي لم يقدَّر له أن يعيش ليفرح بإنجازاتها.

وعندما تسنّم عمر سدّة الخلافة، كان خالد بن الوليد، بعد أن حقّق انتصارات هامّة للإسلام في محيط الفرات، حيث لم يُبد مسيحيّو الحيرة[2] مقاومة تُذكر، وقبلوا بأن يدفعوا الجزية، وبأن تكون الحيرة منطلقًا للجيوش العربيّة في غزواتها إلى المناطق المجاورة لمناطق الفرس، قد تلقّى أمر الخليفة بأن يوقف زحفه ويرتدّ إلى سورية لمساندة الجيش العربيّ الذي كانت جيوش بيزنطية تشدّد عليه الخناق.

وإذ تضاربت الآراء حول أيّ من الخليفتَين: أبي بكر، أم عمر، قد أمر خالدًا بهذا الانتقال، فالمهمّ أنّ أوّل انتصار حقّقه ابن الوليد هناك كان فتح دمشق، عاصمة البيزنطيّين في سورية، يوم كانت مملكتهم السوريّة تمتدّ من طوروس إلى سيناء، وقد فتحت دمشق أبوابها للفاتحين العرب سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستّة أشهر.

وكما تعاونت القبائل العربيّة المسيحيّة في الحيرة مع الفتح الاسلاميّ العربيّ، كذلك فعلت في دمشق، وكان على رأس المتعاونين أسقف المدينة وصاحب الخزينة، وهو والد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ من مشاهير الكنيسة السريانيّة الشرقيّة. وقد استقبل أهل دمشق المسيحيّون الفاتحين العرب المسلمين "بالترحاب وبالهتاف، ذلك أنّ العرب

---

١ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٤٥٨.

٢ ـ كانت الحيرة قاعدة الملوك اللخميّين بين النجف والكوفة في أرض العراق، وكان أهلها من المسيحيّين النساطرة كما ذكرنا سابقًا.

كانوا أقرب لغة وعرقًا إليهم ممّا كان أسيادهم من البيزنطيّين. فإنّ السريانيّة والعربيّة لغتان متقاربتان وتنتسبان إلى عائلة لغويّة واحدة، هي الساميّة"[1]. وعلى بعد خمسين ميلاً جنوب دمشق، كانت قبائل غسّان من العرب المتنصّرة، قد أسّست مملكةً عاصمتُها: الجابية*. وقد تعاونت هذه القبائل المسيحيّة مع المسلمين كما فعل أهل شيزر[2]، على ضفاف العاصي بالقرب من حماة، وهم مسيحيّون أيضًا، فاستقبلوا العرب بالغناء والأهازيج وضرب الطبول.

ذلك أنّ الدين الجديد: الإسلام، قد بدا لنصارى سورية والعراق وكأنّه فرقة دينيّة من فرق النصرانيّة[3]. وبدا العرب وكأنّهم المنقذ من نير الاستعمار الأجنبيّ.

أمام هذا الواقع، عُقد الصلح بين خالد بن الوليد وأهل دمشق، بموجب كتاب أعطاه خالد إلى أهل المدينة، جاء فيه:

بسم اللّه الرحمَن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها. أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيئًا من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمّة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلاّ بالخير إذا أعطوا الجزية[4].

ويمكن اعتبار هذا النص بمثابة مثال لغيره من عقود الصلح بين العرب والشعوب التي غلبوها.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٥.

٢ ـ شيزَر: أنقاض مدينة سوريّة على العاصي شمال حماة، فتحها أبو عبيدة ٦٣٨، تحصّنت دون الصليبيّين، مسقط رأس أسامة بن منقذ، قلعة قديمة.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٥.

٤ ـ البلاذري، فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢) ص١٢٨.

نجد هنا بعض الخلاف بين المؤرّخين حول حقيقة موقف ابن الوليد من موضع الصلح. فبينما يذكر بعضهم أنّ فتح دمشق قد تمَّ على يد خالد ابن الوليد على الشكل الذي ذكرنا، يذكر بعضهم الآخر أنّ بن الوليد كان يعارض أبا عبيدة في عقد الصلح، إذ لمَّا بلغه، بعد الحصار "أنّ أبا عبيدة عزم على أن يصالح القوم، وأنّ القوم قد وثقوا به للصلح، وكان موقع أبي عبيدة على باب الجابية، ألحَّ خالد على الباب الشرقيّ للمدينة ففتحه عنوة، فقال الخالد لأبي عبيدة: "إسبهم. فإنّي دخلتها عنوة". فقال أبو عبيدة: لا، قد أمنتهم".

ويروي الواقديّ* أنّ خالد ابن الوليد صالحهم، وكتب للأسقف كتابًا للصلح، وأعطاهم الأمان، فأجاز أبو عبيدة ذلك[1].

أبو عُبيدَة
أَم خَالد؟

وقبل تعداد الفتوحات هنا، لا بدّ من الإشارة إلى تذبذب المدوّنات حول هذه الفتوحات وما يليها، بين ردّ البطولة والقيادة فيها إلى أبي عبيدة، وبين ردّ ذلك إلى خالد بن الوليد. وسبب هذا أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب، كان "سيّئ الرأي في خالد.. مع أنّه ابن خاله". ويردّ المدوّنون أصل هذا الجفاء إلى "قول كان قاله خالد في عمر" لذلك، عندما استقرّ الأمر للخليفة الجديد، كتب إلى أبي عبيدة يخبره أوّلاً، بوفاة أبي بكر، وبتولّيه الخلافة الثانية، ثم يعقد له ولاية الشأم مكان خالد بن الوليد، ويصيّر خالدًا

---

١ ـ راجع، اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٠.

في موقع أبي عبيدة"[1]. ويؤكّد هذا المرجع، على أنّ خالد بن الوليد، كان قد فتح مرج الصّفر من أرض دمشق، وحاصر مدينة دمشق، قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام. ويروي أنّ أبا عبيدة قد سُرّ خبر أمر عمر عن خالد، حتّى ورد كتاب ثان عن عمر على أبي عبيدة، يأمره فيه بأن يتوجّه إلى حمص ونواحي الشأم[2]، فكان عليه أن يُعلم خالدًا بذلك، وهنا قال خالد بن الوليد: "رحم الله أبا بكر! لو كان حيًّا ما عزلني".

ويروي اليعقوبيّ أنّ الخليفة كتب إلى أبي عبيدة: "إن كذّب نفسه (خالد) فيما كان قاله، عَمّله، وإلاّ فانزع عمامته وشاطره ماله... فشاور خالد أخته، فقالت: والله ما أراد (عمر) إلاّ أن تكذّب نفسك، ثمّ ينزعك عن عملك، فلا تفعلنّ... فلم يكذّب نفسه، فقام بلال فنزع عمامته، وشاطره أبو عبيدة ماله حتّى نعلَه، فأفرد واحدة عن الأخرى"[3].

وقد استخلص بعض البحّاثين المحدَثين، أنّ أسباب قيام عمر بإذلال خالد "سيف الإسلام" وبطل الفتوحات في سورية والعراق، بعد أن بلغ خالد علياء مجده، تعود إلى أنّ عمر "كان يضمر لخالد بعض السوء في عهد الخليفة أبي بكر ، وقد بلغ مسمع عمر أنّ خالدًا يعيش عيش البذخ والترف، ويغدق على أعوانه والمعجبين به من العطايا الشيء الكثير، فاستاء عمر وهو الخليفة الزاهد المتقشّف. وأُخبر عمر أنّ شاعرًا مدح خالدًا بمناسبة انتصاراته العسكريّة فنال منه جائزة قدرها عشرة آلاف درهم... ويقال إنّه عندما سأل عمر خالدًا عن نفقاته وعن نصيب بيت مال المسلمين،

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩.

٢ ـ المقصود بـ"الشأم" عند المؤرّخين القدماء، البلاد السوريّة، أما مدينة الشام، فكانوا يذكرونها "دمشق".

٣ ـ راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٣٩ ـ ١٤٠.

أجابه جوابًا جافًّا "لا يخرج عن القول: إنّ الأمر لا يعنيك". وكان نصيب بيت المال من الفيء الخمس[1].

ويبدو أنّ خالدًا تنازل طوعًا عن مركزه في سورية وسلَّم نفسه لأمير المؤمنين[2] في المدينة، وأعاد إلى بيت المال مبلغ عشرين ألف درهم. عندها كتب عمر إلى الأمصار يقول:

"إنّي لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكنّ الناس فخّموه وفُتنوا به فخِفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أنّ الله هو الصانع[3]...".

ويخلص البحّاثة إلى اعتبار أنّ "هذا الكتاب الذي كتبه عمر إلى الأمصار يُفصح عمّا كان يضمره من حسد". وإلى أنّه "لا يمكن أن تلمع في فلك عمر شمسان"[4].

تقشّف

عُمَر

لنا رأي آخر في موقف الخليفة عمر من البذخ في الإسلام. فحواه أنّ مردّ إذلال عمر لخالد بن الوليد، يعود إلى اعتبارات دينيَّة. فإنّ الرسول ﷺ، كان متواضعًا، وبعيدًا عن البذخ، وقد أمر أتباعه بذلك. وكان الخليفة الأوّل، أبو بكر، "يأخذ من بيت المال

---

١ ـ راجع: سورة الحشر، ٦ ـ ١٠.

٢ ـ يذكر المؤرّخون القدماء أنّ كنوة عمر الأساسيّة، هي "أبو حفص" وإنّه "أول مَن سمّي بأمير المؤمنين، سمّاه عدي بن حاتم وقيل غيره والله أعلم؛ وكان أول مَن سلّم عليه بها (أمير المؤمنين) المغيرة بن شعبة، وأوّل مَن دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الاشعري. وأبو موسى أوّل مَن كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي موسى الاشعري. فلمّا قرأ ذلك عمر قال: إنّي لعبد الله وإنّي لعمر وإنّي لأمير المؤمنين والحمد لله ربّ العالمين" ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٨.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ٢: ٣٧٦.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٧ ـ ٤٨.

ثلاثة دراهم أجرة كلّ يوم"، وكان متقشّفًا في حياته، بعيدًا عن البذخ. وعمر نفسه، أصبح متقشّفًا إلى أقصى الحدود، بعد أن اعتنق الإسلام، وزاد تقشّفًا بعدما تسنّم سدّة الخلافة. وكان يوصي عمّاله، حيث عيّنهم، بالزهد والتقشّف، ويعلّق على ذلك كبير أهمية. وممّا يُروى في هذا المجال، أنّه "كان من عمّاله، سعيد بن عامر، فشكاه أهل حمص إليه"، وسألوه عزله، فقال عمر: "اللّهمّ لا تُفلّ فراستي فيه اليوم"، وقال لهم: "ماذا تشكون منه؟" قالوا: "لا يخرج إلينا حتّى يرتفع النهار ولا يجيب أحدًا بليل، وله يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا". فقال عمر: "علَيَّ به"، فلمّا جاء جمع بينه وبينهم وقال: "ما تنقمون منه؟". قالوا: "لا يخرج إلينا حتّى يرتفع النهار". قال: "ما تقول يا سعيد؟". قال: "يا أمير المؤمنين إنّه ليس لأهلي خادم فأعجن عجيني ثمّ أجلس حتّى يختمر، ثمّ أخبز خبزي ثمّ أتوضّأ وأخرج إليهم". قال: "ماذا تنقمون منه؟". قالوا: "لا يجيب بلَيل". قال: "قد كنت أكره ذكر هذا، إنّي جعلت الليل كلّه لربّي وجعلت النهار لهم". قال: "وماذا تنقمون منه؟". قالوا: "له يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه". قال: "نعم ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجفّفه فأمسي عنهم". فقال عمر: "الحمد لله الذي لم يُفلّ فراستي فيك!... يا أهل حمص استوصوا بواليكم خيرًا"؛ قال: ثم بعث إليه عمر بألف دينار وقال له: "إستعن بها"، فقالت له امرأته: "أغنانا الله عن خدمتك". فقال لها: "ألا ندفعها إلى مَن يأتينا بها أحوج ممّا كنّا إليها؟". قالت: "بلى"، فصرّها صررًا ثم دفعها إلى مَن يثق به فقال: "إنطلق بهذه الصرّة إلى فلان وبهذه إلى يتيم بني فلان وبهذه إلى مسكين بني فلان"، حتّى بقي منها شيء يسير، فدفعه إلىامرأته وقال: "أنفقي هذا"، ثمّ عاد إلى خدمته؛ فقالت له امرأته: "ألا نبعث بذلك المال فنشتري لنا منه خادمًا؟". فقال:"سيأتيك أحوج ممّا تكونين إليه"[1].

---

١ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٨ - ٤٩.

أردنا من خلال نقل هذه الرواية أن نبيِّن نهج عمر، في انتقاء عملائه. وليست هذه الحالة وحيدة من نوعها، لكن يبدو أنّ هذا النهج في حكم عمر، كان عامًّا. فمن عمّاله على المدائن، "سلمان الفارسيّ، وكان ناسكًا زاهدًا، فلمّا احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقّاص: "أوصني يا أبا عبد الله". قال:

نعم، أذكر الله عند همّك إذا هممت، وعند لسانك اذا حكمت، وعند يدك إذا أقسمت.

فجعل سلمان يبكي فقيل له: "يا أبا عبد الله ما يبكيك؟". قال": "سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"إنّ في الآخرة عقبة لا يقطعها إلاّ المخفّون وأرى هذه الأساود حولي".

فنظروا فلم يروا في البيت إلاّ ركوة ودواة وقدرًا ومطهرة.

وإنّ أبا عبيدة ابن الجرّاح، الذي ولاّه عمر مكان خالد بن الوليد "كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي، فعُذل على ذلك وقيل له: "إنّك بالشأم والي أمير المؤمنين، وأمير الجيش وحولنا الأعداء؛ فغيِّر من زيّك وأصلح من آلتك". فقال:

ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله ﷺ[1].

أمام هذه الوقائع يصبح من الطبيعيّ ألاّ يرضى خليفة، هذه سياسته، بأن يتولّى دمشق رجل، يدفع عشرة آلاف درهم لشاعر يمدحه، ويبذخ، ويشوّه صورة الإسلام.

وقد تكون الصورة الأكثر تعبيرًا عن هذه الحقيقة، تلك التي تركها لنا الراهب "ثيوفانس" عن زيارة عمر بن الخطّاب، أمير المؤمنين، وصاحب الجيوش الجرّارة

---

١ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٩.

التي قهرت البيزنطيّين، إلى بيت المقدس، وكان لزيارته وقع في نفوس مسيحيّي المدينة لا يقلّ شأنًا عن وقعه في نفوس المسلمين. قال:

"دخل المدينة المقدّسة، لابسًا ثوبًا رثًّا من وبر الجمل، وعلى محيّاه دلائل التقوى والورع، ثمّ طلب إلى أعوانه أن يُروه هيكل اليهود الذي بناه سليمان لكي يؤدّي صلاته فيه[1]...".

أمّا الرواية التي دوّنها المؤرّخون عن حادثة جرت أثناء زيارة الخليفة عمر بيت المقدس، فتقول: عندما كان رئيس الأساقفة يطوّف بالخليفة ليرى كنيسة القيامة حان وقت الصلاة، فقدّم له الأسقف سجّادة لكي يؤدّي عليها صلاته. فأبى الخليفة أن يصلّي في الكنيسة، خوفًا من أن يقوم أتباعه فيدّعوا ملكيّة المكان الذي صلّى فيه. وخرج إلى باحة الكنيسة وصلّى. وعلى البقعة التي صلّى عليها عمر بني مسجد يُعرف بمسجد عمر[2].

وعندما فتح المسلمون مصر بعهد عمر، وأرسل حاكمها وفدًا مفاوضًا لقادة الفتح، فلمّا عاد رجال وفده سألهم: "كيف رأيتم القوم؟" فأجابوا: "رأينا قوما الموت أحبّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبّ إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة، ولا مهمّة، إنّما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيّد فيهم من العبد، وإذا حضرَت الصلاة لم يتخلّف عنها منهم أحد"[3].

---

١ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٥١.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ٤٩.

٣ ـ إبن عبد الحكم، فتوح مصر، نشرة TORREY (نيوهافن، ١٩٢٢) ص٦٥.

إنّ ذلك الخليفة، الذي "ظلّ حتّى يومه الأخير رجلاً على غاية من البساطة والتقتير في عيشه، وظلّ أمينًا وفيًّا لرسالته"، قد لا يصحّ أن نفهم من الكتاب الذي جاء فيه عن أسباب عزله لخالد: "...أنّ الناس فخّموه وفتنوا به، فخِفت أن يوكلوا إليه، فأحببت أن يعلموا أنّ الله الصانع"... قد لا يصحّ أن نفهم من هذا، أنّ عمر كان يضمر حسدًا من خالد! إذ قد يكون من الأجدر اعتبار خوف عمر "من أن يوكل الناس" إلى نهج خالد، في الحياة، فتضيع رسالة الإسلام عن غايتها.

فتوحـــات

ما بعدَ دمشق

بالعودة إلى الفتوحات التي جرت في عهد عمر، نجد أنّه بعد فتح دمشق، وجّه أبو عبيدة عمرو بن العاص إلى الأردنّ، وفلسطين، ثمّ أنجده بشرحبيل بن حسنة، ففتح الأردنّ عنوة، ما خلا طبريّة التي صالح أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم. ثم وجّه أبو عبيدة إلى بعلبك[1] وأرض البقاع خالد بن الوليد، حيث أنجز الفتح، ومن هناك توجّه إلى حمص، حيث لحقه أبو عبيدة، وحاصرا بجيوشهما المدينة حصارًا شديدًا حتّى طلب أهلها الصلح الذي تمّ مقابل خراج قيمته مائة وسبعون ألف دينار. ثمّ دخل المسلمون المدينة وبثّ أبو عبيدة عمّاله في نواحي حمص.

---

١ ـ في كتاب العهد الذي أعطاه أبو عبيدة بن الجرّاح لأهالي بعلبك جاء التالي: بسم اللّه الرحمَن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم. وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا ومَن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا. ولتجّارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى مَن أقام منهم الجزية والخراج. وشهد الله وكفى بالله شهيدًا". ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٢٩٢؛ عن: البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه (ليدن، ١٨٦٦) ص١٣٠.

غير أنّ جميع هذه الأعمال الحربيّة لا تُقاس بما جرى في اليرموك.

مَعركـــةُ اليَرمُـوك

جنّد البيزنطيّون خمسين ألف مقاتل لصدّ المسلمين، الذين بعـد مراجعتهم للخليفـة، رابطوا عند سهل الواقوصة، حيث يلتقي أحد الروافد بنهر اليرموك[1]، وكان عدد جيش المسلمين ٢٥ ألف مقاتل، وكان جيش البيزنطيّين خليطًا من مسيحيّي الشام المتعرّبيـن، ومن الأرمن، ومن مرتزقة لا تكنّ جماعتها شيئًا مـن الـولاء للقسـطنطينيّة، بينمـا كـان المسلمون مصمّمين على النصر بكلّ مقاتل من جنودهم...

هبّت يومها عاصفة رمليّة عنيفة لم تزعج أبناء الصحراء، لأنّهم كانوا يألفون مثـل هذه العواصف. وبعد مناورات، تمكّن العرب من حشر أعدائهـم فـي مثلّـث ضيّق بيـن واديَين، ووجـوه الأعـداء تواجـه العاصفـة، برملهـا الواخـز كـالإبر. ولـم يكـن لـتراتيل الأساقفة الأثر الذي كان لتكبير العرب: "الله أكبر"! ومَن نجا من الجيش البيزنطيّ مـن حدّ السيف، إنتهى به الهرب إلى قاع الوادي، ولم ينجُ منهم سوى القليل. فكانت معركة اليرموك حاسمة فاصلة بالنسبة لمستقبل سورية التي كان البيزنطيّون يعتبرونها أفضـل ولاياتهم، وأدرك هرقل[2] الذي حشد أكـبر قـوّة، وعلّـق عليهـا الآمـال الجسـام، خطـورة

---

١ ـ **اليرموك**: من روافد نهر الأردن، ينبع في هضبة حوران ويصبّ فيه نهر الزرقاء قرب جسر المجـامع، يجـري بين جبـال عجلـون والبلقاء.

٢ ـ **هرقل أو هيراكليوس الأوّل** HÉRACLIUS (امبراطور بيزنطيّ ٦١٠ ـ ٦٤١): شـهد عهـده حروبـا كثيرة وتطـوّرات جذريّـة فـي الشرق، تقدّم الفرس واحتلّوا أنطاكية ٦١١، والقدس ٦١٤، ومصر ٦١٩، واقترب الأقـار من القسطنطينيّة ٦١٧، مدّه البطريـرك سرجيوس بالمال فنظّم الجيش وردّ الآقار ثمّ حمل على الفرس فردّهم إلى مـا وراء الفرات واحتلّ تبريز واستردّ خشـبة الصليب ٦٢٢ ـ ٦٣٠، عندها بدأ الفتح العربيّ فانكسرت جيـوش هرقـل وخسـرت الأمبراطوريّـة سـورية وفلسـطين وبـلاد مـا بين النهريـن ومصر ٦٣٤ ـ ٦٤٢.

الهزيمة. وكانت آخر عبارة فاه بها وهو في طريقه إلى بلاده: "عليك يا سورية السلام، ونِعم البلد هذا العدو"[1].

ولم تمضِ أيّام، حتّى سقطت قنسرين، ومنبج، وحلب في سورية ووُضع عليها الخراج. وكان أبو عبيدة قد أمر بجمع غنائم اليرموك، وكتب إلى الخليفة مبشّرًا، فأمر الخليفة "بألاّ يحدثوا شيئًا حتّى يفتحوا بيت المقدس"[2].

وبعد حصار طويل، سقط بيت المقدس، وهو المعروف بـ "إيلياء"، الذي يُعتبر ثالث المقدّسات الإسلاميّة بعد مكّة والمدينة، فدعا إذّاك عمر قوّاده للاجتماع به في الجابية، حيث كان مقرّ قيادة جيش "الشأم"، ووصلها الخليفة (سنة ٦٣٨) راكبًا جملاً ولابسًا ثيابًا رثّة يحيط به أعوانه وخواصّه. ولم يكن في استقباله شيء يدلّ على عظمة القادم إليهم ورفعة مقامه، فلا أهازيج ولا قرع طبول؛ ثمّ قام بلال، مؤذّن الرسول، يدعو إلى الصلاة، وكان بلال قد انقطع عن الآذان بعد وفاة النبيّ ﷺ. وأوّل بادرة بدرت عن عمر، شجبه قوّاده لقدومهم راكبين الجياد ولابسين الثياب السوريّة المزركشة المطرّزة!"[3].

وفي الجابية، قال بلال، مؤذّن الرسول: "يا أمير المؤمنين، إنّ أمراء أجناد الشام ما يأكلون إلاّ لحوم الطير والخبز النقيّ، وما يجد ذلك عامّة الناس!"

فما كان من عمر إلاّ أن فرض على أمراء الشام الفاتحين أن يضمنوا له القُوت للمسلمين، بمعدّل رغيفَين لكلّ رجل، وحاجته من الزيت والخلّ، كما أمر بأن تُقسم

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٧.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٢.

حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٤٨.

الغنائم بين الناس بالسويّة باستثناء قبيلتَي لخم[1] وجذام[2]، وقال:

لا أجعل من خرج من الشقّة إلى عدوّه كمن خرج من بيته.

ولم يأبه عمر لاعتراض أحدهم إذا قال:

إن كان الله جعل الهجرة إلينا فخرجنا من بيوتنا إلى عدوّنا نُحرم حظّنا[3]؟

مقرّرات الجابيَـة

رغم أنّ المدوّنات القديمة لم تـأتِ علـى ذكـر مـا اتُّخـذ مـن مقـرّرات فـي اجتمـاع الجابية، فإنّ الظاهر يدلّ على أنّ الخليفة المسلم، قد أبقـى علـى التنظيـم الإداريّ الـذي كان معمولاً به من قبل البيزنطيّين، إضافة إلى وضعه مـا يشـبه نظـام الضرائـب، مـن خلال ما فرض على قادته من أتاوى. وفرض الخليفة عمر على مَن ولاّهـم أن يفتحـوا السجلاّت للأموال التي تدخل بيت المال، لتوزَّع على المسلمين بحسب قرابتهـم مـن آل البيت، وبحسب أسبقيّتهم إلى الإسلام[4].

---

١ ـ بنو لَخم أو اللخميّون أو المناذرة: من قبائل العرب، أصلها من اليمن، أخت جذام وعاملة، رحل بعضهم إلى شمالي جزيرة العرب وسورية وفلسطين والعراق، أسّسوا الدولة اللخميّة في الحيرة التي عاشت في حروب متواصلة مع الغساسنة، اعتنقوا المسيحيّة وتحالفوا مع البلاط الفارسيّ وعملوا على صيانة الحدود، تلاشت دولتهم بعد وفاة النعمان الثالث ٦٠٢، انتقلوا إلى الإسلام بعد الفتح العربيّ، اشتركوا في اليرموك وصفّين وحملة يزيد بن معاوية على الحجاز.

٢ ـ جُذام بن عَدي: قبيلة عربيّة، بطن من كهلان، منهم عاملة ولخم وكندة، كانوا مسيحيّين قطنوا الصحاري بين الحجاز وسورية ومصر وناصروا المسلمين بعد معركة اليرموك.

٣ ـ راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٧.

٤ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٤٩.

وعندما كان الخليفة عمر في سورية، زار بيت المقدس (إيلياء) إذ كان أبو عبيدة قد كتب إليه، يُعلمه بأنّ أهل إيلياء الذين طال صبرهم (على الحصار) يطالبون بأن يكون الخليفة المصالح لهم...

وعندما قدم الخليفة عمر إلى بيت المقدس، ولم يكن مضى على هجرة الرسول ﷺ أكثر من ستة عشر عامًا، فتح المدينة المقدّسة صلحًا، وكتب لأهلها كتابًا، وقد اختلف المؤرّخون في ما إذا كان هذا الصلح قد جرى مع اليهود أو مع النصارى، إلاّ أنّ المتّفق عليه عمومًا هو أنّه قد جرى مع النصارى، وقد جاء في كتاب العهد:

بسم اللّه الرحمَن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطّاب لأهل بيت المقدس. إنّكم آمنون على دمائكم وأموالكم، وكنائسكم لا تُسكن ولا تُخرب، إلاّ إن تحدثوا حدثًا عامًّا.

فَتحُ مِصر

وقبل أن يعود إلى المدينة، أذن الخليفة عمر لعمرو بن العاص بأن يسير إلى مصر، بعد أن استأذنه هذا الأخير بقوله:

إنّا إن فتحناها كانت قوّة للمسلمين، وهي من أكثر الأرض أموالا ومن أعجزها عن القتال.

سقطت المدن المصريّة بيد المسلمين الواحدة تلو الأخرى، وكان سقوط العاصمة: الإسكندريّة، في أيلول (سبتمبر) ٦٤٢، وفي ذلك نصٌّ محفوظ للرسالة القصيرة التي أرسلها عمرو إلى الخليفة وجاء فيها:

... أمّا بعد، فإنّي فتحت مدينة لا أصف فيها، غير أنّي أصبت فيها أربعة آلاف حمّام، وأربعين ألف يهودي، عليهم الجزية، وأربعمئة ملهى للملوك[1].

وكانت شروط الصلح الذي عُقد بين المسلمين ومصر المسيحيّة يومها، مثل شروط الصلح التي فُرضت على بلاد الشام. وحافظ العرب على شؤون التنظيم القديم المتّبع في مصر. وأبقوا الموظّفين الأقباط في مراكزهم الإداريّة، وفرضوا الجزية[2]. وليس من إثبات على صحّة الرواية التي تقول بأن عمر بن الخطّاب قد أمر بحرق مكتبة الإسكندريّة، وكان أوّل مَن ذكر هذه الرواية عبد اللطيف البغدادي[3] بعد ستّة قرون من تاريخ فتح مصر. والثابت، أنّ مصر غدت أهراء للجزيرة العربيّة كما كانت من قبل أهراء لروما، وقد حكمها عمرو بن العاص، جاعلاً عاصمته الفسطاس[4].

طَاعُون عمواس وعَام الرمَّادة

في هذه الأثناء، كان الطاعون قد كثر في أرض الشام، بعد أن كان معظم المدن الفلسطينيّة قد سقط بيد المسلمين، وقد عُرف طاعون سنة ٦٣٩ بطاعون عمواس، نسبة

---

١ ـ ابن عبد الحكم، فتوح مصر، مرجع سابق، ص٨٢.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٥٢.

٣ ـ **عبد اللطيف البغدادي** (ت٦٢٩هـ/ ١٢٣١م): معروف بابن اللباد، اشتهر بعلم الكلام والفلسفة والطب، وُلد وتوفّي في بغداد، تنقّل بين العراق وسوريا ومصر وأقام عشرة أعوام بالقاهرة في بلاط صلاح الدين الأيّوبي، من تصانيفه الكثيرة "الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار"، و"الجامع الكبير".

٤ ـ **الفُسطاس**: أوّل مدينة أسّسها العرب بالقرب من بابليون على الضفّة الشرقيّة للنيل، بناها عمرو بن العاص نحو ٦٤٣ وأقام فيها مسجدًا، هجرها العباسيّون ثمّ الطولونيون دون أن تتلاشى أهميّتها، كانت في العهد الفاطمي من مدن الإسلام الزاهرة، اشتهرت في القرن الثالث عشر بمعامل النحاس والورق والزجاج، نقلت بقاياها لبناء القاهرة بعد أن قضى عليها الوباء والمجاعات، عادت إليها الحياة في عهد صلاح الدين الأيّوبي وأصبح مسجدها مركزًا هامًا للدراسات الدينيّة حتّى طاعون ١٣٤٨ فبدأت بالتدهور.

إلى قرية عمواس القريبة من القدس، والتي اشتهرت بظهور المسيح فيها لاثنَين من تلاميذه. وقد قضى أكثر من ٢٥ ألف نسمة بهذا الطاعون، منهم أبو عبيدة ابن الجرّاح نفسه، الذي أصبح قبره هناك مزارًا يتبرّك به الناس.

وتقول الروايات بأنّ الخليفة كان عازمًا على التوجّه إلى القدس عندما جاءه خبر طاعون عمواس، فكتب إلى أبي عبيدة يأذن له بالعودة إلى المدينة، فكان ردّ أبي عبيدة: "أَفرارًا من قدر الله؟" فأجاب عمر: "نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله!"[1]

وقد دُوّنت هذه الرواية تبعًا لاعتبارات متناقضة، ومنها ما يذكر أنّ الخليفة عمر، كان قد خرج في تلك السنة، قاصدًا الشأم، ولمّا بلغ سرغ[2]، بلغه أنّ الطاعون قد كثر، فرجع فلقيه أمراء الشام وكلّمه أبو عبيدة ابن الجرّاح "أشدّ كلام" وقال: "أفرار من قدر الله تعالى؟" فقال عمر: "نعم أفرّ من قدر الله إلى قدر الله"[3].

وكان في العام نفسه، قد أصاب أهل الجزيرة جرب وقحط ومجاعة، كان ذلك في السنة الثامنة عشرة للهجرة، وقد عُرفت بعام الرمّادة، وقد أجرى عمر الأقوات في تلك السنة على عيالات قوم من المسلمين، وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال.

في الوقت نفسه، كان قد بدأ إعمار الكوفة، حيث نزل المسلمون ومعهم من أصحاب الرسول ثمانون رجلاً، وراحوا يعمّرون المنازل ويشيّدون المباني، وقد تمكّن

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٥٠.

٢ ـ سرغ: لعلّها سرغايا من محافظة الشام.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٩. وقد تكون هذه الرواية أقرب إلى الواقع،لأنّها تحدّد مكان الحديث الذي جرى بين عمر وأبي عبيدة. إذ لا يمكن أن يكونا قد تحادثا من دون لقاء! وليس من ذكر في المدوّنات لانتقال أبي عبيدة إلى الجزيرة في هذه الحقبة.

عيّاض بن غنم الفهريّ* الذي وجّه أبو عبيدة إلى الجزيرة، من فتح الرقّة[1] وسروج[2] والرها[3] ونصيبين[4] وسائر مدن الجزيرة، صلحًا، ووضعًا للخراج.

فَتح
بلادَ فارس

في مدوّنات فتح بلاد فارس، إضطراب. فمنهم مَن يجعله في العام الرابع عشر للهجرة، ومنهم مَن يجعله بعد ذلك بسنتَين، وأحيانًا أربع. والثابت أنّ الخليفة كان قد أمر بغزو بلاد فارس، بحسب الواقديّ*، عندما قام الخليفة عمر في المسجد، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ دعا الناس إلى الجهاد وحضّهم عليه وقال:

> إنّكم قد أصبحتم في غير دار مقام بالحجاز، وقد وعدكم الله فتح بلاد كسرى وقيصر، فسيروا إلى أرض فارس.

ولّى الخليفة أبا عبيد بن مسعود الثقفي[5] قيادةَ الحملة، على أن لا يقطع أمرًا دون مسلمة بن أسلم بن حريش، وسليط بن قيس، من أهل بدر.

---

١ ـ **الرقّة أو الرشيد**: مدينة سوريّة قاعدة محافظة، شيّدها الإسكندر المقدوني ودعاها اليونان "نيكوفوريون"، والرومان "كاليتيكُس"، عندها انتصر قباذ الأوّل الملك الفارسي على البيزنطيّين، أقام فيها كسرى الأوّل قبيلة مضر العربيّة، بنى فيها المنصور مدينة جديدة ٧٧٢ ودعاها "الرقيقة"، جعلها هارون الرشيد بعد نكبة البرامكة عاصمته الصيفيّة ٨٠٣ وبنى فيها قصر السلام فعُرفت بمدينة الرشيد، دمّرتها غزوات المغول في القرن الثالث عشر.

٢ ـ **سروج**: مدينة في جنوب تركيا، فتحها العرب ٦٣٩، بقيت مدّة تحت حكم الصليبيّين.

٣ ـ **الرُها** EDESSE أو **أورفا** URFA: مدينة بين النهرَين في تركيا، اشتهرت بمدرستها اللاهوتيّة، من أساتذتها أفرام السريانيّ ورابولا.

٤ ـ **نَصيبين**: مدينة في ما بين النهرَين في تركيا اليوم، كانت منذ القرن الثالث مهد الآداب السريانيّة حتّى سقوطها في أيدي الساسانيّين ٣٦٥، ازدهرت فيها مدرسة نسطوريّة في أواخر القرن الخامس وحتّى منتصف السادس، لمع منها الأسقفان نرساي وبرصوما.

٥ ـ **أبو عبيد الثقفي** (ت١٣ هـ/ ٦٣٤م): قائد من أبطال الفتوحات الإسلاميّة، قُتل في وقعة الجسر.

عبر أبو عبيد الفرات بعد قهره لفرق صغيرة من الفرس ثمّ أمر ببناء جسر، ما أن عبر عليه جنوده حتّى أمر بقطعه. فغدوا عمليًّا: العدوّ أمامهم والنهر خلفهم، ولا فارق، من هذه الناحية، بين النهر والبحر. ولم يأبه أبو عبيد لاعتراضات مسلمة، وسليط، الذي قال: "... إجعل ملجأ ومرجعًا من هزيمة إن كانت". فاتّهم أبو عبيد معاونيه بالجبن، وأمر بالالتحام مع جيش الفرس، فكانت النتيجة مأساوية على المسلمين الذين لم يألفوا مقاتلة الفيلة التي كانت فرسانهم تجفل منها، فقُتل غرقًا في الفرات من المنهزمين أكثر ممّن قُتلوا بحد السيف. وقُتل أبو عبيد نفسه، وسليط. وراح نفر من المقاتلين المسلمين يحاول عقد الجسر، وأنقذوا بذلك بضعة آلاف من رجالهم، بعد أن فقدوا أربعة آلاف غرقًا وقتلاً.

شقّ على المسلمين مقتل أبي عبيد الثقفيّ، وشقّ على عمر مقتل قائده وأربعة آلاف من جنده. فخطب ثانية في الناس وحضّهم على الجهاد وأمرهم بالتأهّب لأرض العراق، وتهيّأ عمر نفسه لقيادة الحملة، إلاّ أنّ كبار القوم عارضوا خروج الخليفة للقتال، ومنهم عثمان بن عفّان الذي نصح بإسناد قيادة الحملة، إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لكن عليّا أبى ذلك وكرهه، فقرّ الرأي إذ ذاك على إرسال سعد بن أبي وقّاص*، فكتب إليه الخليفة يأمره بالتّوجّه إلى العراق. وتوجّه في الوقت نفسه جرير ابن عبد الله البجليّ بعشرة آلاف مقاتل، وربص للفرس عند ضفّة الفرات دون أن يعبر النهر، وإذ عبر الفرس باتجاهه، صرعهم. ثمّ جاء المثنّى بن حارثة الشيبانيّ[1] على رأس قوّة ثانية، ورابط مع جرير، حيث في المعركة الثانية قتل مهران، قائد الجيش الفارسيّ.

---

١ ـ **المثنّى بن حارثة الشيبانيّ** (ت١٣هـ/ ٦٣٥م): من مشاهير القادة في عهدي الخليفتَين أبي بكر وعمر، تعاون وخالد بن الوليد في فتح فارس فانتصر في حصين وألّيس والبويب والأنبار، توفّي من جراح أصابته في إحدى المعارك.

إثر ذلك جنّد الفرس جيشًا جرّارًا للانتقام من المسلمين الذين تراجعوا إلى داخل العراق. وكان المثنّى قد أُصيب، وبعد أيّام توفّي بأرض العراق.

وسرعان ما وصل سعد بن أبي وقّاص وأتاه الرجال من محيط الشام وسواها، وأصبح جيش المسلمين بحدود الأربعين ألف رجل. بينما كان عدد الفرس المواجهين بحدود الستّين ألفًا.

إلتقى الجيشان عند الغُذيب، وهو على فم البر، وطرف السواد، ممّا يلي القادسيّة[1]، وكان يقود الفرس رجل اسمه رستم.

في هذا اليوم من معركة القادسيّة قُتل خمسمائة رجل من بني سعد، ما عدا سائر الناس. وكان السعديّون قد حاولوا صرع الفيَلة بقيادة طلحة بن خويلد الأسديّ، وقد عُرف هذا اليوم بيوم أغواث.

ما أن أطلّ فجر اليوم الثاني، والمعارك حامية، حتّى أشرفت على الميدان خيول المسلمين القادمة من الشام، وغبار حوافرها تحجب الشمس، وكان عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص، في خمسة آلاف فارس، من ربيعة، ومضر، وألف من اليمن، ومعهم القعقاع بن عمرو[2]، وكان قد مرّ شهر واحد على فتح دمشق.

حينها، أيقن أهل القادسيّة بالنصر على فارس.

---

١ - **القادسيّة**: موقع في العراق غربي النجف حدثت فيه المعركة الكبرى بين الجيشَين العربيّ بقيادة سعد بن أبي وقّاص والفارسيّ بقيادة رستم فانتصر فيها العرب وانفتحت لهم أبواب الأمبراطوريّة الفارسيّة ٦٣٥.

٢ - **القعقاع بن عمرو التميمي**: (ت نحو ٤٠هـ/ ٦٦٠م.): قائد عربيّ شهد اليرموك واشترك في القادسيّة والمدائن ونهاوند، أقام في الكوفة، قاتل في صفّين مع عليّ.

وبرز القعقاع حين وصوله إلى المقدّمة، ونادى: "هل من مبارز؟"؛ فبرز إليه عظيم منهم، قال: "أنا بهمن بن جاذويه" وهو المعروف بذي الحاجب.

وإذ كان ذو الحاجب قائد جيش الفرس في يوم الجسر، يوم قُتل أبو عبيد وسليط وأربعة آلاف من المسلمين، نادى القعقاع: "يا للثأر". وسرعان ما صرع القعقاعُ ذا الحاجب. ورُوي أنّ القعقاع وحده قد قتل يومذاك ثلاثين رجلاً في ثلاثين حملة، وكان آخر مَن قتل عظيمًا من الفرس، يُقال له بزرجمهر.

وكان أشهر مَن أبلى في هذه الحرب، أبو محجن الثقفي[1]، حتّى ظنّ بعضهم أنّه "الخضر[2]" جاء لنجدتهم.

وفي مساء اليوم الثالث للقتال، كان سقط للمسلمين ألفان وخمسمائة ما بين قتيل وجريح، وكان ذاك، يوم أغماس. وقد سقط للفرس أضعاف هذا العدد. وأصبح الناس صبيحة ليلة الهرير*، وتسمّى ليلة القادسيّة، والحرب ضروس، والموقف غير واضح النتائج، والكلّ بانتظار أعجوبة.

وحدث ما يشبه الأعجوبة، عندما هبّت ريح عاصفة قذفت بقائد الجيش الفارسيّ عن سريره، فسارع نحوه القعقاع ورفاقه وطاردوه حتّى قتلوه. وإذ صاح قاتلُ الفارسيّ رستم: "وربّ الكعبة قتلت رستم..." حلّ الخوف بجنود فارس، الذين بدأوا الانهزام، فأخذتهم سيوف المسلمين، ومن لم يُقتل بالسيف، قضى غرقًا في الفرات[3].

---

١ ـ **أبو محجن الثقفي** (ت حوالى ٦٥٠): شاعر مخضرم وصحابيّ، أكثر ما قاله في الخمريّات ومكارم الأخلاق ومظاهر البطش، كان فارسًا شجاعًا أدرك الإسلام فأسلم وحارب في المغازي، إلاّ أنّه لم يفلح في الإقلاع عن الإدمان على الخمرة فضربه عمر بن الخطّاب.

٢ ـ **الخضر**: هو إسم القدّيس جرجس أو جاورجيوس عند المسلمين.

٣ ـ المسعودي، مرجع سابق ٣: ٥٠ ـ ٦٣.

بانتصار المسلمين في معركة القادسيّة[١]، أصبح جميع المناطق الواقعة إلى شرقيّ دجلة، تحت رحمة جيش المسلمين. وإذ كان الفرس يعتبرون دجلة خطًّا دفاعيًا حصينًا ضدّ أيّ هجمات على المدائن، أرعب خبر عبور المسلمين له، وهو في فيضانه، القيادة الفارسيّة، فأسرع الأمبراطور وحاشيته وقوّاده بالهرب، مخلّفين وراءهم الكنوز الثمينة التي تكدّست في إيوان كسرى* عبر القرون.

وهكذا، وقعت أعظم مدينة في غربيّ آسية في يد المسلمين، وهي المدينة التي كانت وارثة نينوى وبابل ومنافسة القسطنطينيّة، واعتُبر دخولها أعظم يوم في تاريخ العربيّ العسكريّ، وهو اليوم الذي أذّن المؤذّن فيه من على شرفات إيوان كسرى[٢].

أمّا ما غنمه العرب من ثروات، فقد بهر المحاربين، ويحقُّ لهم أن يُبهروا، فالثروة كانت ثروة قصر كسرى.

وراحت المدن الفارسية تقع تباعًا بأيدي المسلمين. أمّا الأمبراطور الهارب، يزدجرد[٣]، فسوف يقتله أعوانه، بعد معركة نهاوند[٤]، الذين رأوا في هربه انهزامًا لبلاد فارس. وبذلك انتهى أمر تلك الأمبراطورية التي عمّرت ألفًا ومائتَي عام.

---

١ ـ إختلف المؤرّخون في تحديد زمن معركة القادسيّة، فالواقدي يذكرها في العام السادس عشر للهجرة (٦٣٧) وأبو بكر محمّد بن اسحاق، صاحب السيرة النبويّة، والمتوفّي سنة ٧٦٨، يذكر أنّها وقعت في السنة الخامسة عشرة للهجرة (٦٣٦). بينما علي بن محمّد المدائني (٧٥٢ ـ ٨٣٩) المؤرّخ العربيّ الشهير، يذكر أنّها حصلت في السنة الرابعة عشرة للهجرة (٦٣٥). إلاّ أن الأكثريّة من المؤرّخين، اعتمدت السنة السادسة عشرة للهجرة (٦٣٧) زمنًا لمعركة القادسيّة. حتّي، ذكرها في ربيع ٦٣٧.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٥٥.

٣ ـ **يزدجرد الثالث** (٦١٧ ـ ٦٥١): حفيد كسرى الثاني، أمبراطور إيرانيّ ٦٣٢، حكم في حقبة فوضى، كان قد انتصر على العرب في معركة ٦٣٣ قبل أن يكسروه في معركة القادسيّة ونهاوند، قضى اغتيالاً.

٤ ـ **نهاوند**: مدينة في إيران جنوبي همذان، عندها كانت معركة حاسمة بين جيشَي الفتح العربيّ بقيادة النعمان بن مقرن والفرس، سقط النعمان فيها قتيلاً فخلفه حذيفة بن اليمان وانتزع النصر للمسلمين ٦٤٢.

إغتيال

عمَــر

كان فتح بلاد فارس، سببًا مباشرًا في مقتل الخليفـة الثـاني، أمـير المؤمنيـن، قـاهر البيزنطيّين والفرس في أقلّ من عشر سنوات: عمر بن الخطّاب.

بعد فتح فارس، لم يسمح عمر لأحد من العجم بدخول المدينة، فكتب إليـه المغيرة بن شعبة[1] يستأذنه بالسماح لغلام "نجّار، نقّاش، حدّاد، فيه منافع لأهل البلـد" لأن يدخل المدينة، فأذن له عمر.

هذا الغلام، واسمه أبو لؤلؤة، كان مجوسيًّا[2] من أهل نهاوند، جاء يومًا إلى الخليفـة شاكيًا ثقل خراجه. إلاّ أنّ عمر، لم يجـد أنّ خراجـه بكثير طالمـا هـو يحسـن كـلّ تلـك الأعمال، فمضى عنه وهو يتذمّر. ثمّ مرّ بعمر يومًا وهو قاعد، فقال له عمر:

ألم أحدَّث عنك أنَّك تقول: لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت؟

فقال أبو لؤلؤة: والله لأصنعنّ رحى يتحدَّث بها الناس!

ومضى أبو لؤلؤة...

إعتبر الخليفة ردّ الغلام الفارسيّ بأنّه تهديد، فتمتم بقوله:

أمَّا العبد فقد توعدّني آنفًا[3]...

---

١ ـ **المغيرة بن شعبة (ت٥٠هـ/ ٦٧٠م)**: ثقفيّ، من دهاة العرب، صحابيّ، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتـوح الشـام وفـارس، ولاّه عمـر البصرة والكوفة، عزل في عهد عثمان، ولاّه معاوية الكوفة، شدّد التنكيل بشيعة عليّ، كان مزواجًا مطلاقًا.

٢ ـ هذا ما ذكره المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤؛ بينما يقول حتّي في "صانعو التـاريخ العربـي"، مرجـع سـابق، ص ٦١، بـأنّ الغـلام كان نصرانيًا. ويلمّح سليمان مظهر، في قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩١، إلى أنّه كـان "أحـد المواليـ... ممّن يعيشـون بيـن العرب أنفسهم ممّن دخلوا الإسلام من الفرس".

٣ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤ ـ ٦٥.

صحيح أنّ الخليفة قد شعر بنوع من التهديد في جواب الغلام، ولكنّ ردّة فعله، بما قاله، كانت شيئًا من الهزء... فهو لم يدرك بالضبط خطر ما عناه الفتى!

ودخل الخليفة المسجد، ووقف عند القبلة... وبدأ الصلاة، وهو يقول: "الله أكبر".

وفجأة، سمع المصلّون خلفه صرخة خفيفة وصوتًا يهتف محشرجًا:

آه... قتلني الكلب...

وخرج المصلّون عن صلاتهم...

صُرِع الخليفة!

وكان عمر يخرُّ صريعًا على الأرض، وهو يتمتم:

وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

وتلفّت الناس حولهم، فإذا أبو لؤلؤة، العبد الفارسيّ، يحاول أن يفرّ، وفي يده خنجر.. لا يقترب منه أحد الاّ طعنه. حتّى بلغ جملة مَن أصابهم، سبعة رجال[1]، وقالوا اثني عشر رجلا[2]. وأسرع وراءه عبد الرحمن بن عوف[3] فألقى عليه برنسًا شلّ حركته، غير أنّ العبد الفارسيّ سارع إلى طعن نفسه. وقيل إنّ المصلّين هم الذين قطّعوه إربًا[4].

---

١ ـ مظهر سليمان، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩١.

٢ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٣ ـ **عبد الرحمن بن عوف** (ت٣٢هـ/ ٦٥٢م): قرشيّ زهريّ، كان تاجرًا واسع الثراء، من أكابر الصحابة، ثامن مَن أسلم في مكّة، من العشرة المبشّرة، هاجر إلى الحبشة ثمّ المدينة، رُوي عنه حديث كثير.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص٦١.

وهناك رواية أخرى تقول بأنّ عبيد الله، ابن عمر، هو الذي قتل أبا لؤلؤة وابنته وامرأته، كما أنّه قتل الهرمزان[1] في الوقت عينه.

وهكذا قضت طعنة من خنجر مسموم بيد غلام حقير، على مَن كان "يجمع في شخصه في آن واحد: الإسكندر، وأرسطو، والمسيح المنتظر، وسليمان الحكيم، وأنوشروان، والإمام أبا حنيفة، وإبراهيم أدهم الصوفيّ"[2]... وهو الرجل الذي "يحتلّ المرتبة الثانية في قائمة عظماء التاريخ العربيّ بعد النبي محمّد ﷺ، فقد كان مؤمنًا، وقَف حياته في سبيل الإسلام، وقائدًا يلتهب حماسة، ومقوّضًا لإحدى أعظم الأمبراطوريّات في العالم، ومؤسّسًا لمنصب الخلافة التي كانت قوّة تربط العالم الإسلاميّ في مدى ثلاثة عشر قرنا"[3].

أمّا يوم وقوع هذا المصاب الجلل في تاريخ الإسلام، فكان "يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣"[4] (تشرين الثاني - نوفمبر ٦٤٣ م).

وكان عمر بن الخطّاب، إضافة إلى كل مآثره، قد سنّ قيام شهر رمضان، في السنة الرابعة عشرة للهجرة[5] ٦٢١م. وهو مَن كان إسلامه قبل الهجرة بأربع سنين[6]، وقد "حجّ جميع سني ولايته، ما عدا الأولى منها[7] حيث حجّ الناسَ

---

١ - الهَرمُزان: من أمراء الجيش الفارسيّ في معركة القادسيّة ٦٣٧، انهزم إلى خوزستان حيث قاوم العرب مقاومة عنيفة قبل أن يؤسر.

٢ - NJMANI SHIBLI, *UMAR THE GREAT,* TR. SALEM MUHAMMED (LAHORE,1957) VOL: II, P. 351.

٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٢.

٤ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩.

٥ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٤٠؛ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٤.

٦ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٧ - المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٧؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩.

نيابة عنه عبد الرحمن بن عوف*. وكان الغالب عليه: عبد الله بن عبّاس، وعثمان بن عفّان[1].

وهذا الأخير، هو الذي سيتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، وسط اضطراب للمدوّنات عن كيفيَّة اختياره.

***

خلّف عمر بن الخطّاب ستّة ذكور هم: عبد الله، عبيد الله، عبد الرحمن، عاصم، زيد، وأبو عبيد الله. إضافة إلى حفصة زوجة الرسول، وفاطمة وبنات أخر[2]. وله من أبائه إلى اليوم ذريّة.

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٣: ٤٧.

٢ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٦٥ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٠.

الفَصلُ الرَّابع

عُثمَان وأيَّامُه

تَولِيَةُ عثمَان بن عفَّان؛ النقمَة على عثمَان؛

إنجَازاتُ عُثمَان؛

الثَّورة على عُثمَان.

تولية عثمان بن عفّان

بينما يذكر مؤرّخون، أنّه "بعد أن قُتل الخليفة عمر، صلّى بالناس عبد الرحمن بن عوف*، وصلّى على الخليفة الراحل صهيب الروميّ[1]، وجعلها بعده شورى إلى ستّة، وهم: عليّ عليه السلام، وعثمان، وطلحة*، والزُّبَير[2]، وسعد بن أبي وقّاص*، وعبد الرحمن بن عوف*. وكانت الشورى بعده بثلاثة أيّام"[3]، يذكر بعضهم الآخر أنّه "لمّا طُعن الخليفة عمر" قال لابنه:

> إنّي كنت استسلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفًا، فليُردّ من مال ولْدي، فإن لم يفِ مالهم، فمال آل الخطّاب، فإن لم يفِ فمال بني عديّ، وإلاّ قريش عامّة، ولا تعدوهم...

ولمّا حضرته الوفاة اجتمع إليه الناس فقال:

---

١ ـ **صهيب بن سنان** (ت٣٨هـ/ ٦٥٩م): صحابيّ، أحد السابقين في الإسلام، كان تاجرًا في مكّة ربح مالاً وفيرًا، منعه مشركو قريش من الهجرة إلى المدينة بماله فتركه لهم كلّه وهاجر، شهد المشاهد كلّها، توفّي بالمدينة.

٢ ـ **الزُّبَير بن العوّام** (ت٣٦هـ/ ٦٥٦م): قرشيّ أسديّ، ابن عمّة النبيﷺ، اعتنق الإسلام بأوّل صباه، صحابيّ من العشرة المبشّرة، حواريّ النبيّﷺ، هاجر إلى الحبشة ثمّ المدينة، قاتل في جميع الغزوات مع النبيّﷺ، من أهل الشورى بانتخاب الخليفة، انسحب من قتال عليّ عليه السلام في الجمل، اغتاله بن جرموز وهو يصلّي.

٣ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٤٧.

إنّي قد مصَّرت الأمصار، ودوَّنت الدواوين، وأجريت العطايا، وغزوت في البرّ والبحر، فإن أهلك، فالله خليفتي عليكم، وسترون رأيكم. إنّي قد تركتكم على الواضحة، إنّما أخاف عليكم أحد رجلين: إمّا رجلاً يرى أنّه أحقّ بالملك من صاحبه فيقاتله، عليه[1]...؛ وإنّي قد قرأت في كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتّة. نِكالاً من الله، والله عليكم حكيم، فلا تهلكوا عن الرجم. وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا، ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي، فقد قرأتها في كتاب الله...

وصيّر عمر الأمر شورى بين ستّة نفر من أصحاب رسول الله: عليّ بن أبي طالب‰، وعثمان بن عفّان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبَير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقّاص، وقال: "أخرجت سعيد بن زيد لقرابته منّي، فقيل له في ابنه عبد الله بن عمر، قال: حسبُ آل الخطّاب ما تحمّلوا منها! إنّ عبد الله لم يحسن يطلّق امرأته. وأمر صهيبًا أن يصلّي بالناس حتّى يتراضوا من الستّة بواحد. واستعمل أبا طلحة زيد بن سهل الأَنصاريّ، وقال: إن رضي أربعة وخالف اثنان، فاضرب عنق الاثنَين. وإن رضي ثلاثة وخالف ثلاثة، فاضرب أعناق الثلاثة الذين ليس فيهم عبد الرحمَن. وإن جازت الثلاثة أيّام ولم يتراضوا بأحد، فاضرب أعناقهم جميعًا.. وكانت الشورى بقيّة ذي الحجة سنة ٢٣، وصهيب يصلّي بالناس، وهو الذي صلّى على عمر، وكان أبو طلحة يدخل رأسه اليهم ويقول: العجَل العجَل، فقد قرب الوقت، وانقضت المدّة[2]...".

غير أنّ المسعوديّ، يذكر في مكان آخر، أنّه بعد أن طُعن عمر، "دخل عليه ابنه عبد الله وهو يجود بنفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين استخلِف على أمّة محمّد ﷺ فإنّه

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٠ ومكان النقاط بياض في الاصل.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٥.

لو جاءك راعي إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعي لها للُمته وقلت له: كيف تركت أمانتك ضائعة؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمَّة محمّد ﷺ؟ فاستخلِف عليهم! فقال (عمر):

إن أَستخلف عليهم فقد استخلَف عليهم أبو بكر، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله ﷺ. فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه"[1].

على أيّ حال، فمن المتّفق عليه، أنّه قبل انقضاء ثلاثة أيّام تمّ اختيار عثمان بن عفّان من بين الستّة الذين قاموا بالشورى ليتولّى الخلافة الثالثة للمسلمين، بعد عمر بن الخطّاب.

وبذلك، صارت مسيرة الإسلام على مشارف مفترقات خطيرة. وشيئًا فشيئًا، ستتحوّل تلك الروح الرسوليّة الوثّابة عن الخط الذي وضعه الرسول ﷺ، لتتشعّب في تقاطعات ومنعطفات قد يكون توقّع بعضَها عمر، بنافذ بصيرته وثاقب رؤيته. ويتّضح ذلك في ما رُوي عن إبن عبَّاس[2] أنّه قال: "طرقني عمر بن الخطّاب بعد هدأة من الليل، فقال: أخرج بنا نحرس نواحي المدينة! فخرج، وعلى عنقه درّته، حافيًا، حتّى أتى بقيع الغرقد، فاستلقى على ظهره، وجعل يضرب أخمص قدميه بيده وتأوّه صعدًا. فقلت له: يا أمير المؤمنين ما أخرجك إلى هذا الأمر؟ قال: أمر الله يا ابن عبّاس!".

وإذ امتنع الخليفة عن الإفصاح عمًّا يغمّه، أسمعه ابن العباس كلامًا فحواه أنّه يعتقد بأنّ ما يغمّ عمر، إنّما هو أمر الخلافة من بعده، فقال عمر: "صدقت!" فقال له ابن

---

١ ـ المسعودي، مرجع سابق، ٣: ٦٥.

٢ ـ عبد الله بن عباس (ت٦٨هـ/ ٦٨٧م) ابن عم النبي ﷺ، لقّب "حبر الأمة"، حضر صفّين مع عليّ عليه السلام، كان سديد الرأي، روى الكثير من حديث الرسول ﷺ، حاول التوفيق بين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، كفّ بصره في آخر عمره.

العبّاس: أين أنت من عبد الرحمَن بن عـوف؟ فقـال الخليفـة: ذاك رجـل ممسـك، وهـذا الأمر لا يصلح إلاً لمُعطٍ في غير سرف ومانع في غير إقتار".

وفي تتمّة ما نُقل عن لسان ابن العبّاس:

"فقلت: سعد بن أبي وقّاص؟ قال: مؤمن ضعيف! فقلت: طلحة بن عبد اللـه؟ قـال: ذاك رجل يناول للشرف والمديح، يعطي ماله حتّـى يصـل إلـى مـال غيـره، وفيـه بـأو وكبر. فقلت: فالزبير بن العوام فهو فارس الإسلام؟ قال: ذاك يومٌ إنسان ويومٌ شيطان، وعفّةً نفس، إن كان ليكادح على المكيلة من بكرة إلى الظهر حتّى يفوته الصلاة. فقلت: عثمان بن عفّان؟ قال: إن وُلّـي حمّل ابـن أبـي معيط وبنـي أميّـة علـى رقـاب النـاس، وأعطاهم مال الله، ولئن وُلِّي لَيفعلنّ والله، ولئن فعل لتسـيرنّ العـرب إليـه حتّـى تقتلـه في بيته. ثمّ سكت... ثم قال: أمضها يا ابن عبّاس!".

أي أنّ عمر، قال لابن العبّاس، "أكمل! باستعراض الأسـمـاء"-! ثـمّ ألمـع عمـر إلـى عليّ بن ابي طالب بقوله: أترى صاحبكم (المقصود عليّ ﷺ) لها موضعًا؟

ويكمل ابن العبّاس: "فقلت: وأين يتبعَّد من ذلك مع فضله وسابقته وقرابته وعملـه؟ قـال: هـو واللـه كمـا ذكـرت ولـو وُلِّيهـم تحمّلهـم علـى منهـج الطريـق، فـأخذ المحجّـة الواضحة، إلاّ أنّ فيه خصالاً: الدعابة في المجلس، واستبداد الـرأي، والتبكيت للنـاس مع حداثة السنّ...، ثمّ قال: والله يا ابن عبّاس إنّ عليًّا ابـن عمّك لأحـقّ النـاس بهـا، ولكنّ قريشًا لا تحتمله، ولئن وُلّهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجـدون عنـده رخصـة، ولئـن فعل لينكُشنّ بيعته ثمّ ليحاربنّ![1]..."

---

١ ـ راجع اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٨.

يتّضح من ذلك تمامًا، لِمَ لَمْ يعيّن عمر خليفة له، فهو ما أراد أن يتحمّل وزر العاقبة، وهو غير مرتاح لأحد في تولّيها. وقد صدقَت في ما بعد توقّعات عمر، الذي كان آخر من دُفن في قبر الرسول ﷺ.

وإذا كان عمر بن الخطّاب، قد فضّل اتّباع خطى رسول الله ﷺ في أمر عدم تعيين الخليفة من بعده، ولم يتّبع في ذلك خطى أبي بكر، الذي عيَّن عمرَ بذاته، فذلك لقناعة منه بأنّ أحدًا لن يستطيع أن يسوس المسلمين كما يجب، وقد كثروا. ذلك على الأقلّ ممّن لا يصحّ تعيين أحد من سواهم، لاعتبارات شتّى. وأمام هذا الوضع القلق، جعل عمر الستّة الأفضل، يختارون من بينهم واحدًا بخلال ثلاثة أيّام.

لسنا ندري إن كان عمر، بثاقب بصيرته، قد أدرك أنّ خيار هؤلاء لن يقع حكمًا على الأقوى. إنَّما هذا الذي حصل فعلاً.

وقد كان الأقوى، من دون شكّ، ابن عمّ الرسول ﷺ، وصهره، ووالد حفيدَيه من ابنته فاطمة اللذَين لا أحفاد للرسول ﷺ سواهما.

بالرغم من كلّ المؤهّلات التي كان يتمتّع بها عليّ ﵇، فإنّ خيار الخمسة الآخرين، لم يقع عليه.

وما دُوِّن عمّا حصل في شأن ذلك الانتخاب، إذا صحّ التعبير، هو أنّ أحد أعضاء الشورى الستّة الذين سمّاهم الخليفة عمر حين وفاته، وأمر بأن ينتخبوا منهم خليفة بخلال ثلاثة أيّام، وهو عبد الرحمَن بن عوف الزهريّ، في بداية الاجتماع، سأل زملاءه "أن يُخرج نفسه منها على أن يختار منهم رجلاً، ففعلوا ذلك". أي أنّه اقترح ألاّ يكون مرشّحًا للخلافة، على أن يفوّضوا إليه أمر اختيار واحد من الخمسة الباقين، خليفة، فقبلوا.

"أقام عبد الرحمن ثلاثة أيام، وخلا بعليّ بن أبي طالب (ع)، فقال: لنا الله عليك، إن ولّيت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص) وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال عليّ (ع): لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص) ما استطعت. فخلا بعثمان فقال له: لنا الله عليك، إن ولّيت هذا الأمر، أن تسير فينا بكتاب الله وسنّة نبيّه (ص) وسيرة أبي بكر وعمر؟ فقال: لكم أن أسير فيكم بكتاب الله وسنّة نبيّه وسيرة أبي بكر وعمر. ثمّ خلا بعليّ (ع)، مرّة ثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، فأجابه مثل جوابه الأوّل. ثمّ خلا بعثمان، مرّة ثانية، فقال له مثل المقالة الأولى. فأجابه مثل ما كان أجابه. ثمّ خلا بعليّ (ع)، مرّة ثالثة، فقال له مثل المقالة الأولى، فقال عليّ (ع): إنّ كتاب الله وسنّة نبيّه (ص) لا يُحتاج معهما إلى أجيرَي أحد[1]. أنت مجتهد أن تزوي هذا الأمر عنّي. فخلا، للمرّة الثالثة، بعثمان، فأعاد عليه القول، فأجابه بذلك الجواب، وصفّق على يده... وخرج عثمان، والناس يهنّئونه[2]"...

لا يمكن أن يكون عبد الرحمَن بن عوف الزهريّ، قد استطاع أن يتمتّع بسلطة تعيين الخليفة، على ما لهذا الشأن من أهمّيّة، من دون تفاهم مع سائر الأعضاء، بإستثناء عليّ (ع). إلاّ أنّ كلّ هذا، يبقى من التكهّنات، ولا يمكن لرأي أن يكون فاصلاً في هذا الأمر، على ما سوف يكون له من خطورة، بلغت حدَّ انقسام الإسلام، واقتتاله.

عثمان، قرشيّ، هو الآخر، من عائلة أميّة، من تجّار مكّة الكبار، إعتنق الإسلام على يد أبي بكر. بينما كان عليّ (ع)، ثاني أو ثالث مَن اعتنق الإسلام، على يد الرسول (ص)، وهو هاشميّ، وابن أبي طالب، عمّ الرسول (ص) الذي أوى محمّدًا (ص) وربّاه

---

١ ـ أجيرَي أحد: وكالة أحد: "إن كتاب الله وسنّة نبيه لا يُحتاج معهما إلى وكالة أحد".

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٢.

يوم كان يتيمًا. ولعليّ عليه السلام، مآثر كبرى، وبطولات، وصولات وجولات، في معارك الرسول ﷺ الأولى، إبّان بدر وسواها.

جامع آخر، يجمع عثمان إلى عليّ عليه السلام، إضافة إلى قريش، والإسلام، هو أنّهما، صهرا الرسول ﷺ. وفي ما عدا ذلك، فالرجلان على طرفَي نقيض، وأبرز ما في ذلك: ضعف عثمان، وقوّة عليّ عليه السلام.

وتبدأ المشاكل، في اليوم الأوّل من ولاية عثمان، إذ ما خرج الخليفة الجديد من خلوة الشورى، وراح الناس يهنّئونه، وكان ذلك في مستهلّ محرّم سنة ٢٤ هـ. (تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ٦٤٣ م.) حتّى صعد عثمان المنبر، وجلس في أرقى درجاته في الموضع الذي كان يجلس فيه الرسول ﷺ، والذي جلس أبو بكر، الخليفة الأوّل، دونه بدرجة، احترامًا للرسول ﷺ، وجلس عمر، الخليفة الثاني، دونه بدرجتَين، اعتبارًا للرسول ﷺ ولأبي بكر.

وكان ذلك أوّل ما نفّر الناس من عثمان، حتّى إنّ بعضهم قال: اليوم وُلد الشرّ.

وأين وقفة عثمان المرتجف، المتلعثم في كلامه، على المنبر، من وقفة عمر التي تعوّدها الناس. وقد كان ذلك المديد الأصلع، الشديد الأدمة، ذا اللحية الكثّة المحنّاة، صاحب الصوت الجهوريّ، والكلمة الحديديّة الثابتة. بينما عثمان، مربوع القامة، رقيق البشرة، عظيم الكرداس، كثير شعر الرأس واللحية، وأسنانه مشدودة بالذهب.

إرتجّ عثمان على المنبر، وبقي طويلاً لا يتكلّم، ثم قال: "إنّ أبا بكر وعمر كانا يُعدّان لهذا المقام مقالاً، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام يشقّق الخطب، وإن تعيشوا فسيأتيكم الخطبة"[1]... ثمّ نزل.

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣.

النقمَـــــة

على عثمَان

طبيعيّ، أن تشعر النخبة بشيء من الخيبة، ومن سوء الظنّ فـي مـا يمكن تفسيره قول عثمان من هزءٍ بخطابة كلٍّ من أبي بكر وعمر، وبعَدْلهما.

ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحدّ، إذ خرج عثمان مساء إلى المسجد، لصـلاة العشـاء، بين يديه شمعة! فلقيه المقداد بن عمرو[1]، وقال له: ما هذه البدعة؟!

واستشرت النقمة... ومال قوم مع عليّ بن أبي طالب ﷺ، وراحوا ينتقدون عثمان يتحاملون بالقول عليه". فجثى المقداد بن عمرو على ركبتَيه داخل المسجد في المدينة وراح يتلهّف وكأنّ الدنيا كانت لـه فسُلبها، وهو يقول: واعجبًا لقريش ودفعهم هذا لأمر على أهل بيت نبيّهم ﷺ، وفيهم أوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول اللـه أعلم النـاس أفقههم في دين اللـه وأعظمهم غنـاءً في الإسلام، وأبصرهم بـالطريق، وأهداهـم صراط المستقيم، والله لقد زووها عن الهادي المهتدي الطاهر النقيّ، وما أرادوا صلاحًا للأمّة ولا صوابًا في المذهب، ولكنّهم آثروا الدنيا على الآخـرة، فبُعدًا وسحقًا قوم الظالمين"... وعندما سُئل عمّن يقصد بهذه الصفات الحميدة، قـال: "إنّـه علـيّ بن بي طالب ﷺ"[2].

هنا، حرَّضه أحدهم "لأن يقوم بهذا الأمر"، أي يبدأ انتفاضة تهدف إلى تولية عليّ ﷺ مكـان عثمـان، فقـال: "إنّ هـذا الأمـر لا يجـري فيـه الرجـل ولا الرجـلان". ولكـن

---

١ ـ المقداد بن الأسود (ت٣٣هـ/ ٦٥٣م): صحابي من الأبطال، نُسب إلى الأسود بن عبد يغوث، أحد السبعة الذين كانوا أوّل من أظهر الإسلام، هاجر إلى الحبشة، قاتل في بدر وأحد، لقّب "حبّ الله وحبّ رسوله"، توفّي بالمدينة.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣.

سرعان ما انضمّ إلى الرأي، أبو ذرّ[١]، ثم عبد الله بن مسعود[٢]، وسواهما.

وبينما كان القوم يتآلفون ضدّ عثمان، برز آخرون يحمّلون عثمان، دم الهرمزان. فإنّ الهرمزان، وهو القائد الفارسيّ الذي أُسر في معركة خوزستان، كان قد قُتل، على ما رُوي، على يد ابن عمر: عبيد الله، الذي قتل الهرمزان انتقامًا لأبيه عمر، بعد أن اغتيل على يد المولى الفارسيّ، أبي لؤلؤة. ورُوي أنّ الهرمزان، عندما أحسّ بالسيف، قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله. وكان عبيد الله قد قَتل أيضًا، انتقامًا، زوجة قاتل أبيه: أبي لؤلؤة، وابنته الطفلة. والإسلام لا يسمح بقتل مسلم بريء، وهو الهرمزان، وامرأة لا ذنب لها، وطفلة لا شأن لها في كلّ ما جرى. وإذ تولّى عثمان الخلافة، أفرج عن عبيد الله، ما أثار نقمة الموالي بشدة.

أمّا الموالي، فيذكر أحد المحقّقين المحدثين، أنّهم "أولئك الذين كانوا يعيشون بين العرب أنفسهم، ممّن دخلوا الإسلام من الفرس، جاؤوا كأسرى حرب أو كصنّاع وتجّار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام عن إيمان حقيقيّ به، إلاّ أنّ الإسلام لم يبلغ في قلوب بعضهم الآخر مبلغًا كبيرًا، بل ربّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد على هؤلاء العرب الذين مزّقوا أوصال بلادهم، ووطئوا بأقدامهم سيادتها. وكان هؤلاء الحاقدون من أوّل أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر قد جاء على يد واحد منهم، فإنّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك، أيّام عثمان،

---

١ ـ **أبو ذرّ الغفاري** (ت٣٢ هـ/ ٦٥٢م): هو جندب بن جنادة، صحابيّ من أقدم المؤمنين، اشتهر بتقواه وتقشّفه، روى الكثير من أحاديث الرسول ﷺ، عاش في بلاد الشام بعد وفاة النبيّ ﷺ فاجتمع إليه الفقراء والصعاليك فكان يروي لهم أحاديث الرسول بذمّ الأغنياء، نعى على معاوية الترف والإثراء والإسراف بمال المسلمين فأعاده هذا إلى المدينة ثمّ نفاه الخليفة عثمان إلى الربدة فمات فيها.

٢ ـ لعلّه **عبد الله بن جعفر** (ت٨٠هـ/ ٧٠٠م): صحابيّ، وُلد في الحبشة، إبن أخي عليّ، جاء مع أبيه إلى المدينة، لقّب ببحر الجود لكرمه، كان مع عليّ في يوم صفّين، مات بالمدينة.

ثمّ ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر بالإيمان والشدّة فيه... كان وراءَها نفس هؤلاء الحاقدين[1]"...

وإذ كثر المطالبون بالاقتصاص من قاتل الهرمزان، صعد عثمان إلى المنبر، فخطب بالناس قائلاً: "إنّي وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر". فقام المقداد بن عمرو فقال: "إنّ الهرمزان مولّى لله ولرسوله ﷺ، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله ﷺ". قال عثمان: "فننظر وتنظرون". أي ما معناه: سنرى! ثمّ أخرج عثمان عبيد الله من المدينة إلى الكوفة، وأنزله دارًا، فنُسب المكان إليه: كويفة ابن عمر[2].

لم تقتصر عوامل النقمة الشعبية ضدّ عثمان، على كلّ هذا. فإذا كان إقصاء عليّ بن ابي طالب عليه السلام عن الخلافة قد أثار نقمة الهاشميّين من قريش والمقرّبين منهم، وقضيّة الهرمزان قد أثارت نقمة الموالي، وبعض تصرّفات عثمان، لجهة اعتلائه مرقاة الرسول ﷺ في المسجد، ولجهة بدعة حمل الشمعة بخلال الصلاة، إضافة إلى عدم قدرته على التفوّه، قد أثارت المتديّنين... فإنّ إجراءات وتصرّفات أخرى من قبل عثمان، قد أثارت غير هؤلاء أيضًا ضدّه. منها تقريبه بعض مَن كان الرسول ﷺ قد أبعدهم عن المدينة، ومنها إبعاده مَن كان لهم شأن في المدينة، ومنها ما نُسب إليه من إثراء غير مشروع، ومن تصرّف بأموال بيت المسلمين، ومن إغداق هذا المال على أقربائه. أضف إلى ذلك ظهور الغنى الفاحش في أوساط الذين ولاّهم، وابتعاد بعضهم عن سنّة الله، ورسوله ﷺ". وسوف يقتصر العرض على نماذج من كلّ هذه الاحوال.

---

١ ـ مظهر سليمان، قصة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٢.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٣ ـ ١٦٤.

فقد حضر مجلس عثمان ذات يوم، كعب الأحبار [1] وأبو ذرّ الغفاري *، وهو صحابيّ من أقدم المؤمنين، اشتهر بتقواه وتقشّفه. وفي هذا المجلس، قال عثمان: "أرأيتم من زكا ماله هل فيه حقّ لغيره؟" فقال كعب: "لا يا أمير المؤمنين"، فدفع أبو ذرّ في صدر كعب وقال: "كذبت يا ابن اليهودي"! ثم تلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2]؛ فقال عثمان:"أترون بأسًا أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننفقه في ما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟" فقال كعب: "لا بأس بذلك"؛ فرفع أبو ذرّ العصا فدفع بها في صدره وقال: "يا ابن اليهوديّ ما أجرأك على القول في ديننا؟". فقال عثمان له ـ لأبي ذرّ ـ : "ما أكثر أذاك لي! غيِّب وجهك عنِّي فقد أذيتني"[3].

وإذ طرد عثمان أبا ذرّ، كان لا بدّ من حدوث تململ من قبل المؤمنين. فانتقل أبو ذرّ إلى بلاد الشأم، حيث اجتمع إليه الفقراء، وكان يروي لهم أحاديث الرسول ﷺ بذمّ الأغنياء، ونعى على معاوية الترف والإسراف بمال المسلمين. "فكتب معاوية إلى عثمان: إن أبا ذرّ تجتمع إليه الجموع ولا آمَن أن يفسدهم عليك؛ فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك". وهكذا، عرف معاوية كيف لا يحمّل نفسه وزر أبي ذرّ، إذا أمر الخليفة بإرسال الأخير إليه، فجعله معاوية "على بعير عليه قَتَب [4] يابس، معه خمسة

---

١ ـ **كعب الأحبار** (ت ٣٢ هـ/ ٦٥٢م): هو أبو اسحق كعب بن مانع الملقَّب بكعب الأحبار، من أقدم رواة الحديث، كان يهوديًا يمنيًا فاعتنق الاسلام وقدم المدينة في أيّام عمر، ثمّ خرج إلى الشام فاستصفاه معاوية وجعله من مستشاريه، توفّي في حمص.

٢ ـ البقرة، ٢: ١٧٧. ٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٨٣. ٤ ـ **القَتَب**: ما يجعل على ظهر البعير كالسرج: الرّحل.

من الصقالبة[1]، يطردون به، حتّى أتوا به المدينة، وقد تسلّخت بواطن أفخاذه وكاد يتلف؛ فقيل له: "إنّك تموت من ذلك!". فقال:"هيهات لن أموت حتّى أُنفى". وذكَر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولّى دفنه؛ فأحسن إليه عثمان في داره أيّامًا، ثم أُدخل عليه، فجثى على ركبتَيه وتكلّم بأشياء وذكر الخبر في وِلْد أبي العاص: إذا بلغوا ثلاثين رجلاً اتّخذوا عباد الله خولاً، ومرّ في الخبر بطوله وتكلّم بكلام كثير... وكان في ذلك اليوم قد أُتي عثمان بتركة عبد الرحمَن بن عوف الزهريّ من المال، فنُثرت البِدَر حتّى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: "إنّي لأرجو لعبد الرحمَن خيرًا لأنّه كان يتصدّق ويقري الضيف، وترك ما ترون". فقال كعب الأحبار: "صدقت يا أمير المؤمنين". فشال أبو ذرّ العصا فضرب بها رأس كعب ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال: "يا ابن اليهوديّ تقول لرجل مات وخلف هذا المال إنّ الله أعطاه خير الدنيا والآخرة وتقطع على الله بذلك، إنّما سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما يسرّني أن أموت وأدع ما يزن قيراطًا". فقال له عثمان: "وارِ عنّي وجهك!". قال (أبو ذرّ): "أسير إلى مكّة؟". فقال: "لا والله!". قال: "فتمنعني من بيت ربّي أعبده فيه حتّى أموت؟". قال (عثمان): "إي والله!". قال:"فإلى الشأم؟". قال: "لا والله!" - قال: "البصرة؟". قال: "لا والله فاختر غير هذه البلدان". قال: لا والله لا أختار غير ما ذكرت لك ولو تركتني في دار هجرتي ما أردتُ شيئًا من البلدان فسيّرني حيث شئت"! قال (عثمان): فإنّي مسيّرك إلى الربَذَة"[2]؛ قال: "الله أكبر! صدق رسول الله ﷺ قد أخبرني

---

١ - الصقالبة: SLAVES، هم عند مؤرّخي العرب الشعوب السلافيّة القاطنة بين جبال أورال والبحر الأدرياتيكيّ في أوروبّا الشرقيّة والوسطى، وهم فرعان: صقالبة الشمال أيِ الروس والروس البيض والبولونيّون، وصقالبة الجنوب اليوغوسلافيّون أي الصرب والكرواتيّون والسلوفاكيّون والبلغاريّون، وأطلق العرب اسم الصقالبة على جماعة من العبيد المجنّدين في الخدمة العسكريّة وهم إما من الصقالبة الأصليّين أو من غيرهم من العبيد القادمين من الغرب.

٢ - الربَذَة: من قرى المدينة على طريق الحجاز، خربت ٣١٩ هـ باتّصال الحروب بين أهلها وبين ضرية الذين أنجدهم القرامطة.

بكلّ ما أنا لاقٍ!". قال عثمان: "وما قال لك؟". قال: "أخبرني بأنّي أمنع عن مكّة والمدينة وأموت بالربذة ويتولّى دفني نفر يرِدُون من العراق إلى الحجاز"...

وبُعث أبو ذرّ إلى جمل له فحمّل عليه امرأته (وقيل ابنته) وأمر عثمانُ أن يتحاماه الناس حتّى يسير إلى الربذة؛ فلمّا طلع عن المدينة ومروان[1] يسيّره عنها، طلع عليهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعه إبناه الحسن والحسين، وعقيل* أخوه، وعبد الله بن جعفر*، وعمّار بن ياسر[2]؛ فاعترضه مروان بقوله: "يا عليّ، إنّ أمير المؤمنين نهى الناس أن يصبحوا أبا ذرّ ويشيّعوه، فإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتك"؛ فحمل عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالسوط وضرب بين أذنيّ ناقة مروان وقال: "تنحَّ نحّاك الله إلى النار!"، ومضى مع أبي ذرّ فشيّعهُ ثم ودّعه وانصرف؛ فلمّا أراد عليّ عليه السلام الانصراف بكى أبو ذرّ وقال: "رحمكم الله أهل البيت إذا رأيتك يا أبا الحسن ووِلْدك ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم"... فشكا مروان إلى عثمان ما فعل به عليّ عليه السلام فقال عثمان: "يا معشر المسلمين من يعذرني من عليّ؟ ردّ رسولي عمّا وجّهته له وفعل، والله لنعطينّه حقّه!". فلمّا رجع عليّ عليه السلام إستقبله الناس فقالوا: "إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذرّ". فقال عليّ عليه السلام: "غَضَبَ الخيلِ على اللُجُم"؛ ثمّ جاء؛ فلمّا كان بالعشيّ جاء إلى عثمان فقال له: "ما حملك على ما صنعت بمروان ولمَ اجترأت عليّ ورددت رسولي وأمري؟". قال: "أمّا أمرك فلم أردّه". فقال عثمان: "أولم يبلغك أنّي قد

---

١ ـ **مروان بن الحكَم (٢ ـ ٦٥هـ/ ٦٢٣ ـ ٦٨٥م)**: دافع عن عثمان واشترك في معركة الجمل، الخليفة الأمويّ الرابع، به انتقلت الخلافة من السفيانيّين إلى المروانيّين، بويع بالخلافة في الجابية ثمّ في دمشق، انتصر على القيسيّين أنصار ابن الزبير في معركة مرج راهط شمالي دمشق واستولى على مصر، ضبط المقاييس والموازين، مات بالطاعون في دمشق.

٢ ـ **عمّار بن ياسر (ت٣٧هـ/ ٦٥٧م)**: صحابيّ من المسلمين الأوائل وممّن عُذّب لإسلامه، أبوه ياسر وأمّه سميّة أوّل شهيدَين في الإسلام ماتا في التعذيب، كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، هاجر إلى الحبشة والمدينة وشهد جميع المشاهد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، من أخلص أنصار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، شهد معه الجمل وصفّين حيث قتل وهو ابن أربع وتسعين سنة.

نهيت الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟". فقال عليّ عليه السلام: "أوكُلّ ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحقّ في خلافه اتّبعنا فيه أمرك؟ لعمر الله لا نفعل!". قال عثمان: "أقِدْ[1] مروان". قال: "وممَّ أقيده؟" قال: "ضربت بين أذني راحلته وشتمته فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك". قال عليّ عليه السلام: "أمّا راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل، وأمّا أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنّك مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاّ حقًّا!". فقال عثمان: "ولِمَ لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه"؛. فغضب عليّ عليه السلام وقال: "ألي تقول هذا القول وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك وأمّي أفضل من أمّك وهذه نبلي قد نثلتها وهلمَّ فأَنثِل نبلَك!"؛ فغضب عثمان واحمرّ وجهه فقام ودخل داره وانصرف عليّ عليه السلام؛ فاجتمع إليه أهل بيته ورجال من المهاجرين والأنصار؛ فلمّا كان من الغد واجتمع الناس إلى عثمان شكا إليهم عليًّا عليه السلام وقال: "إنّه يعيبني ويظاهر من يعيبني"، يريد بذلك أبا ذرّ وعمّارًا؛ فدخل الناس حتّى أصلحوا بينهما وقال عليّ عليه السلام: "والله ما أردت بتشييعي أبا ذرّ إلاّ الله تعالى"[2].

مَن هو عمّار، الذي قصده عثمان بقوله إنّ عليّا يظاهره على مَن يعيبه؟

هو عمّار بن ياسر، صحابيّ من المسلمين الأوائل، وممَّن عُذِّب لإسلامه. أبوه ياسر وأمّه سميّة، أوّل شهيدَين في الإسلام، ماتا في التعذيب. كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ، هاجر إلى الحبشة والمدينة وشهد جميع المشاهد مع النبيّ.

"وقد كان عمّار، حين بويع عثمان، بلغه قول أبي سفيان * في دار عثمان عُقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أميّة؛ فقال: (يومذاك) أبو سفيان:

---

١ ـ بمعنى الاقتداء. أي فَلْيكن لمروان منك مثلما كان لك منه.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٣ ـ ٨٦.

"أفيكم أحدٌ من غيركم؟" وقد كان عَميَ... قالوا: "لا"، قال: "يا بني أميّة تلقّفوا تلقّفَ الكرة. والذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرَنّ إلى صبيانكم وراثةً!" فانتهره عثمان وساءَه ما قال. ونُمي هذا القول إلى المهاجرين والأنصار وغير ذلك من الكلام؛ فقام عمّار بن ياسر في المسجد فقال: "يا معشر قريش، أمّا إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيّكم ﷺ هاهنا مرّة وهاهنا مرّة فما أنا بآمن أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله"... وقام المقداد* فقال: "ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيّهم ﷺ". فقال له عبد الرحمَن بن عوف*: "وما أنت وذلك يا مقداد؟". فقال: "إنّي والله لأحبّهم لحبّ رسول الله ﷺ إيّاهم وإنّ الحقّ معهم، وفيهم يا عبد الرحمَن أعجب من قريش وإنّما تطوّلهم على الناس بفضل أهل هذا البيت وقد اتّفقوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم، وأيمُ الله يا عبد الرحمَن لو أجد على قريش أنصارًا لقاتلتهم كقتالي إيّاهم مع رسول الله ﷺ يوم بدر!"[1].

وفيما هذه الأسباب تتفاعل، كانت أسباب من نوع آخر، تزيد النقمة على عثمان، الذي "كتب إلى الحكَم بن أبي العاص أن يقدم عليه. وكان الحكم طريد رسول الله ﷺ، وقد كان عثمان لمّا وُلّي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أميّة إلى أبي بكر، فسألوه في الحكَم، فلم يأذن له، فلمّا وُلّي عمر فعلوا ذلك، فلم يأذن، فأنكر الناس إذن عثمان له. وقال بعضهم: رأيت الحكَم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فَزَر خلق، وهو يسوق تيسًا، حتّى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال من معه، ثم خرج وعليه جبّة خزّ وطيلسان"[2].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٦ ـ ٨٧.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤.

أمرٌ كهذا، لم يكن سهلاً على أهل المدينة تقبُّله، اللهمّ باستثناء بني أميّة. وما زاد في النقمة، تحوّل نهج الخلافة الذي اتّسم بالتقشّف أيّام الرسول ﷺ والخليفتَين: أبي بكر وعمر، إلى النقيض تمامًا. وشاعت الأخبار حول ذلك.

لقد كان عثمان "في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد"[١]. بمعنى آخر، كان مبذِّرًا. بينما كان عمر، قد حدّد بأنّ خليفة المسلمين "يجب أن يكون مُعطيًا في غير سرفٍ ومانعًا في غير إقتار...". وقد صدقت توقّعات عمر، بأنّه "إذا وليَ عثمان بن عفّان، حمل ابن أبي معيط وبني أميَّة على رقاب الناس، وأعطاهم مال الله، ولئن ولّي ليفعلنّ والله، ولئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتّى تقتله في بيته[٢]"...

في الواقع، سلك عثمان كما توقّع عمر، "وسلك عمّاله وكثير من أهل عصره طريقته، وتأثّروا به في فعله؛ فقد بنى عثمان داره في المدينة وشيّدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجنانًا وعيونًا بالمدينة؛ وذكر عبد الله بن عُتبة أنّ عثمان يوم قُتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحُنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلّف خيلاً وإبلا كثيرة... وفي أيّام عثمان[٣]، إقتنى جماعة من الصحابة الدور والضياع، منهم الزَبير بن العوام الذي بنى داره بالبصرة... وابتنى أيضًا دورًا بالكوفة ومصر والإسكندريّة، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول...، وبلغ ثمن مُلك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس وألف عبد وأمة وخططًا بحيث ذكرنا من الأمصار... وكذلك طلحة بن عبيد الله التيميّ ابتنى داره بالكوفة

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٦.

٢ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ص١٥٨.

٣ ـ راجع مقدّمة ابن خلدون.

في الكناسة المشهورة في هذا الوقت بدار الطلحيّين، وكانت غلّته من العراق في كلّ يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك. وبناحية الشراة أكثرها ممّا ذكرنا؛ وشيّد داره بالمدينة وبناها بالجصّ والآجرّ والساج. وكذلك عبد الرحمَن بن عوف الزهريّ ابتنى دارة ووسّعها، وكان على مربطه مائة فارس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم؛ وبلغ بعد وفاته الرُّبع من ماله أربعة وثمانين ألف دينار... وابتنى سعد بن أبي وقّاص داره بالعقيق فرفع سمكها ووسّع فضاءَها وجعل على أعلاها شرّافات. وقد ذكر سعيد بن المسيّب أن زيد بن ثابت، حين مات، خلّف من الذهب والفضّة ما كان يُكسر بالفؤوس، غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار... وابتنى المقداد داره بالمدينة في أعلاها شرّافات وصيّرها مجصّصة الظاهر والباطن؛ ومات يعلى بن مُنية وخلّف خمسمائة ألف دينار وديونًا على الناس وعقارات وغير ذلك من التركة، ما قيمته ثلاثمئة ألف دينار؛ وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيما تُملّك من الأموال في أيّامه (عثمان) ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطّاب بل كانت جادّة واضحة وطريقة بيّنة؛ وحجّ عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستّة عشر دينارًا وقال لولده عبد الله: "قد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا"[1].

إضافة إلى كلّ هذا، روى بعضهم "أنّ عثمان زوّج ابنته من مروان بن الحكَم، وأمر له بخُمس غنائم غزو أفريقيا التي بلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار...؛ وزوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد، وأمرَ له بستمائة ألف درهم، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة...؛ وحدّث أبو إسحاق عن عبد الرحمَن بن يسار قال: رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاها عثمان، فقال له: إدفعها إلى الحكَم بن أبي

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٦ ـ ٧٧.

العاص؛ وكان عثمان إذا أجاز أحدًا من أهل بيته بجائزة جعلها فرضًا من بيت المال"، وعندما اعترض خازن بيت المال على هذا، وطالب الخليفة بردّ هذه الأموال إلى بيت المسلمين، جعل عثمان "يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك إن شاء الله، فألحّ عليه، فقال: إنّما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت. فقال: كذبت والله! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك، إنّما أنا خازن المسلمين. وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال: أيُّها الناس زعم عثمان أنّي خازن له ولأهل بيته، وإنّما كنت خازنًا للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالك. ورمى بها، فأخذها عثمان، ودفعها إلى زيد بن ثابت"[1].

عند مقتل الخليفة الأصيل، عمر بن الخطّاب، كان سعد بن أبي وقّاص* على الكوفة (وقيل المغيرة) وأبو موسى الأشعريّ[2] على البصرة، وعمير بن سعد الأنصاريّ على حمص، ومعاوية بن أبي سيفان على بعض الشأم، وعمرو بن العاص على مصر، وزياد بن لبيد البياضيّ على بعض اليمن، وأبو هريرة على عُمان، ونافع بن الحارث على مكّة، ويعلى بن منية التميميّ على صنعاء، والحارث بن أبي العاص الثقفيّ على البحرين، وعبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد[3].

بدأ عثمان تغييراته على هذا الصعيد، بعزل عمرو بن العاص، عن ولاية مصر، وولّى مكانه عبد الله بن أبي سرج. فكان ذلك سبب العداوة بين عثمان وعمرو.

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٦، ١٦٨ ـ ١٦٩.

٢ ـ أبو موسى الأشعري (ت ٤٤ هـ/ ٦٦٥م): صحابيّ، أحد الحكَمين مع عمرو بن العاص اللذَين رضي بهما عليّ ﷺ ومعاوية في تحكيم اذرح بعد صفّين، ارتدّ بعد التحكيم إلى الكوفة وفيها توفّي.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦١.

كان ذلك سنة ٢٦ هـ. (٦٤٦ م.) ولم يكن قد مرّ على ولاية عثمان سنتان. وفي السنة التالية، ولّى الوليد بن عقبة بن أبي معيط[١] الكوفة مكان سعد. وصلّى (الوليد) بالناس الغداة، وهو سكران، أربع ركعات، ثم تهوّع في المحراب، والتفت إلى مَن كان خلفه، فقال: أزيدكم؟ ثمّ جلس في صحن المسجد، وأتى بساحر يدعى "بطروى" من الكوفة، فاجتمع الناس إليه، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها، ويعمل أعاجيب. فرآه جندب بن كعب الآزديّ، فخرج إلى بعض الصياقلة[٢]، فأخذ منه سيفًا ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتّى ضرب عنقه، ثم قال له: أحيِ نفسك، إن كنت حاذقًا! فأخذه الوليد، فأراد أن يضرب عنقَه، فقام قوم من الآزد، فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا. فصيّره في الحبس. وكان يصلّي الليل كلّه، فنظر إليه السجّان، وكان يُكنّى أبا سنان، فقال: "ما عذري عند الله إن حبستك علّ الوليد يقتلك؟" فأطلقه، فصار جندب إلى المدينة، وأخذ الوليد أبا سنان فضربه مائتَي سوط، فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة ابن اليمان، والأشعث بن قيس، وكتبوا إلى عثمان مع رسلهم، فعزله وولّى سعيد ابن العاص مكانه. فلمّا قدم الوليد قال عثمان: مَن يضربه؟ فأحجم الناس لقرابته، وكان أخًا لعثمان لأمّه، فقام عليّ فضربه؛ ثمّ بعث به عثمان على صدقات كلب وبلقين[٣]... ولمّا دخل الوالي الجديد سعيد بن العاص الكوفة أبى أن يصعد المنبر إلاّ بعد "غسله من نجس الوليد ورجسه"[٤].

---

١ ـ الوليد بن عقبة بن أبي معيط (ت٦١هـ/ ٦٨٠ م): كنوته أبو ذهب، أخو عثمان بن عفّان لأمّه، من فتيان قريش وشعرائهم، أسلم يوم فتح مكّة، مات بالرقّة.

٢ ـ **الصياقلة**: جمع صيقلي، أي صانع السيوف.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ ـ ١٦٥.

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٠.

غير أنّ سعيدًا هذا، ما لبث أن استبدّ بالأموال، ما جعل مالك بن الحارث النخعيّ، الأمير الشاعر الملقّب بالأشتر، يخرج إلى الخليفة عثمان في سبعين راكبًا من أهل الكوفة، "فذكروا سوء سيرة سعيد وسألوه عزله عنهم؛ فمكث الأشتر وأصحابه أيّامًا لا يخرج إليهم من عثمان في سعيد شيء".

وبينما كان وفد الكوفة في المدينة، قدم إلى المدينة عدد من ولاة الأمصار، ولا يذكر لنا التاريخ ما هي المناسبة التي جعلت هؤلاء يجتمعون إلى عثمان في الوقت نفسه، ومنهم: عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشأم، وعبد الله بن عامر من البصرة، إضافة إلى سعيد بن العاص نفسه، الذي قدم من الكوفة.

في هذه الأثناء، كتب إلى الخليفة عدد من الولاة الذين في باقي الأمصار، يشكون "كسر الخراج وتعطيل الثغور".

في خضمّ هذه النقمة، جمع عثمان ولاته، وبعد عرض الحال، سألهم: "ما ترون؟" فكان معاوية أوّل المتحدّثين، وقد اكتفى بالدلالة على أن لا مشكلة في ما يتعلّق بولايته شخصيًّا، إذ قال "أمّا أنا فراضٍ بي جندي". إلاّ أنّ بعضهم، أدلى بدلوه حول موضوع الكوفة، ومن جملة هؤلاء، عبد الله والي مصر، الذي صرّح بأنّه "ليس بكثير عزل عامل للعامّة وتولية غيره". هذا يعني أن لا بأس من الاستجابة إلى مطالبة أهل الكوفة بتنحية سعيد بن العاص. إلاّ أن سعيدًا، الذي كان حاضرًا، أشار إلى الخليفة بأنّه إذا استجاب لهذا المطلب "كان أهل الكوفة هم الذين يولّون ويعزلون". ثمّ اقترح على الخليفة أن يجهّز هؤلاء في الحروب، حتّى يتلهّوا عن "الأحاديث والخوض في المسجد". وعندما بلغ الأشتر وأهل الكوفة عمّا يجري، عاد الأشتر، بتشجيع من طلحة والزبير، إلى الكوفة قبل أن يعود سعيد، وصعد الأشتر "المنبر، وسيفه في عنقه، ثم

وضعه عنه، وقال: أمّا بعد، فإنّ عاملكم الذي أنكرتم عداه وسوء سيرته قد رُدّ عليكم وأُمر تجهيزكم في البعوث فبايعوني على أن لا يدخلها".

وعلى هذا الأساس، بايع الأشتر عشرةُ آلاف من أهل الكوفة. وبعد مبايعته، منع سعيدًا من دخول الكوفة، وكتب للخليفة: "إنّا والله ما منعنا عاملك الدخول لنُفسد عليك عملك، ولكن لسوء سيرته فينا وشدّة عذابه، فابعث إلى عملك من أحببت". أمام هذا الواقع، كتب عثمان إلى أهل الكوفة: "أنظروا مَن كان عاملكم في أيّام عمر بن الخطّاب فولّوه". فنظروا، فإذا هو أبو موسى الأشعريّ، فولّوه[1].

قبل ذلك التاريخ، كان عثمان قد "عزل أبا موسى الأشعريّ (عن البصرة) وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز، وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلمّا بلّغ أبو موسى ولاية عبد الله بن عامر، قام خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيّه ﷺ ثم قال: "قد جاءكم غلام كثير العمّات والخالات والجدّات في قريش، يفيض عليكم المال فيضا"[2].

إنجَازاتُ عُثمَـان

كانت الإنجازات التي حقّقها عثمان محدودة بالقياس إلى إنجازات الخليفة الذي سبقه. لذلك لم تكن أعمال الخليفة الثالث بارزة لتغطّي على أسباب الثورة.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٠ ـ ٨١.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٦.

أمّا تلك الإنجازات، فيمكن تلخيصها في سطور.

ففي السنة الأولى من ولايته، وكان قد مضى ٢٤ سنة على الهجرة (٦٤٤م) إفتتح المغيرة بن شعبة[1] همذان، وكتب إلى عثمان أنّه دخل الريّ وأنزلها المسلمين. وكانت الريّ قد فُتحت في حياة عمر؛ وقيل لم تفتح، ولكنّها كانت محاصرة[2].

وفي السنة التالية (٦٤٥م) "إنتفضت الإسكندريّة، وحاربهم عمرو بن العاص، حتّى فتحها وسبى الذراري، ووجّه بهم إلى المدينة، فردّهم عثمان إلى ذمّتهم الأولى...".

"ووسّع عثمان في المسجد الحرام، وزاد فيه (٦٤٦م) وابتاع من قوم منازلهم، وأبى آخرون، فهدّمت عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصاحوا بعثمان، فأمر بهم للحبس. وقال: ما جرّأكم عليّ إلاّ حلمي، وقد فعل عمر، فلم تصيحوا"[3]... كذلك جدّد أنصاب الحرم[4]. وفي السنة نفسها، افتتح عثمان بن أبي العاص[5] الثقفيّ سابور.

وفي السنة الثالثة من عهده (٦٤٧م) "أغزى عثمان الناس أفريقيا، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح... وكثرت الغنائم حتّى بلغت ألفَي دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين ألف دينار...؛ كما افتتح معاوية قبرس...وبعد سنتَين وسّع مسجد الرسول ﷺ.

---

١ ـ المغيرة بن شعبة (ت٥٠ هـ/ ٦٧٠م) ثقفيّ، من دهاة العرب، صحابيّ، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشام وفارس، ولاّه عمر البصرة والكوفة، عزله عثمان، ثم ولاّه معاوية الكوفة، شدّد التنكيل بشيعة عليّ عليه السلام، كان مزواجًا مطلاقًا.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ ـ ١٦٥.

٣ ـ كان عمر بن الخطّاب قد وسّع المسجد الحرام على حساب هدم بعض المنازل، إلاّ أن ذلك تمّ بالتراضي.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٤ ـ ١٦٥.

٥ ـ **عثمان بن أبي العاص** (ت٥١ هـ / ٦٧١م): صحابيّ من أهل الطائف، أسلم في وفد ثقيف، فاستعمله النبيّ ﷺ على الطائف، ولاّه عمر عُمان والبحرين، له فتوح وغزوات بالهند وفارس، توفّي بالبصرة.

وفي السنة التالية (٦٥٠م) إفتتح عبد الله بن عامر[1] نيسبور، وأبرشهر، وطوس، ومرو الروذ، والطالقان، والفاريات، وطخارستان، وسرخس، وغيرها من البلدان الفارسيّة. كما فتح حبيب بن مسلمة[2] بعض أرمينيا وتولّى عليها"[3].

وسنة ٣١ هـ / ٦٥٢ م. "أغزى عثمان جيشًا، أميرهم معاوية، على الصائفة، فبلغوا إلى مضيق القسطنطينيّة، وفتحوا فتوحًا كثيرة. وصيّر عثمان إلى معاوية غزو الروم، على أن يوجّه مَن رأى إلى الصائفة. فولّى معاوية سفيان بن عوف الغامدي فلم يزل عليها أيّام عثمان"[4].

ومن إنجازات عثمان، أنّه "جمع القرآن وألّفه، وصيّر الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السُّور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتّى جُمعت، ثمّ سلقها بالماء الحارّ والخلّ؛ وقيل أحرقها، فلم يبقَ مصحف إلاّ فعل به ذلك خلا مصحف ابن مسعود[5]. وكان بن مسعود بالكوفة، فامتنع عن أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، وكتب إليه عثمان: "أن أشخِصْه، إنّه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمّة فسادًا". فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: "إنّه قد قدمت عليكم دابّة سوء".

---

١ ـ **عبد الله بن عامر القرشي** (ت نحو ٥٩ هـ / ٦٧٩ م): أمير فاتح من الولاة، وُلد وتوفّي بمكّة، اشترك في فتوح فارس وحاز أموالاً كثيرة، ولاّه عثمان البصرة عندما كان عمر في الخامسة والعشرين، فأحسن التدبير والانشاء، التزم جانب عائشة مخالفة لعليّ، ولاّه معاوية البصرة مرة ثانية ثمّ صرفه عنها فأقام في المدينة.

٢ ـ **حبيب بن مسلمة** (سنة ٤٢ هـ/ ٦٦٢م): فهريّ قرشيّ، قائد من كبار الفاتحين، ولاّه عثمان على آذربيجان، كان مواليًا لمعاوية، رافقه في صفّين، ولّي أرمينيا وتوفّي فيها.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٦٨.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٣: ١٧٠.

٥ ـ **عبد الله بن مسعود** (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢م): صحابيّ هُذلي، خدم النبيّ ﷺ مدّة حياته، سادس مَن أسلم، أوّل مَن جهر بالقرآن في مكّة، هاجر إلى الحبشة. أحد المبشّرين بالجنّة، ممّن أتقنوا تلاوة القرآن، روى عن النبيّ ﷺ.

فكلّمه ابن مسعود بكلام غليظ فأمَر به عثمان، فجرّ برجله حتّى كُسر له ضلعان، فتكلّمت عائشة، وقالت قولاً كثيرًا".

وبعث عثمان، بعد ذلك، بالمصاحف إلى الأمصار... وأمر الناس أن يقرأوا على نسخة واحدة... وكان سبب ذلك أنّه بلغه أنّ الناس يقولون: قرآن آل فلان، فأراد أن يكون نسخة واحدة، وقيل: إنّ ابن مسعود كان كتب بذلك إليه، فلمّا بلغه أنّه يحرّق المصاحف، قال: "لم أرد هذا". وقيل كتب إليه بذلك حذيفة بن اليمان[1]. واعتلّ ابن مسعود، فأتاه عثمان يعدوه، فقال له: "ما كلام بلغني عنك؟". قال: "ذكرت الذي فعلته بي، إنّك أمرت بي فوُطىء جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي". قال: "لإنّي أقيدك من نفسي فافعل بي مثل الذي فُعل بك". قال: "ما كنت بالذي أفتح القصاص على الخلفاء". قال: "فهذا عطاؤك، فخذه". قال: "منعتنيه وأنا محتاج إليه وتعطينيه وأنا غنيّ عنه؟ لا حاجة لي به". فانصرف. وأقام ابن مسعود مغاضبًا لعثمان حتّى توفّي"[2].

هذا جلّ ما يذكره المؤرّخون عن إنجازات عثمان. مع كلّ ما قد رافق تلك الإنجازات من إجراءَت كانت تساهم في نقمة الرعيّة، ممّا زاد في طين التململ، بلّة. ولن يطول الوقت حتّى يتحوّل ذلك التململ، إلى ثورة... وهي، دون شك، الثورة الأولى في الإسلام.

---

١ ـ حذيفة بن اليمان (ت٣٦هـ / ٦٥٦م): صحابيّ من الولاة الفاتحين، ولاّه عمر على المدائن فتغلّب على الفرس في نهاوند ٦٤٢، غزا همذان والري، توفّي بالمدائن.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٠ ـ ١٧١.

الثـــــورة
على عُثمَان

ليس بوسْع الباحث في خلفيات الثورة على الخليفة الثالث: عثمان بن عفّان، إلاّ أن يجد ما كان لمروان بن الحكَم من مسؤوليّة في رجرجة وضع الخليفة الذي كان قرّب مروانَ إليه، وجعله مستشاره الأوّل، إلى أن أصبح لمروان تأثير واضح في مواقف عثمان وتصرّفاته. حتّى إنّ بعض مواقف عثمان، تنمّ عن حبّ ومعزّة لمروان، واضحَي المعالم. فبالإضافة إلى أنّ عثمان قد أزوج مروانَ ابنته، فهو كان ابن عمّه: الحكَم بن العاص، الذي كان نفاه الرسول ﷺ إلى الطائف، إلاّ أنّ عثمان ردّ طريد الرسول، الحكَم، إلى المدينة، بعد أن ملك زمام الحكم، وأكرمه، ومنحه الهبات.

وبمجرّد أن يكون مروان، إبنَ طريد الرسول ﷺ، فهو لم يكن محبوبًا من المسلمين عامّة. أضف إلى ذلك ما كان يتّصف به مروان من مكر، وقساوة، وما كان يخطّطه للوصول إلى الخلافة يومًا. وهذا ما سوف يحقّقه فعلاً في يوم من الأيّام، عندما سيصل... وبوصوله سينقل الخلافة من السفيانيّين إلى المروانيّين. إلاّ أنّ ذلك الحدث لا يزال بعيدًا، يفصل بينه وبين اليومِ الذي نحن بصدده سبع وعشرون عامًا.

وإذا كان المؤرّخون يحكمون على مروان، كلّ بحسب انتمائه، فيقسو الشيعة عليه كما لا يفعل السنّة، فإنّهم يُجمعون على أنّ عثمان كان ضعيف الشخصيّة، وعلى أنّ مروان كان له تأثير واضح عليه.

عندما تسنّم عثمان بن عفّان كرسيّ الخلافة في العام الرابع والعشرين للهجرة، كان الإسلام قد غدا مشروع أمبراطوريّة، ولم يعد موضوع تدبير الأمور مقتصرًا على مكّة والمدينة وبعض الجزيرة كما كان في عهد الخليفة الأوّل: أبي بكر. فإنّ الخليفة الثاني: عمر بن الخطّاب، أورث خليفته مشروع أمبراطوريّة ضمّت، إلى الجزيرة:

بلاد الشأم وفلسطين وأمصار مصر وأرض العراق وبعضًا من فارس. وإذ كان الإسلام في بداية ظهوره، والمسلمون، بعضهم أسلم عن إيمان، وبعضهم عن مصلحة، وبعضهم لأسباب أخرى، لم يعد الأمر مجرّد مركز، بل، وقد أصبحت الخلافة أكثر من دولة، توجّب أن يكون الخليفة، أكثر من رمز بكثير.

فقد ذكر بعض رواة السنّة أنّ آخر ما قاله عمر بن الخطّاب، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، يوم طعنه الفارسيّ أبو لؤلؤة:

الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجّني عند الله بسجدة سجدها له قط... ما كانت العرب لتقتلني.

ويضيف ناقل هذا القول، بأنْ "كانت هذه هي الحقيقة؛ فما كان في العرب مَن يجرؤ على قتل عمر خليفة رسول الله ﷺ! ولكن كان هناك مَن يعيشون بين العرب أنفسهم، ممّن دخلوا الإسلام من الفرس. جاؤوا كأسرى حرب أو كصنّاع وتجّار ورقيق. وإذا كان بعض هؤلاء قد دخل الإسلام، عن إيمان حقيقيّ به، إلاّ أنّ الإسلام لم يبلغ في قلوب البعض الآخر منهم مبلغًا كبيرًا، بل ربّما انطوت هذه القلوب على غير قليل من الحقد والموجدة على هؤلاء العرب الذين مزّقوا أوصال بلادهم ووطئوا بأقدامهم سيادتها"[1].

وإن كرّرنا هذا الرأي، وقد ذكرناه في خبر مقتل عمر، فبهدف الإحاطة. إذ يضيف صاحبه بأنّه "كان هؤلاء الحاقدون من أول أسباب الفرقة والخلاف بين المسلمين. وإذا كان مقتل عمر، قد جاء على يد واحد منهم، فإنّ الفتنة التي حدثت بعد ذلك أيّام عثمان بن عفّان، ثم ما تبعها من انقسام المسلمين وظهور مختلف الفرق

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٢.

والأحزاب التي خرج بعضها على الإسلام نفسه، وإن تظاهر أصحابها بالإيمان والشدّة فيه، كلّ ذلك كان وراءَه نفس هؤلاء الحاقدين"[1].

ولكن إذا دقّقنا في أحداث الثورة على عثمان، نجد أنّ مَن كانوا وراءَها، كانوا من كلّ الفئات، ومن جميع المشارب، ومن غير مصر. فقد اشترك فيها من أهل المدينة، كما اشترك من الموالي، ومن مصر، ومن العراق. لقد كان واضحًا "منذ أول خلافة عثمان، أنّ شيئًا سيحدث. فما كان عثمان بالذي يستطيع ملء مكان عمر بن الخطّاب الذي عرف كيف يسوس أمور الأمبراطوريّة الإسلاميّة التي اتّسعت خارج الجزيرة العربيّة اتساعًا هائلاً... وما كان الخليفة الجديد بقادر على أن يمسك بيدَيه المرتعشتَين دفّة السفينة بحزم وقوّة كما فعل عمر في أدّق حقبة من تاريخ الإسلام وأخطرها... من أجل ذلك برزت عوامل النكسة لتسيطر على أقدار المسلمين، ونهض العداء الدفين للإسلام داخل الجزيرة وخارجها، يستغلّ فرصة عدم التكافؤ بين شخصيّة الخليفة عثمان، بشيخوخته وتساهله وضعفه أمام أسرته، فراح يعمل عمله في جسم الإسلام القويّ الصلب. وأطلّت العصبيّة القبليّة بوجهها الكئيب، لتجعل الأمويّين يضمرون العداء للهاشميّين الذين كانوا أعداء لهم في الجاهليّة[2]".

ثمّ إنّ عائشة، أمّ المؤمنين، والتي كان لا يزال تأثيرها الكبير في المدينة، كان لها مآخذ كبرى على عثمان. وهذا ما سوف يؤدّي، في النهاية، إلى عدم قيام أحد من أصحاب الشأن لنصرة عثمان في اليوم العصيب، وإن كان الإمام عليّ بن أبي طالب (ع) قد بذل جهودًا لمنع حصول الكارثة، بحسب بعض المؤرّخين، كما سيأتي.

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٢.

وقبل سرد أهمّ ماجريات أحداث الثورة على عثمان، لا بدّ من الإشارة إلى بدعة دينيّة كانت قد ظهرت يومذاك، هدّدت لأوّل مرّة، وحدة الإسلام. وهناك مَن يعتبرون بأنّ تلك البدعة، كانت من جملة العوامل التي أدّت إلى ترجرج وضع الخلافة. وإذا لم يكن الأمر كذلك، يكفي أن تكون تلك البدعة قد ظهرت، لتزيد من المؤشّرات على سوء إدارة عثمان.

إنّها بدعة إبن سبأ، ومذهبه الجديد. وهي فكرة قامت بنفس يهوديّ، هو ابن السوداء عبد الله بن سبأ، وهو من صنعاء، خرج منها، ونزل المدينة وتظاهر بإسلامه، وتغلغل بين صفوف الجماهير الإسلاميّة "حيث عرف مراميهم، ومقاصدهم، وعرف أنّ منصب الخلافة أصبح واهي الدعائم، تحت عثمان، وعرف أنّ النفوس تنزع إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو الرجل الذي يريد ابن سبأ أن يستغلّ اسمه في فكرته الجديدة ومذهبه الجديد، وإن كان عليّ عليه السلام نفسه لا يتقبّلها ولا تنطلي عليه، وإن كانت تهدف إلى توليته وتنصيبه. ولعلم هذا السبئيّ بأنّ تربة المدينة لا تصلح لبذر فكرته ومذهبه، فلا بدّ من أن يجد لها تربة خصبة تنمو فيها وتؤتي ثمارها، وإن كان في المدينة مَن يتقبّل الفكرة ما دامت تقوم على رفع شأن عليّ عليه السلام، ففي المدينة كثير ممّن يحبّونه ويوالونه، رأى ابن سبأ أنّ خير تربة لفكرته هي تلك التي تكون بعيدة عن مرأى ومسمع عليّ عليه السلام، حتّى لا ينهض لمحاربتها، فاختار البصرة، حيث يوجد أذهان تتقبّل الفكرة ما دامت غايتها الظاهرة القضاء على الحكم القائم. وهناك، بثّ ابن سبأ دعوته القائمة على تفسير الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[1]،

١ - (من: القصص: ٨٥) جاء في تفسير هذه الآية، وهي خطاب للرسول ﷺ، عند ابن عبّاس، ومجاهد، والجبائي: "إِنّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ" أي "أنّ الذي أوجب عليك الامتثال بما تضمّنه القرآن وأنزله عليك".. "لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" أي: "يردّك إلى مكّة". وقد صدقت الآية. وقال القتيبي: "مَعَادُ الرجل، بلده، لأنّه يتصرّف في البلاد ثمّ يعود إليه... وقيل إلى مَعَاد: إلى الموت". وبعضهم اعتبر "المَعَاد" : يوم القيامة. وبعضهم الآخر اعتبر "المَعَاد" : الجنّة.

بأنّها تعني أنّ محمّدًا ﷺ سيعود إلى الأرض. وراح يردّدها، ويقول: "العجب ممّن يزعم أنّ عيسى يرجع، ويكذّب بأنّ محمّدًا ﷺ يرجع"...

وإذ ارتاح الناس لأن يجدوا مسلمًا منهم يبشّر بعودة نبيّهم ثانية إلى الحياة، وهنالك وفرة قليلة المعرفة بتفسير الآيات القرآنية، تبعه بعضهم. وراح ابن سبأ يوسّع دعوته بسماتٍ سياسيّة كفيلة بتغيير الحكم وتبديله، ما زاد النفوس ارتياحًا إليه، بسبب استيائهم من الحكم القائم... وسرعان ما راح ابن سبأ يتقدّم من أنصار عليّ ابن أبي طالب عليه السلام ومريديه في البصرة، ويفسّر مبدأه ويؤوّله ويلخّصه بالتالي:

"إنّه كان ألفا نبيّ ولكلّ نبيّ وصيّ. وكان عليّ عليه السلام وصيّ محمّد ﷺ، ومحمّد ﷺ خاتم الأنبياء، وعليّ عليه السلام خاتم الأوصياء. فمن أظلم ممّن لم يُجزِ وصيّة رسول الله ﷺ ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ، وتناول أمر الأمّة"[1].

يفسّر الشيعة هذا الكلام بأنّه حقّ أريد به باطل. إلاّ أنّه كلام نزل في نفوس العامّة منزلة الرضى... وإذا كان فيهم مَن لم ترتح نفسه إلى "الرجعة" فقد سرّه في الدعوة المسلمة بوصيّة رسول الله ﷺ استخلاف ابن عمّه وصهره عليّ بن أبي طالب عليه السلام...

وحين لقيت دعوة ابن سبأ آذانًا صاغية وقلوبًا منفتحة... "فرّق أنصاره في البلاد والأمصار، ينشرون هذا المذهب ويدعون له من بعد أن يخطّط طرق العمل بعد الكلام". وقد قال لهؤلاء الأنصار: "إنّ عثمان قد أخذها بغير حقّ" ثم قال: "هذا عليّ عليه السلام وصيّ رسول الله ﷺ، فانهضوا في الأمر فحرّكوه، وابدأوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس[2]"...

---

١ ـ الإمام عليّ في فضائله (مجهول المؤلف) منشورات مكتبة "الحياة (بيروت، لا ت.) ص ٩٤ ـ ١٠٠.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٧.

وعندما رأى والي البصرة الفتيّ، أنّ دعوة إبن سبأ قد اتّسعت وكثر أتباعه، نفاه من البصرة. فخرج هذا الأخير إلى الكوفة، مسرورًا، ليبثّ دعوته في الكوفة. بيد أنّ والي الكوفة سعيد بن العاص طرده، بعد أن تمكّن ابن سبأ من تدعيم مذهبه هناك، فانتقل إلى الشأم. ولكنّ معاوية، هو الآخر، قد سارع إلى إبعاده عن الشأم "وحرّم عليه المكوث في كلّ البقاع التابعة لها"... وينتهي المطاف بابن سبأ في مصر، وهناك حطّ رحاله، وأخذت دعوته تنمو وتنتشر حتّى أصبحت مصر مقرًّا رئيسيًّا للسبئيّين.

***

إذن: كلّ الأجواء تلبّدت في سماء الخلافة، وأصبحت التربة مهيّأة تمامًا لبذور الثورة الأولى في الإسلام. فكيف جرت؟

حدث ذلك في السنة ٣٥ للهجرة (٦٥٥م) من دون مقدّمات. فقد جاءَت الوفود، في وقت واحد، من الأمصار، إلى المدينة. فسار "مالك بن الحارث النخعيّ من الكوفة في مائتَي رجل. وحُكيم بن جبلة العبديّ من البصرة في مائة رجل. وعبد الرحمَن بن عديس البلويّ من مصر بستّمائة رجل. كذلك قدم من مصر، عمرو بن الحمِق الخزاعيّ، وسودان بن حمران التجيبيّ، ومعهم... محمّد بن أبي بكر، الذي كان تكلّم بمصر، وحرّض الناس على عثمان"... والذي سيكون له اليد الطولى في مقتل الخليفة.

نزل هؤلاء جميعًا بذي خشب من المدينة. ولا يذكر لنا التاريخ كيف حصل التواعد على هذه العاميّة. إلاّ أنّ بعضهم روى أنّه "لمّا بلغ عثمان أنّ أهل مصر قدموا، وعليهم السلاح، وجّه إليهم عمرو بن العاص وكلّمهم، فقال لهم: "إنّه ـ أي الخليفة ـ يرجع إلى ما تحبّون"... ثم كتب لهم بذلك، وانصرفوا[1]".

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٤.

وبعضهم يذكر أنّ من كلّفه عثمان بالتحدّث إلى المصريّين، إنّما هو علـيّ بـن أبـي طالب ﵇ إذ "بعث (عثمان) إلى علـيّ بـن أبـي طـالب ﵇، فـأخبره وسـأله أن يخـرج إليهم ويضمن لهم عنه كلّ ما يريدون من العدل وحسن السيرة. فسار علـيّ ﵇ إليهـم، فكان بينهم خطب طويل فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا[١]".

إنّما المتّفق عليه، أنّ المصريّين، قـد غـادروا متّجهيـن إلـى مصـر، بعد حصولهم على وعد من الخليفة بأنّـه سيعدل. ولكنّهم مـا "أن صـاروا فـي بعـض الطريـق، فـإذا براكب على جمل يمرّ من هناك، فاشتبهوا به، وفتّشوه، فوجدوا معـه كتابًـا مـن عثمـان إلى عامله في مصر: عبد الله بن سـعد، يطلـب منـه فيـه أن يقطـع أيـدي أولئـك الذيـن ساروا إلى المدينة وأرجلهم، فور عودتهم[٢]". وعلم القوم "أنّ الكتاب بخـطّ مـروان (بـن الحكم) فرجعوا إلى المدينة[٣]... وكان على رأس هؤلاء "محمّد بن أبي بكر، ومحمّد بـن أبي حذيقة، وكنانه بن بشر، وابن عديس البلويّ[٤]"...

بعض البحّاثين يعتقد بأنّ الخليفة بريء من هذه الرسالة، إذ لـم يكـن لـه علـم بهـا. ومنهم مَن يقول بأنّها مدسوسة. ومنهم مَن يعتقـد بأنّهـا مـن صنـع مـروان. إنّمـا حـامل الرسالة، على ما يبدو، كان "ورش... غلام عثمان"[٥] وبعضهم ذكره باسم "أبي الأعـور ابن سيفان السلميّ"[٦].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٧.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٨.

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٨.

٦ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٩٦٤، ١: ٢٩٨٤.

على أيّ حال، فما حصل إثر ذلك، هو أنّ القوم عادوا ثائرين غاضبين إلى المدينة، حيث اجتمعوا إلى مَن قدم من العراق، وتوافقوا، ونزلوا المسجد، وراحوا يتداولون في الثورة. فاتّفق رأيهم على محاصرة الخليفة حتّى النهاية.

بدأ الحصار بمنع وصول الماء إلى قصر الخليفة الذي "أشرف على الناس وقال:

"ألا أحد يسقينا؟".

وقال:

بماذا تستحلّون قتلي وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يحلّ دم امرىء مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان أو زنّى بعد إحصان أو قتل نفس بغير نفس"... والله ما فعلت ذلك في جاهليّة ولا في إسلام!

بلغ عليّا عليه السلام طلب عثمان الماء، فبعث إليه بثلاث قرب ملآنة، فما وصل ذلك إليه حتّى خرج من موالي بني هاشم وبني أميّة جماعة وارتفع الصوت وكثر الضجيج وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان؛ فأبى أن يخلّيَ عنه؛ وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنّه كان من أحلافها، وهُذيل لأنّه منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمّار، وغفّار وأحلافها لأجل أبي ذرّ، وتيم بن مرّة مع محمّد بن أبي بكر، وغير هؤلاء.. فلمّا رأى عليّ عليه السلام أنّهم يريدون قتل عثمان، بعث بابنَيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه، نصرة له، وأمرهم أن يمنعوه منهم. وبعث الزبَير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمّدًا، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم إقتداء بمَن ذكرنا، فصدّوهم عن الدار، فرمى مَن وصفنا بالسهام. واشتدّ (واشتبك) القوم وجرح الحسن، وشُجّ قنبر وجُرح محمّد بن طلحة، فخشي القوم أن يتعصّب بنو هاشم وبنو أميّة، فتركوا القوم في القتال على الباب. ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوّروا عليه (على عثمان)، وكان ممّن وصل إليه محمّد بن أبي بكر

ورجلان آخران. وعند عثمان زوجته وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال؛ فأخذه محمّد بن أبي بكر بلحيته، فقال:

يا محمّد والله لو رآك أبوك لساءَه مكانك!...

فتراخت يده وخرج عنه إلى الدار ودخل الرجلان فوجآه[1] فقتلاه، وكان المصحف بين يدَيه يقرأ فيه؛ فصعدت امرأته فصرخت:

قد قُتل أمير المؤمنين...

ودخل الحسن والحسين ومَن كان معهما من بني أميّة وغيرهم فوجدوه قد فاضت نفسه، فبكوا.

فبلغ ذلك عليًّا عليه السلام وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل عليّ عليه السلام الدار وهو كالواله الحزين، فقال لابنَيه:

كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟...

ولطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمّد بن طلحة ولعن عبد الله بن الزبير؛ فقال له طلحة:

لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن! لو دفع إليهم مروان ما قُتل...

وهرب مروان وغيره من بني أميّة وطُلبوا ليُقتلوا فلم يوجدوا. وقال عليّ عليه السلام لزوجته (زوجة عثمان) نائلة بنت الفرافصة:

مَن قتله وأنت كنت معه؟

---

١ ـ وجأ فلانا بالسكّين أو بيده: ضربه في أيّ موضع كان.

فقالت:

دخل إليه رجلان... وقصّت خبر محمّد بن أبي بكر في دخوله إليه وما خاطبه به عثمان، فأُحضر محمّد بن أبي بكر فلم ينكر ما قالت وقال:

والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلمّا خاطبني بما قال خرجت ولا أعلم بتخلّف الرجلَين عنّي. والله ما كان لي في قتله من سبب ولقد قُتل وأنا لا أعلم بقتله"[1].

***

إذا كان بالإمكان اختصار خبر حصار دار الخليفة، قبل قتله، في سطور، فإنّ "مدّة ما حوصر عثمان في داره كانت تسعًا وأربعين يومًا، وقيل أكثر من ذلك"[2]. وفي أمدٍ كهذا، لا بدّ من أن يكون قد حدث الكثير...

من ذلك مثلاً، أنّ الخليفة قد أرسل مروان بن الحكم إلى أمّ المؤمنين: عائشة، مستغيثًا. فقال: "يا أمّ المؤمنينَ لو قمتِ فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس!". قالت: "قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحجّ". قال: "فيدفع إليك بكلّ درهم أنفقته درهمَين". قالت: "لعلّك ترى أنّي في شكّ من صاحبك؟ أمّا والله لوددت أنّه مقطّع في غرارة من غرائري، وأنّي أطيق حمله، فأطرحه في البحر"[3].

سبب ذلك أنّه "كان بين عثمان وعائشة مناحرة، ذلك أنّه نقّصها ممّا كان يعطيها عمر بن الخطّاب، وصيّرها أسوة غيرها من نساء رسول الله ﷺ؛ فإنّ هذا الخليفة قام يومًا ليخطب إذ دلّت عائشة قميص رسول الله ﷺ، ونادت: "يا معشر المسلمين! هذا

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٨٩ ـ ٩٠.

٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٩٠.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

جلباب رسول الله ﷺ لم يُبلَ، وقد أبلى عثمان سنّته!". فقال": "ربِّ اصرف عنّي كيدهنّ إنّ كيدهنّ عظيم"[1].

وقيل إنّه كان طرق "مسمعها التدهور الخلقيّ بين الناس، فنقمت على عثمان لأجله، وراحت ترميه بكلّ ما يثير عليه النفوس، ولم تقف هذا الموقف وهي الحافظة لتراث الرسول ﷺ ولها من العلم ما يجعل رأيها في عثمان حكمًا قاطعًا مبرمًا ليس له مَن ينقضه أو يغضّ منه. وأطلقت عائشة لسانها ينال من عثمان وراحت تؤلّب الناس ثورة ونقمة على عثمان، فعمدت إلى قميص لرسول الله ﷺ ونشرته في بيتها وكلّما مرّ به أحد قالت: "هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنّته""[2].

***

وإذا كان الرواة يختلفون في مَن حرّض وخطّط للثورة على عثمان، فإنّهم لا يختلفون في خبر تلكّؤ معاوية عن نصرته. ويذكر جلّهم أنّ الخليفة، وهو محاصر، "وأكثر من يؤلّب عليه طلحة والزبير وعائشة، كتب إلى معاوية يسأل تعجيل القدوم عليه، فتوجّه إليه في اثنَي عشر ألفًا، ثم قال (معاوية):

"كونوا بمكانكم في أوائل الشأم، حتّى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحّة أمره.

"فأتى (معاوية) عثمان، فسأله عن المدّة (المدَد) فقال:

"قد قدمت لأعرف رأيك وأعود إليهم فأجيئك بهم.

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٢ ـ الإمام عليّ في فضائله، مرجع سابق، ص ١٠٠ ـ ١٠١.

"قال (عثمان):

"لا والله، ولكنّك أردت أن أُقتَل فتقول: ـ أنا وليُّ الثأر... إرجع، فجئني بالناس!...

"فرجع... ولم يعد إليه حتّى قُتل"[1].

***

على أيّ حال، فإنّ المحظور قد وقع، وكان مقتل الخليفة الأمويّ، عثمان بن عفّان، ثالث الخلفاء الراشدين، "لاثنتَي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٣٥[2] (١٧ حزيران ـ يونيو سنة ٦٥٦[3]) "وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ستّ وثمانين... وكان الذين تولّوا قتله: محمّد بن أبي بكر، ومحمّد بن أبي حذيقة، وابن حزم، وقيل كنانة بن بشر التجيبيّ، وعمرو بن الحمق الخزاعيّ، وعبد الرحمَن بن عديس البلويّ، وسودان بن حمران...

وأقام ثلاثًا لم يدفن، وحضر دفنه حكيم بن حزام، وحُبير بن مطعم، وحويطب بن عبد العزّى، وعمرو ابن عثمان. ودُفن بالمدينة ليلاً في موضع يُعرف بحشّ كوكب[4]. وفيه مقابر بني أميّة، ويُعرف أيضًا بحلّه"[5].

وكان لعثمان "من الولْد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، أمّهما رقيّة بنت رسول الله ﷺ؛ وأبان، وخالد، وسعيد، والوليد، والمغيرة، وعبد الملك، وأمّ أبان، وأمّ

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٥.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٤ .

٤ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

٥ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٥.

سعيد، وأمّ عمرو، وعائشة[1].

***

بمقتل عثمان، بدأ صراع خطير في الإسلام، لن تقتصر عواقبه على الخلافة، بل ستتعدّاها إلى نشوء المذاهب والطوائف والملل، ليس في مدّة محدّدة، بل على مدى الأجيال اللاّحقة.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٧٥؛ قابل اليعقوبي الذي لم يذكر عبدالله الأكبر وعبدالله الأصغر والمغيرة، بل قال إنّه كان له من الولد الذكور سبعة: عمرو وعمر وخالد وأبان والوليد وسعيد وعبد الملك.

الفَصلُ الخَامِس

عهدُ الإمام عَليّ

مبَايعَة عَليّ؛ تَعيينَات العَهدِ الجَديد؛

يَـومُ الجَمَل؛

صِفّين؛ التّحكِيم؛ محضَر التحكيم؛

الإنقسَام.

مبايعة عليّ

أدرك عليّ بن أبي طالب(ع) قبل تسنّمه سدّة الخلافة أنّ أحداثًا مقلقة تنتظره. ونستشفّ هذا الإدراك من قوله لمَن كانوا يطلبون منه القبول بالولاية: "ألا فاعلموا أنّي إن أحببتكم، ركبت بكم ما أعلم"[1]. وقد يكون إدراكه هذا، سببًا رئيسيًّا في تردّده بقبول تولّي الخلافة بعد عثمان.

والواقع، أنّه "لم يكن إنسان مثل عليّ (ع) في ورعه وتقواه، وحفاظه على الشعائر الإسلاميّة، وفي تزهّده في عيشه وانصرافه عن ملاذ الدّنيا... كما أنّ لعليّ (ع) سجلاً رائعًا في الأعمال البطوليّة في الحرب، بدأ بموقعة بدر، التي أبلى فيها بلاء حسنًا وأصبح بعدها حامل راية النبيّ (ص)؛ وكان سيفه "ذو الفقار" مضرب المثل"[2]. وإنّ رجلاً ورِعًا تقيًّا محافظًا متزهّدًا شجاعًا محاربًا وأبيًّا، لا يمكن، إذا ما ترأس سلطة، إلاّ أن يكون محارَبًا... ومحارِبًا. وقد يكون هذا ما جعل عمر بن الخطّاب، الذي تنبّأ بالثورة على عثمان، وصدق، يتنبّأ بحروب عليّ (ع)، إذ قال يومًا: "إنّ عليًّا... لأحقّ النّاس بها، ولكنّ قريشًا لا تحتمله، ولئن وُلّيهم ليأخذنّهم بمرّ الحقّ لا يجدون عنده رخصة؛ ولئن فعل لينكثُنّ بيعته ثمّ ليتحاربن"[3].

---

١ ـ الإمام عليّ وفضائله، مرجع سابق، ص ١٦٧.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٤.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٥٩؛ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

بعد مقتل عثمان "احتشد في المسجد، بالمدينة، جمع غفير من النـاس، فيهم الصحابة، ومنهم طلحة والزّبير وسعد، وفيهم عدد وافر من أهل الكوفة والبصرة والمصريّين. ونهض رجل من المصريّين يقول: "يا أهل المدينة، إنّكم أهل الشورى وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمّة، فانظروا رجلاً تنصّبونه ونحن لكم تبع". فتعالت الهتافات من كلّ صوب: "عليّ، عليّ بن أبي طالب نحن به إخوان". ثمّ يتابع ذلك الرجل قوله: "فدونكم، وإنّا لمؤجّلوكم يومَين اثنَين، فوالله لئن لم تفرَغوا لنقتلنّ غدًا عليًا وطلحة والزبَير وأناسًا من رجالكم كثيرين".

وبينما كانت الوفود تتوالى إلى المسجد، حتّى غصّ وباحاته بالجموع، يتبادلون الآراء ويتذاكرون في أمر الخلافة، قام صحابيّ من المسلمين الأوائل، كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ ﷺ، والداه أوّل شهيدَين في الإسلام، ماتا في التعذيب في مكّة قبل هجرة الرسول ﷺ، هو: عمّار بن ياسر يقول: "أيّها الناس، قد سار فيكم عثمان بالأمر إلى ما رأيتموه، وأنتم اليوم على شرف من الوقع في مثله، إن لم تنظروا لأنفسكم. وإنّ عليًا أولى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته". فعلت الأصوات: "رضينا به"... ومضت طوائف من هذه الجموع، وفيهم طلحة والزبَير، إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو معتزل في بيته لا يبرحه، فأحاطوا بداره حتّى أخرجوه والتفّوا حوله يهيبون به أن يقبل مبايعتهم... غير أنّ عليًا عليه السلام أجابهم "لا... فأن أكون وزيرًا خير من أن أكون أميرًا". وكان الهتاف: "أنت، أنت لنا رضى". ويصرُّ عليّ عليه السلام: "لا حاجة لي في أمركم أيّها الناس. أنا معكم فمَن اخترتم فقد رضيت"... ويبرز من بينهم الأمير الشاعر، مالك بن الحارث الأشتر النخعيّ، ويخاطب عليًا عليه السلام بشيء فيه نبوّة، إلاّ أنّها لم تُغضب عليًا. قال الأشتر: "والله لتمدّن يدك نبايعك أو لتعصرنّ عينك عليها ثالثة". ومن جواب عليّ عليه السلام هنا، يبرز الإدراك الذي كان يمنعه عن الإقدام على القبول، فيقول: "دعوني

والتمسوا غيري أيّها الناس. إنّا مستقبِلون أمرًا له وجوه وله ألوان، لا تثبت عليه العقول ولا تقوم له القلوب".

واستمرّت المناشدة من قبل الجموع، إلى أن قال عليّ ﷺ، بعد لأي، كلمته الأخيرة:

"قد أجبتكم لما أرى منكم. ألا فاعلموا أنّي إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني لإنّما أنا كأحدكم، بل أنا أسمعكم وأطوَعكم لمن ولّيتموه أمركم".

فصاح الجميع: "ما نحن بمفارقيك حتّى نبايعك". وكان موعدهم، الغد، في المسجد، وتفرّقت الجموع.

ما كاد يشرق صباح الجمعة ١٨ ذي الحجّة سنة ٣٥ لهجرة النبيّ ﷺ (حزيران – يونيو ٦٥٦) حتّى كانت الحشود تحفُّ بدار عليّ ﷺ، إلى أن خرج، فالتفّوا حوله، ومشوا به إلى المسجد في عاصفة من التهليل والتكبير. وسط هذا الحماس، وصلوا المسجد، فصعد عليّ ﷺ المنبر، ورحاب المسجد تضيق بالجماهير، وقال:

"يا أيّها الناس، (...) إنّ هذا أمركم، ليس لأحد فيه حقّ إلاّ من أمّرتم، وقد افترقنا بالأمس على هذا الأمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلاّ فما أجدّ على أحد". وعلا هتاف: "نحن على ما فارقناك بالأمس".

ويتابع عليّ ﷺ قوله:

"ألا إنّي كنت كارهًا لأمركم، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم، رضيتم؟"

- "تبايعك على كتاب الله"

ويقول عليّ ﷺ:

"اللهمّ إشهد عليهم"[1].

وكانت المبايعة.

كان أوّل مَن بايعه وصفّق على يده، الصحابيّ القرشيّ التميميّ، أحد العشرة المبشّرة، وأحد أغنياء قريش: طلحة بن عبيد الله، الذي كان يلقّب بطلحة الفيّاض، وطلحة الجود، لسخائه.

ثمّ الأشتر الذي قال: "أبايعك يا أمير المؤمنين على أنّ عَليّ بيعة أهل الكوفة".

ونهض صحابيّ آخر، قريشيّ أسديّ، ابن عمّة الرسول ﷺ... وعليّ عليه السلام. إعتنق الإسلام بأوّل صباه، وكان هو الآخر، أحد العشرة المبشّرة. قاتل في جميع غزوات النبيّ ﷺ، وكان من أهل الشورى في انتخاب عثمان. إنّه: الزبَير بن العَوام. وبايع، مع طلحة ـ مرّة ثانية ـ بالقول: "تبايعك يا أمير المؤمنين على أنّ علينا بيعة المهاجرين".

ثم قام أبو الهيثم بن التيهان، وعقبة بن عمرو، وأبو أيّوب، وبايعوا، "على أنّ عليهم بيعة الأنصار، وسائر قريش"[2].

وبايع الجميع، من مهاجرين وأنصار، باستثناء ثلاثة من قريش: أحدهم مروان بن الحكم[3]، وسعيد بن العاص، والوليد بن عقبة. أولئك كانوا: حزب عثمان.

وهنا، كان أوّل غيث الأيّام العصيبة. واتّضح أنّ بني أميّة، لم ينسوا ما كان من حمزة[4]، وعليّ عليه السلام، لمّا صرع أكبر رجالهم في يوم بدر. وأمام هذا الواقع، يجب ألاّ

---

١ ـ راجع: الإمام عليّ وفضائله، ص ١٥٥ ـ ١٦١.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٨.

٣ ـ من المستغرب أن يكون مروان بن الحكم في المبايعة، في الوقت الذي ذكر فيه المؤرّخون أنّه كان فارّا من الجموع الذين كانوا "يطلبونه ليقتلوه!" لمّا قتلوا عثمان، إلاّ أنّ هذا ما ورد في المدوّنات!

٤ ـ حمزة بن عبد المطّلب (ت٣هـ/ ٦٢٥م): عمّ النبيّ ﷺ، من سادات قريش في الجاهليّة وصدر الإسلام، قاتل في بدر واستشهد في أُحد.

يكون بنو هاشم قد نسوا ما كان من هند[1] حين لاكت كبد حمزة ومثّلت به يوم أُحد. وإذا كان حمزة قد استشهد، فإنّ عليًا عليه السلام اليوم، في يوم مبايعته.

قال الوليد بن عقبة، وهو أخ عثمان لأمّه، متحدّثًا باسم حزب عثمان، موجّهًا كلامه لعليّ عليه السلام: "يا هذا، إنّك قد وترتنا جميعًا. أمّا أنا فقتلت أبي صبرًا يوم بدر، وأمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر، وكان أبوه من نور قريش، وأمّا مروان فشتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمّه إليه... على ذلك بنو عبد مناف، فتبايعنا على أن تضع عنّا ما أصبنا وتعفي لنا عمّا في أيدينا، وتقتل قتلة صاحبنا (عثمان)".

يمكن تصوّر جرأة الوليد بن عقبة في هذا المقام. ذلك ليس فقط، أنّه وجّه مثل هذه الشروط لعليّ عليه السلام، في مثل هذه المناسبة، ولكن، خاصّة، لأنّ الجموع التي كانت تحيط بالمسجد والمدينة، كانت مهيّأة تمامًا لأسوأ الاحتمالات! وقد كانت إشارة من عليّ عليه السلام، كافية من أجل وضع حدٍّ مخيف لمثل هذه الجرأة.

غضب عليّ عليه السلام، ولكنّه تمالك نفسه، وأجاب:

أمّا ما ذكرت من وتْري إيّاكم، فالحقّ وتركم؛ وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حقّ الله تعالى؛ وأمّا إعفائي عمّا في أيديكم، فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم؛ وأمّا قتلي قتلة عثمان، فلو لزمني قتلهم اليوم لزمني قتالهم غدًا، ولكن لكُم أن أحملكم على كتاب الله وسنّة نبيّه، فمَن ضاق عليه الحقّ، فالباطل عليه أضيق، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم.

---

١ ـ هند بنت عتبة (ت١٤هـ/ ٦٣٥م.): صحابيّة عالية الشهرة، زوجة أبي سفيان وأم معاوية مؤسّس الخلافة الأمويّة، حرّضت المكيّين على مقاتلة النبيّ ﷺ في بدر وأُحد وقالت شعرًا كثيرًا في رثاء المشركين، ثمّ أسلمت وشهدت معركة اليرموك.

إستدراكًا لنتائج هذا الموقف الصارم، تفتّق دهاء مروان عن موقف مناسب، فقال:

"بل نبايعك، ونقيم معك، فترى ونرى"[1].

وعقب ذلك خطُب المديح، بعليّ ، من قبل بعض مبايعيه.

تَعيينَـــــات

العَهدِ الجَديد

عندما تسلّم عليّ بن أبي طالب الخلافة الرابعة للمسلمين بعد الرسول ﷺ، كانت تشكيلة عثمان، على الأمصار، كما يلي:

على اليمن: يعلى بن منبّه التميمي؛ وعلى مكّة: عبد الله بن عمرو الحضرميّ؛ وعلى همذان: جرير بن عبد الله البجليّ؛ وعلى الطائف: القاسم بن ربيعة الثقفيّ؛ وعلى الكوفة: أبو موسى الأشعريّ؛ وعلى البصرة: عبد الله بن عامر بن كريز؛ وعلى مصر: عبد الله بن سعد بن أبي سرح؛ وعلى الشأم: معاوية ابن أبي سفيان[2].

وبينما كان الخليفة الجديد في صدد دراسة أمر الولاة، جاءَه ثقفيّ من دهاة العرب، صحابيّ، قاتل في وقعة اليمامة وفي فتوح الشأم وفارس، كان ولاّه عمر البصرة والكوفة، وعزله عثمان. إنّه المغيرة بن شعبة. جاءَ عليًّا ، ونصحه بألاّ يعزل عمّال عثمان في أوّل سنة من عهده، بل بأن يكتب إليهم بتثبيتهم على أعمالهم، فإذا

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٩.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٦.

"بايعوا لك واطمأنّ أمرك عزلتَ مَن أحببت وأقرّيت مَن أحببت". غير أنّ جواب عليّ عليه السلام الذي ينمّ عن حقيقة شخصيّته، كان: "والله لا أدهن في ديني ولا أعطي الرياء في أمري".

عندها، نصحه المغيرة بألاّ يعزل معاوية، على الأقلّ: "فإنّ له جرأة... وهو في أهل الشأم مسموع منه، ولك في إثباته حجّة: فقد كان عمر ولاّه الشأم كلّها".

أجاب عليّ عليه السلام: "والله لا أستعمل معاوية يومَين أبدًا"[١].

وبخلال استشاراته هذه، أخبر عليّ عليه السلام ابن عمّه عبد الله بن عبّاس، الملقّب بـ "حَبر الأمّة" لما كان عليه من صوابيّة الرأي، أخبره عن نصيحة المغيرة له، فأشار ابن العبّاس عليه "بأن يثبّت معاوية: فإن بايعك فَعَلَيّ أن أقلعه من منزله". فقال عليّ: "والله لا أعطيه إلاّ السيف"؛ وعندما قال له ابن العبّاس: "يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع، أما سمعت رسول الله يقول: الحرب خدعة؟"؛ وعند ردّ عليّ عليه السلام بالإيجاب، استأنف: "أمّا والله لئن أطعتني لأصدرنّ بهم بعد ورِدٍ ولأتركنّهم ينظرون في أدبار الأمور ولا يدرون ما كان وجهها في غير نقصٍ لك ولا إثم عليك". إلاّ أنّ جواب عليّ عليه السلام كان:

"يا ابن عبّاس، لست من هنّاتك ولا من هنّات معاوية في شيء. تشير به عليّ برأي فإذا عصيتك فأطعني".

ويروي ابن العبّاس كلّ هذا، ويقول إنّه هنا، أجاب عليًّا عليه السلام بقوله: "أنا أفعل، فإنّ أيسر ما لك عندي الطاعة"[٢].

---

١ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ٩٩ ـ ١٠٠؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٠؛ الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٠٨٥.

٢ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠١.

قبل أن يتّخذ عليّ ﷺ قراره النهائيّ بشأن معاوية، كان قد عزل أكثر عمّال عثمان عن البلدان، ولم يثبّت منهم سوى أبي موسى الأشعريّ، الذي "كلّمه فيه الأشتر، فأقرّه؛ وولّى قثم بن العباس مكّة؛ وعبيد الله بن العبّاس اليمن؛ وقيس بن سعد بن عبادة مصر؛ وعثمان بن حنيف الأنصاري البصرة؛ وأتاه طلحة والزبَير فقالا: إنّه قد نالنا بعد رسول الله جفوة، فاشركنا في أمرك. فقال: أنتما شريكاي في القوّة والاستقامة، وعوناي على العجز والأوَد... وروى بعضهم أنّه ولّى طلحة اليمن، والزبَير اليمامة والبحرين، فلّما دفع إليهما عهديهما قالا له: "وصلتك رحم!". قال: "وإنّما وصلتكما بولاية أمور المسلمين"... واستردّ العهد منهما، فعتبا على ذلك، وقالا: "آثرت علينا!". فقال: "لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لي فيكما رأي"[1].

يَـومُ الجَمَل

قبل أن يتمّم عليّ ﷺ تشكيلته الجديدة للولاة، واجهته مشكلة طارئة، ربّما كانت في حسبانه، ولكن، ليس إلى هذا الحدّ. إنّها تلك المشكلة التي أدّت إلى أحد أرهب أيّام الإسلام: يوم الجمل.

في الوقت نفسه، ظهر تمرّد معاوية في الشام، إذ أرسل هذا الأخير، إلى الخليفة الجديد، بدل المبايعة، قائلاً:

> "سلّم قتلة عثمان خليفة الرسول الذي بايعته الأمّة أوّلاً، فإنّك شريك لهم في الجريمة"[2].

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٧٩ ـ ١٨٠.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٥.

وكان معاوية يُخرج قميص عثمان الملوّث بالدم، وأصابع زوجته نائلة التي قُطعت حين اتّقت ضربة السيف عنه عندما قُتل وهو يقرأ القرآن الذي كان قد جمعه. وكان المصحف الذي جمعه عثمان، القرآن المعترف به، وقد سال دم عثمان فلطّخ صحائف القرآن الكريم ومنها الآية: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وجاء مَن يخبر عليًّا عليه السلام بما ظهر من أمّ المؤمنين: عائشة، عندما علمت بمبايعته خليفة على المسلمين، وهي في طريق عودتها من الحجّ في مكّة، إلى المدينة.

فما أن قالوا لها بأنّ عثمان بن عفّان قُتل، وبويع بعده عليّ بن أبي طالب عليه السلام، حتّى قالت: "والله ما كنت أبالي أن تقع هذه على هذه". ثمّ رجعت إلى مكّة.

وفجأة، أتاه طلحة والزبَير يستأذنانه السفر، قائلَين: "إنّا نريد العمرة، فأذن لنا في الخروج..." وبعد خروجهما، يُروى أنّ عليًّا عليه السلام قال: "والله ما أرادا العمرة، ولكنّهما أرادا الغدرة"[2]. وكان عليّ عليه السلام قد ردّ عليهما مشكّكًا وهما في صدد استئذانه: "لعلّكما تريدان البصرة أو الشأم؟". فأقسما أنّهما لا يقصدان غير مكّة[3].

وهناك، إلتأم شمل كلٍّ من أمِّ المؤمنين: عائشة، وعامل البصرة المخلوع من قبَل عليّ: عبد الله بن عامر، وعامل اليمن المخلوع أيضًا: يعلى منبّه، ومروان ابن الحكم، إضافة إلى طلحة والزبَير، وبعض من بني أميّة.

كان أوّل مَن حرّض على المطالبة بدم عثمان، يعلى بن منبّه، الذي كان قد تهيّأ للتمرّد، وجاء من اليمن هاربًا... مزوّدًا بالأموال. "فأعطى عائشة وطلحة والزبير

---

١ - سورة البقر، ١٣١.

٢ - اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٠.

٣ - المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢.

أربعمائة ألف درهم وكراعًا وسلاحًا، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمّى عسكرًا، وكان شراؤه عليه باليمن مائتَي دينار".

بعد المداولة قرّر المجتمعون في مكّة الانتقال إلى دمشق، للانضمام إلى معاوية، وبدء الانقضاض على عليّ ﷺ من هناك. إلاّ أنّ ابن عامر، عارض ذلك بقوله: "إنّ معاوية، لا ينقاد إليكم ولا يعطيكم من نفسه النصفة، لكن هذه البصرة، لي بها صنائع وعدد"... فجهّزهم بألف ألف درهم، ومائة من الإبل، وغير ذلك. فسار القوم نحو البصرة في ستّمائة راكب.

ويُجمع المؤرّخون على أنّه عند وصول القوم إلى نبع، أو بئر، لبني كلاب، يُعرف بالحوأب، وكان عليه أناس من بني كلاب "عوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجملها: الحوأب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك، وقالت: رُدّوني إلى حرم رسول الله... لا حاجة لي في المسير. فقال الزبير: ـ والله ما هذا الحوأب... وقد غلط فيما أخبرك به! ـ وكان طلحة في ساقة الناس فلحقها فأقسم بالله تعالى أنّ ذلك ليس بالحوأب. وشهد معهما خمسون رجلاً ممّن كان معهم، فكان ذلك أوّل شهادة زور أقيمت في الاسلام"...

ذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قد قال لعائشة يومًا: "لا تكوني التي تنبحك كلاب الحوأب"[١].

تمكّن طلحة والزبير من إقناع أمّ المؤمنين عائشة باستئناف المسير، وهي التي كان "النبيّ ﷺ قد تزوّج منها وهي صغيرة السنّ لا تزال تلهو بالدمى التي جاءَ بها من بيت أبيها أبي بكر. وكانت تضمر البغضاء لعليّ ﷺ بسبب حادثة جرت لها يوم تخلّفت عن

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨١؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢ ـ ١٠٣.

الموكب عندما كانت في سفر مع الرسول ﷺ. فارتاب عليّ عليه السلام في سلوكها، ونزل الوحي ببراءتها[1]. ولكنّها لم تنسَ ذلك لعليّ"[2].

وصل القادمون من مكّة، البصرة وعلى رأسهم أمّ المؤمنين، فخرج إليهم عامل عليّ عليه السلام: عثمان بن حنيف. وبعد قتال قصير، تمّ التوافق على كفّ الحرب إلى حين قدوم عليّ عليه السلام. لكنّ القادمين من مكّة "غدروا بعامل عليّ عليه السلام، فأسروه، ونتفوا لحيته، وشاربه، وأشفار عينَيه، وحاجبَيه، وانتهبوا بيت المال، وأخذوا ما فيه... وراح يصلّي بالناس طلحة يومًا والزبير يومًا، بعد أن حصل خلاف بين الإثنين وكلٌّ منهما يريد الصلاة، إلى أن أفتت عائشة بالمداورة[3].

أمام هذا الواقع، وإذ كان الخليفة الجديد بخلاف أسلافه وبخلاف الذين أتوا بعده، يقود جنوده بنفسه، انطلق عليّ عليه السلام ليقمع الفتنة، فسار من المدينة على رأس سبعمائة مقاتل، منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار، بينهم سبعون من الذين اشتركوا بواقعة بدر إلى جانب الرسول ﷺ، والباقون من الصحابة. واستخلف على المدينة ابن حنيف الأنصاريّ. وقصد الربّذة، بين مكّة والكوفة، طالبًا طلحة والزبَير وأصحابهما. غير أنّ هؤلاء كانوا قد فاتوه إلى العراق، فاتّجه بطلبهم. ولحق بعليّ عليه السلام جماعة من الأنصار من أهل المدينة... وكان عليّ عليه السلام كاتَب من الربذة أبا موسى الأشعريّ ليستنفر الناس، لكنّ هذا الأخير رفض إطاعة الخليفة قائلاً: "إنّما هي فتنة". وعندما بلغ عليًّا عليه السلام موقف أبي موسى، كتب إليه: "إعتزل عملنا يا ابن الحائك مذمومًا مدحورًا، فما هذا أوّل يومنا منك، وإنّ لك فينا لهنّات وهنّات"... وولّى مكانه على الكوفة قرظة بن كعب

---

١ ـ راجع: سورة النور، ١١: ٢١.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٤.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٢ ـ ١٠٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨١.

الأنصاري، وأرسل ابنه الحسن وعمّار بن ياسر يستنفران الناس. وسار إلى ذي قار، حيث لاقاه الحسن وعمّار ومعهما حوالى سبعة الآف مقاتل من الكوفة، من بينهم الأشتر. ومن هناك، توجَّه الجيش إلى البصرة، وفور وصوله، راسل عليّ عليه السلام القوم وناشدهم الاستسلام، إنّما هم أبوا إلاّ قتاله. وقد أصرّوا على موقفهم رغم تكرار محاولة الخليفة "حقن دماء المسلمين"[1].

يُجمع المؤرّخون على أنّ الثائرين على عليّ عليه السلام، كانوا البادئين بالقتال. واذ فشلت جميع محاولاته لإبعاد شبح الحرب، أمام إصرار مناوئيه، قام عليّ عليه السلام في الناس خطيبًا، رافعًا صوته يقول:

> أيّها الناس، إذا هزمتموهم، فلا تُجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيرًا، ولا تتبعوا مولّيًا، ولا تطلبوا مُدبِرًا، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثّلوا بقتيل، ولا تهتكوا سترًا، ولا تقربوا شيئًا من أموالهم إلاّ ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كُراع أو عبد أو أمَة، وما سوى ذلك فهو ميراث ورثَتهم على كتاب الله تعالى.

وخرج عليّ عليه السلام بنفسه، حاسرًا على بغلة رسول الله ﷺ، فنادى:

يا زُبير أخرج إليّ.

فخرج إليه الزبير شاكًا سلاحه.

فقيل ذلك لعائشة، فقالت: "واحزنَكِ يا أسماء!". فقيل لها إن "عليًّا عليه السلام حاسر، فاطمأنّت...

قال عليّ عليه السلام للزبَير: "ما الذي أخرجك؟". قال: "دم عثمان". قال: "قتل الله أولادنا بدم عثمان! أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ في بني بَياضة وهو راكب حماره

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٥ ـ ١٠٦.

فضحك إليّ رسول الله ﷺ وضحكت إليه وأنت معه، فقلت أنت: يا رسول الله ما يدعُ عليٌّ زهوه، فقال لك: ليس به زهوٌ، أتحبّه يا زبَير؟ فقلت إي والله إنّي لأحبه؛ فقال لك: إنّك والله ستقاتله وأنت له ظالم"؟.

فقال الزبَير: "أستغفر الله لو ذكرتها ما خرجت".

فقال له: "يا زبَير إرجع".

فقال: "وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان؟[1]" هذا والله العار الذي لا يُغسل!".

فقال: "يا زبَير إرجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار".

وإذ رجع، قال ابنه عبد الله: "أين تذهب وتذرنا؟". قال: "ذكّرني يا بنيّ بأمر كنت نسيته". فقال: "لا والله ولكن خفت من سيوف بني عبد المطّلِب فإنّها طوال حداد تحملها فتية أنجاد". فقال: "لا والله ولكنّي ذكرت ما أنسانيه الدهر فاخترت العار على النار! أبِاللّجين تعيّرني لا أبا لك!؟". ثمّ قلع سِنانه من قناته وشدّ في ميمنة عليّ عليه السلام فقال عليّ عليه السلام:

أفرجوا له فقد هاجوه.

ثمّ رجع فشد في المسيرة، ثمّ رجع فشد في القلب، ثم عاد إلى ابنه فقال "أيفعل هذا جبان؟". ثمّ مضى منصرفًا حتّى أتى وادي السباع والأَحنف بن قيس معتزل في قومه من بني تميم؛ فأتاه آت فقال له: "هذا الزبَير مارًّا". فقال: "ما أصنع بالزبَير وقد جمع بين فئتَين عظيمتَين من الناس يقتل بعضهم بعضًا وهو مارٌّ إلى منزله سالمًا؟". فلحقه

---

١ ـ مثل يضرب في الحادثة إذ بلغت النهاية.

نفر من بني تميم، وسبقهم إليه عمرو بن جرموز وقد نزل الصلاة، فقتله عمرو في الصلاة. وقيل إنّ الأحنف بن قيس قد أرسل مَن قتله[1]. وكان الزبَير قد بلغ إذ ذاك الخامسة والسبعين من عمره.

كان عليّ ﷺ، بعد أن ابتعد الزبَير عن أرض المعركة، قد نادى طلحة:

"يا أبا محمّد ما الذي أخرجك؟". قال: "الطلب بدم عثمان".

قال عليّ ﷺ: "قتل الله أولادنا بدم عثمان! أما سمعت رسول الله يقول: اللهمّ والِ مَن والاه وعادِ مَن عاداه، وأنت أول مَن بايعني ثم نكث، وقد قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2]

فقال: "أستغفر الله". ثمّ رجع. فقال مروان بن الحكم: "رجع الزبير ورجع طلحة. ما أبالي رميتُ ها هنا أم ها هنا"؟ ورمى مروان طلحة في أكحله فقتله[3].

ما أن رُمي طلحة، حتّى شنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ هجومه الشهير، وقد توسّع المدوّنون في وصف بلائه الحسن في تلك المعركة التي جرت في التاسع من كانون الأول (ديسمبر) ٦٥٦، والتي عُرفت بيوم الجمل، لأنّ عائشة كانت تبعث الحماسة في نفوس الثائرين وهي راكبة ذلك الجمل الذي قدّمه لها يَعلى بن منبه، مموّل الثورة، وهدفه الثأر لدم عثمان.

---

١ ـ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣١٦١؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٧ ــ ١٠٨؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٢ ـ ١٨٣.

٢ ـ الفتح، ١٠.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٠٩.

على خطام هذا الجمل، "قُطع سبعون يدًا من بني ضبّة، وكلّما قطعت يد واحد منهم فصرع، قام آخر فأخذ الخطام وقال: ـ أنا الغلام الضبِّيّ ـ. ورمي هودج الجمل بالنشّاب، والنبل، حتّى صار كأنّه قنفذ، وهو لا يقع، وقد قُطعت أعصابه وأخذته السيوف حتّى سقط... ولمّا ـ سقط الجمل ووقع الهودج، جاء محمّد ابن أبي بكر فأدخل يده فقالت ـ من أنت؟ فقال: "أقرب الناس منكِ قرابة وأبغضهم إليكِ: أنا محمّد أخوك؛ يقول لكِ أمير المؤمنين: هل أصابكِ شيء؟ قالت: ما أصابني إلاّ سهم لم يضرّني. فجاء عليّ ﷺ حتّى وقف عليها وضرب الهودج بقضيب وقال:

يا حُميراء أرسول الله أمركِ بهذا؟ ألم يأمرك أن تقرّي في بيتك؟ والله ما أنصفك الذين أخرجوكِ إذ صانوا حلائلهم وأبرزوك.

وأمر أخاها محمّدًا بإنزالها دار صفيّة بنت الحارث، أمّ طلحة الطلحات[1]... وبعد انتهاء المعركة، أمر عليّ ﷺ أن تُردّ عائشة أمّ المؤمنين إلى المدينة المنوّرة يرافقها حرس يليق بمكانتها. وكان من نبل عليّ ﷺ أنّه جزع على منافسَيه اللذَين سقطا، طلحة والزبَير، وبكاهما، ثم صلّى عليهما[2].

وقد ذكر المدوّنون والرواة، أنّه قُتل من أصحاب عليّ ﷺ في هذه المعركة، حوالى خمسة آلاف نفس، ومن أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفًا[3]. وبعد المعركة، أعطى عليّ ﷺ الأمان لابن أخت عائشة: إبن الزبير عبد الله،

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١١٦.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٥.

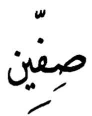
٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١١٦.

ولمروان بن الحكم، ولوليد بن عقبة، ولأبناء عثمان، وسواهم من بني أميّة، لا بل أمّـن الناس جميعًا. وقد كان نادى يوم الواقعة:

مَن ألقى سلاحه فهو آمن، ومَن دخل داره فهو آمن.

وكان من أبرز مَن قُتل في معركة الجمل، من أنصار عليّ عليه السلام: عمّار بـن ياسـر، الذي بكاه عليّ عليه السلام من جملة مَن بكاهم من مشايعيه... وخصومه.

وبمقتل طلحة والزبير، وانكسار مروان بن الحكم، وخيبة الولاة الثـائرين، لـم يعد أمام الخليفة الثالث سوى خصم عنيد واحد لا بدّ مـن تصفيـة الحسـاب معـه، هـو والـي الشأم المتمرّد: معاوية.



بعد يوم الجمل الذي حقّق فيه عليّ نصرًا ساحقًا على معارضيه الذين انضووا جميعًا تحت لواء استنسبوه لهذه الغاية: لواء حزب عثمان، انتقلت هذه الراية إلى الشأم، وأصبح على رأس هذا الحزب، عاملها المتمرّد، معاوية.

كان الخليفة الأوّل أبو بكر قد أرسل معاوية قائدًا للجيش في الشأم، ثمّ ولاّه الخليفة الثاني عمر عليها، وأقرّه الخليفة الثالث عثمان على هذه الولاية... وهو ابن صخر بن حرب بن أميّة: أبي سفيان، الذي قاد المشركين ضدّ المسلمين، يوم كان عليّ عليه السلام يجاهد إلى جانب الرسول ﷺ. وإذا كان الإسلام قد جمع في ما بعد بين الهاشميّين وبني أميّة، إذ أسلم أبو سفيان، والد معاوية، يوم فتح مكّة، يظهر للمحقّق أنّ الحقد كان لا يزال دفينًا في النفوس بين الأمويّين والهاشميّين. واليوم، أصبح علي عليه السلام الخليفة، على رأس الهاشميّين، ومعاوية، عامل الشأم المتمرّد، على رأس الأمويّين. أضف إلى ذلك أنّ معاوية "كان يطمح بالخلافة، وقد أخفى ما كان يضمره متحيّنًا الفرصة... وعندما حانت الفرصة، لم يبدُ معاوية للناس كرجل قام يطالب بالثار من قاتلي قريب له، بل تظاهر لهم أنّه يناصر الشرعيّة في أمر الخلافة[1].

وبينما كان عليّ يجيّش جيشه للزحف إلى الشأم، بهدف تأديب المتمرّد معاوية، كان الأخير يستنفر أهل الشأم لمقاتلة أهل العراق. وإذا كان العراقيّون، على ما بدا، قد

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٥.

تحمّسوا لمحاربة معاوية، رفضًا منهم للسيطرة الشأمية، فإنّ أهل الشأم كانوا على استعداد للنضال من أجل هذه السيطرة.

ويختلف المؤرّخون في عدد كلّ من الجيشَين اللذَين جمع كلٌّ منهما، عليّ ﷺ ومعاوية، بيدَ أنّ أكثرهم يتّفق على أنّ جيش عليّ ﷺ قد بلغ حوالى تسعين ألفًا، جلّهم من أهل العراق، وجيش معاوية، قد بلغ خمسة وثمانين ألفًا، وهم من الشأم. كما أنّهم يُجمعون على وصف هذه الحرب، التي عُرفت بمعركة صفّين، بأنّها معركة بين أهل العراق وأهل الشأم.

وصفّين، موضع على الحدود السوريّة، على شاطىء الفرات الأيمن بين الرقّة وإسكي مسكنة. ويبدو أنّه كان يستحيل الحصول على الماء من النهر، في تلك المنطقة، لوعورة الضفّة، إلاّ من موضع واحد، يُقال له "شريعة"، حيث يُمكن ورود الخيل.

سبق معاوية عليًا ﷺ بجيوشه إلى صفّين، ووضع عند "شريعة" أربعين ألفًا من جنوده بقيادة أبي الأعور السلميّ. وهذا الأخير سفيانيّ، من كبار رجال معاوية، كان تولّى فرقة من الجيش لحصار طبريّة في معركة فحل بعد اليرموك واحتلال دمشق عام ٦٣٥.

وبوصول عليّ ﷺ وجيشه إلى قرب الفرات، استحال عليهم الحصول على الماء، فبات الجيش في حالة عطش.

وكان معاوية، بدهائه، قد تمكّن من استقدام عمرو بن العاص إلى جانبه، واعدًا إيّاه بتوليته مصر إذا انتصر على عليّ ﷺ[1]. وعندما بلغ الموقف هذا الحدّ، نصح عمرو

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٤ ـ ١٨٦.

معاوية بفكّ الحصار عن "شريعة" قائلاً: "إنّ عليًا لا يموت عطشًا هو وتسعون ألفًا من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم، ولكن دعهم يشربون ونشرب..."، فقال معاوية: "لا والله أو يموتوا عطشًا كما مات عثمان"![1]

وسرعان ما شنّ عليّ عليه السلام هجومًا على شريعة، أدّى إلى انسحاب الجيش الشاميّ منها، "بعد أن غرق منهم، في الفرات، بشر وخيل...". وبعد سيطرة عليّ عليه السلام على مورد الماء، سمح لجيش معاوية بالورود والاستقاء من النهر[2].

وإذ تمركز جيش عليّ عليه السلام في سهل صفّين، بعث إلى معاوية بعد يومين "يدعوه إلى اجتماع الكلمة، والدخول في جماعة المسلمين... وطالت المراسلة بينهما، فاتّفقا على الموادعة (الهدنة) إلى آخر المحرّم من سنة ٣٧ هـ/ ٦٥٧ م... وامتنع المسلمون عن الغزو في البرّ لشغلهم بالحرب، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه. لشغله بعليّ عليه السلام"[3].

وفي مساء اليوم الأخير من المحرّم[4]، بعث عليّ عليه السلام إلى الشأم ما يلي:

إنّي قد أحججت عليكم بكتاب الله تعالى، ودعوتكم إليه، وإنّي قد نبذت إليكم على سواء ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[5].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢١.

٢ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٨.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٣.

٤ ـ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٢٨١.

٥ ـ أنظر: سورة الأنفال، ٥٨.

فلم يردّوا عليه جوابًا إلاّ: السيف بيننا وبينك حتّى يهلك الأعجز منّا[1].

وبدأت المناوشات في اليوم التالي، بين الجيشَين، واستمرّت أسابيع، إلى أن كان السادس والعشرون من تمّوز (يوليو) ٦٥٧، لمّا زحف جيش عليّ عليه السلام وأزال أهل الشأم عن مراكزهم، وظهرت أمارات النصر لعليّ عليه السلام. فأشار قائد الفرسان الداهية، عمرو بن العاص، على معاوية، برفع خمسمائة مصحف على أسنّة الرماح، علامة على النزول عند "حكم الله" لا عند حكم السيف. ويبدو أنّ الحرب كانت قد أنهكت قوى الجيشَين، وقد أسرف المؤرّخون في عدد القتلى الذي كما يقولون، بلغ سبعين ألف قتيل. فحثّ عليًّا عليه السلام أعوانه على قبول التحكيم حقنًا لدماء المسلمين[2].

قبْل ذلك التاريخ، كان عليّ عليه السلام قد يئس من إقناع معاوية بالمبايعة وإنهاء التمرّد، وقد استعمل من أجل هذه الغاية كلّ الوسائل. منها أنّه نادى:

"يا معاوية، على أيّ شيء تقتل الناس بيني وبينك؟ هلمّ أحاكمك إلى الله؛ فأيّنا قتل صاحبه استقامت له الأمور".

وإذ كان رأي عمرو بن العاص أن يقبل معاوية بمبارزة عليّ عليه السلام، معبّرًا عن ذلك بقوله لمعاوية: "قد أنصفك الرجل"؛ فقال معاوية: "ما أنصف وإنّك لتعلم أنّه لم يبارزه رجل قطّ إلاّ قتله أو أسره". قال عمرو: "وما يجمل بك إلاّ مبارزته". فقال معاوية:

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٢٤.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٦.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٣٤؛ وراجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٢٢.

"طمعت فيها بعدي"[1]. وتكثر هنا الأقاويل حول أخبار تلك المبارزة التي، في النهاية، لم تحصل[2].

التَّحكِيم

لا بدّ من التوقّف مليًا عند ذلك التحكيم الذي حصل، بين عليّ عليه السلام ومعاوية، في صفّين. ذلك لأنّ هذا التحكيم سيؤدّي في ما بعد، إلى نشوء فرقة في الإسلام، بعد السبئيّة[3]، هي: الخوارج. ولا يمكن الإحاطة بموضوع الخوارج، دون معرفة تفاصيل التحكيم.

كانت تلك، "ليلة الهرير"... كانت ليلة جمعة... وكانت الالتحامات قد ألغت ضرب النبال، وبات القتال التمامًا بالسيوف والخناجر والتكادم. وكان الفارس يعتنق الفارس حتّى يقعا جميعًا على الأرض مع فرسيَهما... "وأصبح القوم على قتالهم، وكسفت الشمس وارتفع القتام[4]، وتقطّعت الألوية والرايات ولم يعرفوا مواقيت الصلاة...

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٣؛ وعنه: "وقد ذكر هشام بن محمّد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أنّ معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب: "هل غششتني منذ نصحتني؟" ـ قال: "لا"؛ قال: "بلى والله يوم أشرت عليّ بمبارزة عليّ وأنت تعلم من هو"؛ قال: "دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنتين: إمّا أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران فتزداد شرفًا إلى شرفك، وإما أن يقتلك فتكون استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحُسن أولئك رفيقًا"؛ فقال معاوية: "يا عمرو الثانية أشد من الاولى".

٢ ـ يذكر المسعودي (مروج الذهب،٣: ١٣٤) "قيل في بعض الروايات إنّ معاوية أقسم على عمرو لمّا أشار عليه بهذا أن يبرز إلى عليّ عليه السلام، فلم يجد عمرو من ذلك بدًا. فبرز، فلمّا التقيا عرفه عليّ عليه السلام وشال السيف ليضربه، فكشف (عمرو) عورته وقال: "مكرهٌ أخوك لا بطل" فحوّل عليّ عليه السلام وجهه عنه وقال: "قبّحتَ!" ورجع عمرو إلى مصافّه؛ راجع: الميداني، ٢: ٢٧٤.

٣ ـ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ القتام: غبار الحرب.

فنادت مشيخة الشأم: "يا معشر العرب الله الله في الحرمات والنساء والبنات". وقال معاوية: "هلمَّ مخبّآتك يا ابن العاص فقد هلكنا وتذكّر ولاية مصر!"[1] فقال عمرو: "مُر الناس مَن كان معه مصحف فليرفعه على رمحه". فكثر في الجيش رفع المصاحف وارتفعت الضجّة ونادوا:

كتاب الله بيننا وبينكم مَن لثغور الشأم بعد أهل الشأم؟ مَن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ مَن لجهاد الروم ومَن للتُّرك وللكفّار؟

ورُفع في عسكر معاوية نحو خمسمائة مصحف؛ وفي ذلك يقول نجاشي بني الحارث[2].

فأصبحَ أهلُ الشأم قَد رَفعوا القنا ... عليهَا كتَاب اللــه خَير قـرآنِ
ونَادوا عليًّا: يـا ابـن عمٍّ محمّدٍ ... أمـا تتّقـي أن يهلكَ الثقــلانِ؟

فلمّا رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا:
نُجيب إلى كتاب الله ونُنيبُ إليه.

وأحبّ القوم الموادعة، وقال لعليّ عليه السلام كثير من أصحابه:
قد أعطاك معاوية الحقّ ودعاك إلى كتاب الله تعالى فاقبل منه.

وكان أشدّهم في ذلك الأشعث بن قيس[3]؛ فقال عليّ عليه السلام:

---

١ ـ ذلك أنّ معاوية كان قد وعد عمرو بن العاص بولاية مصر إن انتصر. فذكّره بذلك وقال له ما معناه: "افعل شيئًا من مفاجآتك" بالنظر لحراجة الموقف.

٢ ـ **النجاشي قيس بن عمرو الحارثي** (ت حوالى٦٦٠): شاعر يمنيّ عاش في نجران وملّة، ناصر عليًّا في صفّين، أدمن السكر فطُرد ولجأ إلى معاوية ثم عاد إلى اليمن وتوفّي فيها.

٣ ـ **الأشعث بن قيس الكندي** (٦٠٠ ـ ٦٦١): من أمراء كندة، وفد على النبيّ ﷺ مع جماعة من قومه ليعلن إسلامهم سنة ٦٣١. شهد اليرموك والقادسيّة ونهاوند إضافة إلى صفّين. توفّي في الكوفة

أيّها الناس، إنّه لم يزل بي من أمركم ما أحبُّ حتّى قرحتكم الحرب وقد والله أخذت منكم وتركت. وإنّي كنت بالأمس أميرًا فأصبحت اليوم مأمورًا وقد أحببتم البقاء؟

فقال الأشتر[1]:

إنّ معاوية لا خلف له من رجاله ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل نصرك ولا صبرك؛ فأقرع الحديد بالحديد واستعن بالله تعالى...

وتكلّم رؤساء أصحاب عليّ عليه السلام بنحو من كلام الأشتر. فقال الأشعث بن قيس:

إنّ لك اليوم على ما كنّا عليه أمس. ولسنا ندري كيف يكون غدًا... وقد والله كلّ الحديد وقلّت البصائر.

وتكلّم معه غيره بكلام كثير، فقال عليّ عليه السلام[2]:

ويحكم إنّهم ما رفعوها لأنّهم يعلمونها ولا يعلمون بها. وما رفعوها لكم إلاّ دهاءً وخديعة ومكيدة!

فقالوا له:

إنّه ما يسعنا أن نُدعى إلى كتاب الله، عزّ وجل، فنأبى أن نقبله.

فقال:

ويحكم! إنّما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله في ما أمرهم به ونبذوا كتابه، فأمضوا على حقّكم وصدقكم وجدّوا في قتال عدوّكم؛ فإنّ معاوية وابن العاص وابن أبي مُعيط وحبيب ابن سلمة وابن النابغة وعددًا غير هؤلاء ليسوا

---

١ ـ راجع: شرح نهج البلاغة، ١: ١٨٥.

٢ ـ راجع: شرح نهج البلاغة، ١: ١٨٦؛ والطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣.

بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرَف بهم منكم، صحبتهم أطفالاً ورجالاً، فهم شرّ أطفال ورجال!

وجرى له مع القوم خطب طويل... وتهدّدوه أن يُصنع به ما صُنع بعثمان[1].

ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الأشعث، وجّه كلامه هنا إلى عليّ عليه السلام قائلاً:
والله لئن لم تُجبهم إنصرفت عنك.

ومالت اليمانيّة مع الأشعث، فقال الأشعث:
والله لتجيبنّهم إلى ما دعوا إليه، أو لنَدفعنَّك إليهم برمّتك...

فتنازع الأشتر والأشعث في هذا كلامًا عظيمًا، فكاد أن يكون الحرب بينهم، حتّى خاف عليّ عليه السلام أن يفترق عنه أصحابه. فلمّا رأى ما هو فيه أجابهم إلى الحكومة[2]...

بعد أن رضخ عليّ عليه السلام لرأي المطالبين بالتحكيم "قال الأشعث:
إن شئت أتيتُ معاوية فسألته ما يريد.

فقال الخليفة عليّ عليه السلام:
ذلك إليك، فإئته إن شئت.

فأتى الأشعث معاوية وسأله فقال له معاوية[3]:
نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه؛ تبعثون منكم رجلاً ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعًا إلى ما اتّفقنا عليه من حكم الكتاب.

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٣٧ ـ ١٣٩؛ راجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٢٩.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٩؛ المقصود بالحكومة هنا:التحكيم.

٣ ـ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣٣.

فصوّب الأشعث قوله وانصرف إلى عليّ عليه السلام، فأخبره بذلك، فقال أكثر الناس: رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا.

فاختار أهل الشأم عمرو بن العاص. وقال الأشعثُ ومن ارتدّ بعد ذلك من الناس إلى رأي الخوارج:

رضينا نحن بأبي موسى الأشعريّ.

فقال عليّ عليه السلام:

قد عصيتموني في أوّل هذا الأمر، فلا تعصوني الآن. إنّي لا أرى أن أولّي أبا موسى.

فقال الأشعث ومن معه:

لا نرضى إلاّ بأبي موسى.

قال:

ويحكم! ليس هو بثقة وقد فارقني وخذل الناس منّي، وفعل كذا وكذا (وذكر أشياء فعلها أبو موسى الأشعريّ) ثمّ إنّه هرب شهورًا حتّى آمنته؛ ...هذا عبد الله بن عبّاس أوليه[1] ذلك.

فقال الأشعث وأصحابه:

والله! لا يحكم فينا مضريّان.

قال عليّ عليه السلام: فالأشتر.

قالوا: وهل أشعل ما نحن فيه إلاّ الأشتر؟

---

١ ـ في الطبري: نوليه بدل أوليه، وللفارق معنى ينمّ عن وضع علي عليه السلام يومذاك.

قال: فاصنعوا الآن ما شئتم وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه.

فبعثوا إلى أبي موسى وكتبوا القصّة؛ وقيل لأبي موسى: "إنّ الناس قد اصطلحوا". فقال: "الحمد لله رب العالمين". قالوا: "وقد جعلوك حكمًا". قال:"إنّا لله وإنّا إليه راجعون"[1].

***

إنّ المدقّق في التاريخ، يتأكّد من أنّ الخروج على عليّ ﷺ من قبل بعض من كانوا حتّى موقعة صفّين من أنصاره، لم يأتِ بعد التحكيم. وإذا وردت في هذا الكتاب تسمية عليّ ﷺ بأمير المؤمنين، برز قوم من صفّ عليّ ﷺ، وعلى رأسهم أبو الأعور السلميّ، ليعترضوا على هذه الصفة. غير أنّ أصحاب عليّ ﷺ، رفضوا إلاّ أن تبقى صفة أمير المؤمنين تابعة، في الكتاب، لعليّ ﷺ. "فتنازعوا على ذلك منازعة شديدة حتّى تضاربوا بالأيدي، فقال الأشعث: ـ أُمحو هذا الإسم! ـ. فقال له الأشتر: ـ والله يا أعور لهممت أن أملأ سيفي منك. فلقد قتلت قومًا ما هم شرٌّ منك، وإنّي أعلم أنّك ما تحاول إلاّ الفتنة، وما تدور إلاّ على الدنيا وإيثارها على الآخرة ـ. فلمّا اختلفوا قال عليّ ﷺ: ـ الله أكبر! قد كتب رسول الله ﷺ يوم الحديبيّة لسهيل بن عمرو: ـ هذا ما صالح رسول الله ـ. فقال سهيل: ـ لو علمنا أنّك رسول الله ما قاتلناك ـ؛ فمحا رسول الله ﷺ اسمه بيده، وأمرني فكتبت: ـ من محمّد بن عبد الله ـ وقال: ـ إنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بنبوّتي ـ وكذلك كتبت الأنبياء، كما كتب رسول الله ﷺ إلى الآباء، وإنّ اسمي واسم أبي لا يذهبان بإمرتي. ـ وأمرهم، فكتبوا: "من علي ابن أبي طالب"[2].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٣٩ ـ ١٤٠.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٨٩.

وفي النهاية، نُصّت الوثيقة، وجاء فيها أنّ "الفريقَين يرضون بذلك بما أوجبه كتاب الله". واشترطت الوثيقة "على الحكَمين أن يحكما بما في كتاب الله من فاتحته إلى خاتمته لا يتجاوزان ذلك، ولا يحيدان عنه إلى هوى، ولا إدهان"[1]، كما نصّت الوثيقة على "أنْ يُحيي الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن"[2]... وقال عليّ ﷺ للحكمَين:

> إن لم تحكما الاّ بما في كتاب الله تعالى فكتاب الله كلّه لي؛ فإن لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما[3].

ونصّ الاتّفاق على أن يكون موعد التحكيم، في دومة الجندل، وهي بين الكوفة والشأم، بعد حوالى سنة ونصف من تاريخ الاتّفاق، أي في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩م/ رمضان ٣٨ هـ. أمّا تاريخ الاتّفاق، فكان في نهاية "صفر سنة سبع وثلاثين من الهجرة، وقيل بعد هذا الشهر"[4].

وبذلك انتهت واقعة صفّين، وهي تُعدُّ من أرهب المعارك التي جرت بين المسلمين، إذ قدّر المدوّنون عدد الذين سقطوا في هذه المعركة، التي دامت مائة وعشرة أيّام، بحوالى مائة وعشرة آلاف من الفريقَين: منهم تسعون ألفًا من أهل الشأم، وعشرون ألفًا من أهل العراق[5]. ويذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنّ عدد الذين قاتلوا

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٩٠.

٢ ـ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٣٦.

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤١.

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٢.

٥ ـ الدورقي أحمد بن ابراهيم، عن يحيى بن معين المسعودي، ٣: ١٤٣.

في صفوف معاوية كان يزيد على مائة وخمسين ألف مقاتل، خلافًا للتقديرات التي ذكرت بأنّهم حوالي ٨٥ ألفًا، ويقولون إنّ عددًا مماثلاً لهذا، كان يرافقهم، من خدم وسواهم، أي أنّ مجموع جيش معاوية كان بحدود الثلاثمائة ألف، على الأقلّ. ويقول هذا الرأي بأنّ أهل العراق كانوا في حدود المائة وعشرين ألف مقاتل، ما عدا الأتباع والخدم. إلاّ أنّ رواة آخرين، يقدّرون أنّ عدد قتلى صفّين، قد بلغ حوالى سبعين ألفًا: خمسة وأربعين ألفًا من أهل الشام، وخمسة وعشرين ألفًا من أهل العراق، فيهم خمسة وعشرون بدريًّا[1].

بتفسّخ صفّ عليّ عليه السلام، وكان قد بدأ حربه الثالثة، بعد الجمل، وصفّين، مع الخوارج[2]، وبسبب "تفور عدد كبير من أعوان عليّ عليه السلام نتيجة السياسة المتردّدة المتقلّبة"[3]، وفي الوقت الذي كان الحكَمان المعيّنان، يُميلان الدفّة لمصلحة معاوية، فعندما حصل مؤتمر التحكيم، كان الاتّجاه سائرًا نحو تنحية عليّ عليه السلام عن الخلافة، حقنًا لدماء المسلمين.

وكان عليّ عليه السلام قد وجّه إلى المؤتمر، ابن عمّه: عبد الله بن العبّاس، السديد الرأي الملقّب بحبر المسلمين، في أربعمائة من أصحابه، كما أرسل معاوية عددًا مماثلاً[4]، على رأسه، إضافة إلى الحكَم، عمرو بن العاص، وشرحبيل بن السِّمط. وكان هذا العدد، ليس لإلقاء الرهبة، إنّما ليكون أعضاؤه شهودًا.

---

١ ـ الهيثم بن عدي؛ الشرقي بن القطامي؛ أبو مخنف لوط بن يحيى؛ المسعودي، ٣: ١٤٣.

٢ ـ راجع: الفصل التالي: نشوء الطوائف في الإسلام، مقطع: الخوارج.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٧.

٤ ـ اختلفت المدونات حول مكان هذا المؤتمر، بين: إذرع، محطّة القوافل بين معان والبتراء على طريق الحج، ودومة الجندل: واحة وبلدة في جوف السرحان، وأرض البلقاء في الاردن.

يتّضح حذر عليّ ﷺ، وأصحابه، من تحكيم أبي موسى الأشعريّ، من الكلام الذي وجّهه عبد الله، حبر الإسلام، إلى الأشعريّ، قبيل وصول الوفد إلى المؤتمر، إذ قال له:

إنّ عليًا لم يرضَ بك حكمًا لفضل غيرك، والمتقدّمون عليك كثير، وإنّ الناس أبوا غيرك، وإنّي لأظنّ ذلك لشرّ يُراد بهم وقد ضُمّ داهية العرب معك. فمهما نسيت فلا تنسَ أنّ عليًّا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليست فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليست في معاوية خصلة تقرّبه من الخلافة[1].

في هذه الأثناء، كان معاوية يوصي مندوبه بقوله:

"يا أبا عبد الله، إنّ أهل العراق قد أكرهوا عليًّا على أبي موسى، وأنا وأهل الشأم راضون بك؛ وقد ضُمَّ إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخّر الحزّ وطبّق المفصل[2]، فلا تلقه برأيك كلّه"[3].

محضَر

التحكيم

وفي ما يلي، محضر التحكيم على ما جاءَ في... المدوّنات:

كان التقاء عمرو وأبي موسى في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين؛ فقال عمرو لأبي موسى: "تكلّم وقل خيرًا". فقال أبو موسى: "بل تكلّم أنت يا عمرو". فقال

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٥.

٢ ـ انظر المثل: إنّك لتكثر الحز وتخطىء المفصل (الميداني، ١: ٥٩)

٣ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٥.

عمرو: "ما كنت لأفعل وأقدّم نفسي قبلك، ولك حقوق كلّها واجبة لسنّك وصحبتك رسول الله ﷺ، وأنت ضيف"[1].

فتكلّم أبو موسى، فحمد الله وأثنى عليه وذكر الحدث الذي حلّ بالإسلام والخلاف الواقع بأهله ثم قال:

يا عمرو هلمّ إلى امرءٍ[2] يجمع الله به الإلفة ويلمّ الشعَث ويُصلح ذات البَين.

فجزاه عمرو خيرًا وقال:

إنّ للكلام أوّلاً وآخرًا ومتى تنازعنا الكلام خطبًا لم نبلغ آخره حتّى ننسى أوّله، فاجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا.

قال: "فاكتب".

فدعا عمرو بصحيفة وكاتِب وكان الكاتب غلامًا لعمرو، فتقدّم إليه أن يبدأ به أوّلاً دون أبي موسى لما أراد به من المكر به؛ ثمَّ قال له بحضرة الجماعة: "أكتب، فإنّك شاهد علينا ولا تكتب شيئًا أمرك به أحدنا حتّى تستأمر الآخر فيه؛ فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فاصبر حتّى يجتمع رأينا؛ أكتب: باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان" (فكتب الكاتب وبدأ بعمرو) فقال له عمرو: "لا أم لك! أتقدّمني قبله كأنّك جاهل بحقّه؟ (فبدأ باسم عبد الله بن قيس وكتب:) تقاضيًا على أنّهما يشهدان أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله أرسله ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ

---

١ ـ إذا صحّ هذا الكلام، وقد اعتبر مندوب معاوية أن مندوب عليّ عليه السلام "ضيف" فيكون المؤتمر قد عُقد في أرض تابعة لحكم معاوية.

٢ ـ يُستدلّ من هذه العبارة أنّ بداية التحكيم كانت تتّجه إلى تسمية خليفة جديد: "هلم إلى امرءٍ يجمع الله به الإلفة..." إلاّ أنّ خلافًا قد سجّل حول كلمة "امرءٍ" وقد وردت في بعض المدونات "أمرٍ" وليس "امرءٍ" عندها يتغيّر المعنى تمامًا.

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. ثمّ قال عمرو: "ونشهد أنّ أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنّة رسوله حتّى قبضه الله إليه وقد أدّى الحقَ الذي عليه". فقال أبو موسى: "أكتب"؛ ثم ذكر في عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى: "أكتب"؛ ثم قال عمرو: "إنّ عثمان ولّي هذا الأمر بعد عمر على اجتماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى منهم وإنّه كان مؤمنًا". قال أبو موسى: "ليس هذا ممّا قعدنا له". فقال عمرو "لا بدّ من أن يكون كافرًا أو مؤمنًا"؛ قال أبو موسى: "كان مؤمنًا"؛ قال عمرو: "فمره يكتب"؛ فقال أبو موسى: "أكتب". قال عمرو: "وظالمًا قُتل عثمان أو مظلومًا؟"؛ قال أبو موسى: "مظلومًا"؛ قال: "أفليس قد جعل الله لولّي المظلوم سلطانًا يطلب بدمه؟"؛ قال أبو موسى: "نعم"؛ قال عمرو: "فهل تعلم لعثمان وليًّا أقوى من معاوية؟"؛ قال أبو موسى: "لا"؛ قال عمرو: "أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتّى يقتله أو يعجز عنه؟"؛ قال: "بلى"؛ قال عمرو للكاتب: "أكتب" وأمره أبو موسى فكتب؛ فقال عمرو: "فإنّا نقيم البيّنة أنّ عليًّا قتل عثمان"؛ قال أبو موسى: "هذا أمر قد حدث في الإسلام وإنّما اجتمعنا لغيره؛ فهلمّ إلى أمر يصلح الله تعالى به أمر أمّة محمّد ﷺ"؛ فقال عمرو: "وما هو؟"؛ قال أبو موسى: "قد علمت أنّ أهل العراق لا يحبّون معاوية أبدًا، وأهل الشأم لا يحبّون عليًّا أبدًا، فهلمّ نخلعهما جميعًا ونستخلف عبد الله بن عمر"[2] فقال عمرو: "أيفعل ذلك عبد الله؟"؛ قال أبو موسى: "نعم، إذا حمله الناس على ذلك"؛ فعمد عمرو إلى كلّ ما مال إليه أبو موسى فصوّبه وقال: "هل لك في سعد؟"؛ قال أبو موسى: "لا"... وعدّد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك الاّ ابن عمر؛ فأخذ عمرو الصحيفة فطواها ووضعها تحت قدمه من بعد أن ختماها جميعًا،

---

١ ـ التوبة: ٣٣؛ و الصف، ٩.

٢ ـ كان عبد الله بن عمر صهر أبي موسى زوج ابنته.

وقال عمرو: "أرأيت إن رضي أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه (رفضه) أهل الشأم أتقاتل أهل الشأم؟"؛ قال أبو موسى: "لا"؛ قال عمرو: "فإن رضي أهل الشأم وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق؟"؛ قال أبو موسى: "لا"؛ فقال عمرو: "أمّا إذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم واخطب الناس واخلع صاحبَينا معًا وتكلّم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه"؛ فقال أبو موسى: "بل أنت فقم فاخطب، فأنت أحقّ بذلك"؛ فقال عمرو: "ما أُحبّ أن أتقدّمك وما قولي وقولك للناس إلاّ واحد فقم راشدًا".

فقام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ﷺ، ثم قال:

أيّها الناس إنّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولمّ الشعَث وحقن الدماء وجمع الإلفة خلعنا عليًّا ومعاوية، وقد خلعت عليًّا كما خلعت عمامتي هذه (ثم أهوى إلى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلاً قد صحب رسول الله ﷺ بنفسه وصحب أبوه النبيَّ ﷺ فبرّز في سابقته، وهو عبد الله بن عمر.

وأطراه ورغّب الناس فيه، ثمّ نزل.

فقام عمرو فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله ﷺ ثمّ قال:

"أيّها الناس إنّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب وهو أعلم به، ألا وإنّي قد خلعت عليًّا معه وأُثبّت معاوية علَيّ وعليكم، وإنّ أبا موسى قد كتب في الصحيفة أنّ عثمان قُتل مظلومًا شهيدًا وأنّ لوليّه سلطانًا يطلب بدمه حيث كان؛ وقد صحب معاوية النبيّ ﷺ وصحب أبوه النبيّ ﷺ فهو الخليفة علينا وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان."

فقال أبو موسى:

كذب عمرو، لم نستخلف معاوية وإنّما خلعناه وخلعنا عليًّا معه

فقال عمرو: كذب عبد الله بن قيس قد خلع عليًّا ولم أخلع معاوية[1].

وفي تفصيل آخر، أنّهما "اتّفقا على خلع عليّ ومعاوية، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى، يختار الناس رجلاً يصلح لهم؛ فقدّم عمرو أبا موسى فقال أبو موسى: "إنّي قد خلعت عليًّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم"؛ وتنحّى؛ فقام عمرو مكانه وقال: "إنّ هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبّت صاحبي معاوية". فقال أبو موسى: "ما لك لا وفّقك الله! غدرتَ وفجرتَ وإنّما مثَلك كمثل الحمارِ يحمِلُ أسفارًا"[2]؛ فقال عمرو: "بل إيّاك يلعن الله كذبت وغدرت، إنّما مثَلك كمثل الكلب إن تَحْمل عليه يلهثُ أو تتركه يلهثُ"[3]. ثمّ ركل أبا موسى فألقاه لجنبه: فلمّا رأى شريح بن هانيء الهمذانيّ ذلك قنّع عمرًا بالسوط، وانخزل أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكّة، ولم يعد إلى الكوفة، وقد كانت خطّته وولْده بها، وآلى أن لا ينظر في وجه عليّ (ع) ما بقي؛ ومضى سعد وابن عمر إلى بيت المقدس فأحرما"[4].

وهكذا، وباعتقادنا أنّه بعكس ما ذهب إليه الاعتبار السائد، فإنّ التحكيم لم يؤتِ ثماره. وبالتالي، لم يضع خاتمة لخلافة عليّ (ع). إنّما الشأن الذي قهقر خلافة عليّ (ع) هو: مبدأ القبول بالتحكيم، قبل حوالى سنة ونصف من تاريخ التحكيم نفسه. إذ منذ ذلك الحين، منذ القبول بمبدأ التحكيم، أصبح الإسلام شعثًا.

---

١ ـ نقلاً عن: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٤٥ ـ ١٤٨.

٢ ـ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الجمعة: ٥ .

٣ ـ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦.

٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٤٨ ـ ١٤٩؛ راجع الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٥٩؛ وشرح نهج البلاغة، ١: ١٩٨؛ واليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٩٠.

الإنقسام

ما أن ارفضّ مجلس التحكيم على خلاف، في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩، حتّى وفى معاوية بوعده لعمرو، فولاّه مصر[1]، بعد أن بايع أهل الشأم معاوية "الذي انصرف إلى أهله خليفة". في هذه الأثناء، اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج في الحروريّة - أو حاروراء - بالقرب من الكوفة، وسمّوا عبد الله بن وهب الراسبيّ خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحروريّة. وقد جعلوا شعارهم: "لا حكم إلاّ لله".

وبذلك، بات في الإسلام، للمرّة الأولى، أكثر من خليفة. بل أصبح هنالك ثلاثة خلفاء: الخليفة الشرعيّ عليّ بن أبي طالب. والخليفة المتمرّد، معاوية. وخليفة الخوارج، عبد الله بن وهب الراسبيّ.

---

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٥٢، وفيه تفاصيل الرواية التي تتحدث عن محاولة عمرو ابتزاز معاوية، وعن كيفيّة قيام معاوية بإيقاع عمرو في فخ نصبه له، فمنعه عن ابتزازه.

الفَصلُ السَّادِس

إنتشَار الإسلام

قبلَ منتصَفِ القَرنِ السَّابع

رقعَةُ الإسلام في عُهُودِ الرَّاشِدِين؛

الإنتشار الإسلاميّ في عَهدِ الرَّسول؛

في عَهد أبي بَكر؛ في عَهد عُمَر؛ في عَهد عُثمَان؛

لمحَة كاملَة عن انتشَار الإسلام في القارَة الأفريقيَة.

رقعةُ الإسلامِ

في عُهُودِ الرَّاشِدِين

عندما قبض الرسول ﷺ، كانت رسائله قد أجفلت القادة والملوك في العربيّة الحبشة وفارس والقسطنطينيّة. وما كان أحد يتوقّع أن تكون تلك الرسائل الداعية إلى الإسلام، إنذارًا حقيقيًّا جديًّا لا مفرّ من تداعياته. ولا شكّ في أنّ أحدًا من أولئك القادة الذين قرأوا عبارة "أسلم تسلم"، لم يفقه لبّ المضمون وجوهره، ولا أدرك أنّه إن لم يتّجه طوعًا إلى الإسلام، فإنّ الإسلام آت إليه لا محالة.

في الواقع، كانت الدولتان الوحيدتان اللتان تتمتّعان بقوّة عالميّة يومذاك، فارس وبيزنطية. في حين لم يكن العرب شيئًا مذكورًا على هذا الصعيد. فمَن من معاصري تلك الحقبة كان باستطاعته أن يتكهّن أنّ مثل ما حدث سيحدث، أو أنّه من الأمور المحتملة الوقوع؟[1]

يصوّر بحّاثة في تاريخ الشرق هذا الواقع، مشيرًا إلى أنّه بينما كانت الحروب على أشدّها بين الفرس والبيزنط، كانت فرقة من ثلاثة آلاف رجل عربيّ تشنّ غارة

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٣.

على بلدة تدعى "مؤتة" واقعة إلى الشرق من ساحل البحر الميت الجنوبيّ، يقودها زيد بن حارث ربيب محمّد ﷺ. وكان الغرض من هذه الغارة، على ما يبدو، الانتقام لرسول، قتله أحد العرب الغساسنة، وكان النبيّ ﷺ قد بعث به إلى "بصرى" من أجل أن يعود منها، إلى الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا، بغنائم ذات بال بينها السيوف المشرقيّة المفضّلة التي كانت تُصنع في تلك النواحي[1]. وقد اعتبرت هذه الخطّة التي اختطّها محمّد ﷺ بمهاجمة البلدان المتاخمة، ممّا يزيد في قدر الدين الجديد وشهرته بين المؤمنين. أمّا زيد فقد سقط في ساحة القتال، وأمّا بقيّة جيشه فعاد بهم إلى المدينة القائد الفتيّ خالد بن الوليد[2]، الذي لم يلبث أن غدا بطل الإسلام الحربيّ. ولم تكن هذه الغزوة في نظر سكّان مؤتة، سوى واحدة من غزوات البدو المتكرّرة التي اعتادها من أمد بعيد، لكنّها كانت، في واقع الأمر، السهم الأوّل في نزاع لم يهدأ حتّى استسلمت بيزنطة، وحلّ اسم النبيّ العربيّ ﷺ في معابدها محلّ اسم المسيح[3].

إستعرضنا في الفصول السابقة، في مجال الحديث عن الفتوحات الأولى، وبالتالي عن فتوحات الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول: أبي بكر، وعمر، وعثمان، المجالات التي وصلها الإسلام في الجزيرتَين العربيّة والعراقيّة، وفي بلاد الشام، وفارس، ومصر، وبعض أفريقيا. وسوف يستمرّ استعراض الفتوحات ومجالاتها في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة، تبعًا لحقب الخلافات والممالك والسلاطين، إكمالاً من عهد رابع الخلفاء

---

١ ـ راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.) ٤: ٥٣٦؛ DE GOEGE M. J., *MÉMOIRE SUR LA CONQUÊTE DE LA SYRIE* (LEYDEN,1900) P.5.

٢ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ١٦١٠.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٤.

الراشدين، مروراً بالأمويّين فالعبّاسيّين وصولاً إلى العثمانيّين، فإلى واقع الإسلام اليوم. غير أنّنا سنتوقّف في الفصل التالي من هذا الجزء الذي خصّصناه لنشوء الإسلام وانتشاره، عند فتح الأندلس، وهو المدى الأوسع الذي طاله الإسلام قبل العهد العثمانيّ. أمّا هنا، فسنحاول أن نرسم خريطة انتشار الإسلام قبل ذلك التاريخ.

الانتشار الإسلاميّ
في عَهد النبيّ ﷺ

بعد أن نشر الإسلام في المدينة المنوّرة ومكّة المكرّمة، وضواحيهما، قاد النبيّ محمّد ﷺ سنة ٦٣٠ بنفسه حملة على واحة تبوك، في شمال الحجاز، على طريق الحجّ، بين دمشق والمدينة، ومنها شرع المفاوضات مع المواطن المجاورة انتهت بخضوع سكّانها. فقد أمّن الأقوام على أرواحهم، ومُنحوا حقّ الاحتفاظ بممتلكاتهم، والبقاء على عقائدهم، شريطة أن يدفعوا جزية سنويّة. وكان أوّل هذه المواطن قاعدة "أيلة" الواقعة في رأس خليج العقبة، وسكّانها نصارى. تليها "مقنا"، الواحة الواقعة إلى الجنوب من أيلة على ساحل الخليج، وسكّانها من اليهود الذين كانوا يمارسون، في الغالب، صناعة الحياكة وصيد الأسماك. ثمّ "إذرح" الواقعة بين "البتراء" و"معان"، وعدد سكّانها نحو مائة أسرة. ثمّ "الجرباء" على مسيرة ساعة من إذرح شمالاً على الطريق الرومانيّ القديم بين بصرى والبحر الأحمر، وسكّانها نصارى أيضًا[1]. وقد كانت هذه المواطن الوحيدة في سورية التي اتّصل بها الإسلام في غضون حياة النبيّ محمّد ﷺ. ولقد كانت الشروط التي استسلمت

---

[1] راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٦٦ ـ ٦٨.

بموجبها[1] موعزة بما سيجيء. فإنّ حملات محمّد ﷺ على هذه المواطن لم تكن إلاّ بمثابة محاولات تجريبيّة لِما قدّر أن يتمّ في ما بعد على أيدي خلفائه.

في عَهد

أبي بكر

وكما رأينا سابقًا، فإنّه في عهد أوّل الخلفاء الراشدين: أبي بكر الصدّيق (خليفة ١١ ـ ١٣هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م) قد تمّ، على يد خالد بن الوليد، فتح "بانقيا" و"كسكر" و"الحيرة" و"الخورنق" في العراق؛ واسترداد " البحرين" من المرتدّين على يد العلاء بن الخضرميّ؛ و"عمان" على يد حذيفة بن محصن؛ و"اليمن" على يد زياد بن لبيد البياضيّ. وفي عمْر ولاية أبي بكر القصير، الذي لم يدم سوى أكثر من سنتَين بقليل، تمكّن جيش الإسلام، بعد إخضاع الجزيرة العربيّة، من بدء مواجهة الروم في بلاد الشام ونواحيها وإخضاعهم، بقيادة كلٍّ من: يزيد بن أبي سفيان الذي فتح فلسطين؛ وأبي عبيدة بن الجرّاح الذي كانت له فتوحات في بلاد الشام؛ وشرحبيل بن حسنة الذي فتح البلقاء بفلسطين؛ وعمرو بن العاص الذي انتصر على البيزنطيّين في أجنادين فلسطين، وفتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون، واحتلّ الإسكندريّة ٦٤٢، وحكم مصر، وبنى مدينة الفسطاس، وتوفّي بالقاهرة سنة ٦٦٤؛ وخالد بن الوليد الذي قاد الجيوش الإسلاميّة في فتوح فارس والشام، وانتصر على الفرس واحتلّ الحيرة سنة ٦٣٣، وهزم الروم بأجنادين سنة ٦٣٤ واليرموك سنة ٦٣٦ وإن في عهد عمر؛ وشدّد

---

١ ـ راجع: البلاذري، مرجع سابق، ص٥٩ ـ ٦٠.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ص٤ ـ ٥.

قبضة الخلافة على مناطق البحرين بقيادة عثمان بن أبي العاص والعلاء ابن الحضرميّ.

في عَهد عُمَــــر

في عهد عمر ابن الخطّاب (خليفة ١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) تعزّزت الفتوحات واتّسعت، فكان، على يد خالد ابن الوليد، فتح دمشق عاصمة البيزنطيّين في سورية، يوم كانت مملكتهم السوريّة تمتدّ من طوروس إلى سيناء، وقد فتحت دمشق أبوابها للفاتحين العرب سنة ٦٣٥ بعد حصار دام ستّة أشهر؛ ثمّ كان فتح الجابية، فاستقبال المسلمين من قبل القبائل المسيحيّة المتنصّرة في بلدات ضفاف العاصي، أهل شيزر، الذين استقبلوا العرب بالغناء والأهازيج وضرب الطبول؛ وفتح عمرو بن العاص وشرحبيل للأردنّ عنوة؛ وبعلبك وأرض البقاع على يد خالد بن الوليد؛ ومن هناك توجّه إلى حمص، حيث لحقه أبو عبيدة، وحاصرا بجيوشهما المدينة حصارًا شديدًا حتّى طلب أهلها الصلح، ثمّ دخل المسلمون المدينة وبثّ أبو عبيدة عمّاله في نواحي حمص؛ وعزّزت الفتوحات في عهد عمر بمعركة اليرموك التي أبلى فيها أبو عبيدة سنة ٦٣٦، ولم تمضِ أيّام، حتّى سقطت قنسرين، ومنبج، وحلب في سورية ووُضع عليها الخراج؛ وبعد حصار طويل، سقط بيت المقدس سنة ٦٣٨؛ ثمّ كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٢؛ وقبل اغتياله، توّج الخليفة انتصارات الإسلام بفتح بلاد فارس. وبذلك تمكّن الإسلام في غضون سنوات معدودة من القضاء على أكبر أمبراطوريتَين في القرن السابع: بيزنطية وفارس.

في عَهد
عُثمَــان

في عهد ولاية عثمان (خليفة ٢٣ ـ ٣٥هـ/ ٦٤٤ ـ ٦٥٦م) فتــح المغيرة بـن شـعبة همذان سـنة ٦٤٤، ودخـل الـريّ وأنزلهــا المسـلمين[١]. وفــي السـنة التاليــة (٦٤٥م) "إنتفضت الإسكندريّة، فأعاد إخضاعهـا عمـرو بـن العـاص. وبذلـك يكـون الإسـلام قـد سيطر علـى مصـر وفلسـطين وبـرّ الشـام وقسـم مـن لبنـان وعلـى فلسـطين والأردن والعراق وقسم من بلاد فارس قبل منتصف القرن السابع.

لمحَـــــة كاملَــــة
عن انتشَار الإسلام

اختصر باحثون محدثون[٢] موضوع انتشار الإسلام على الشكل التالي:

قضـى النبـيّ محمّـد ﷺ وقتًـا طويـلاً يتعبّـد فـي غـار حـرّاء الليــالي ذوات العـدد، ولمّـا نـزل عليـه الوحـي يـأمره بتبليـغ رســالته ﴿وأنــذِر عشــيرتك الأقربيــن﴾[٣] وجّــه دعوتـه إلـى إقنـاع قومـه باعتنـاق الإسـلام، وكــانت زوجــه السـيّدة خديجــة أوّل مَـن آمن به، فزَيد بـن حارثـه، فعلـيّ بـن أبـي طـالب ، فـالصدّيق أبـو بكـر، ثـمّ تلاهـم غيرهم.

---

١ ـ يذكر مؤرّخون أنّ الريّ قد فُتحت في حياة عمر؛ وقيل لم تفتح، ولكنّها كانت محاصرة.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق.

٣ ـ الشعراء: ٢١٤.

بدأ محمّد ﷺ يجهر بدعوته، فدعا عشيرته إلى الدين الجديد لكنّه لاقى معارضة شديدة، ولا سيّما من قبيلة قريش، فأشار على أتباعه بالهجرة إلى الحبشة سنة ٦١٥ م.

ولمّا اعتنق عمر بن الخطّاب الإسلام سلك المسلمون مسلكًا أشدّ جرأة، وجهروا بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة، فأثار ذلك ضغينة قريش، وصمّم رجالها على مقابلة دعوة النبيّ ﷺ بالإهانة، ما اضطرّ محمّدًا ﷺ إلى الانطلاق إلى الطائف، حيث دعا فريقًا من أهلها إلى وحدانيّة اللّه، فأخرجوه من ديارهم. لكنّه لم ييأس.

وفي أحد مواسم الحجّ إلى مكّة، نجح محمّد ﷺ في التأثير على عقيدة بعض الحجّاج، فاعتنقوا الدين الحنيف، وكانت غالبيّتهم من المدينة، فارتبط معهم في محالفة سنة ٦٢٠م، وبهم انتشرت دعوة الإسلام فيها، فأمر النبيّ ﷺ أصحابه بالهجرة إليها، واصطحب هو أبا بكر في هجرته إلى المدينة في سنة ٦٢٢، فلمّا وصلوا قابلهم أهل المدينة بالترحاب، وسُمّي هذا الحدث الكبير بـ "يوم الهجرة".

في أعقاب ذلك، جاء نشوب عدّة معارك بين المسلمين والكفّار، وكان الجهاد قد كُتب على المسلمين بعد الهجرة، دفاعًا عن دينهم وكيانهم. وقبيل وفاة محمّد ﷺ ظهرت بالجزيرة حركة مقاومة للإسلام، اشتدّت بوفاته. ولكنّ الخليفة أبو بكر الصدّيق، صمّم على القضاء عليها، ونجح بفضل حكمته ومهارة قادته، ولم يكد يمضي عام وبعض عام حتّى عادت الجزيرة إلى الاعتصام بالإسلام. وقد بعث أبو بكر بأربعة جيوش إلى الشام سنة ٦٣٣، وبجيش آخر بقيادة خالد بن الوليد إلى العراق. ولم ينته عام ٦٣٤ حتّى سيطر خالد على شاطئ الفرات الغربيّ ثمّ اتّجه إلى فلسطين، وانتصر على البيزنطيّين في معركة أجنادين سنة ٦٣٤، ودخل دمشق سنة ٦٣٥، وقضى على أعداء الإسلام في معركة اليرموك سنة ٦٣٦.

إستمرّت الفتوح الإسلاميّة في زمن عمر بن الخطّاب في الميدان الفارسيّ، بقيادة سعد بن أبي وقّاص، وأحرز العرب نصرًا باهرًا على الفرس في القادسيّة سنة ٦٣٧، ثمّ استولوا على المدائن، وطاردوا فلول الفرس حتّى التقوا بها عند نهاوند سنة ٦٤٢، حيث هُزم يزدجرد.

بعد أن طُهّرت الشام من الجيوش البيزنطيّة، بلغت الجيوش العربيّة طوروس، وسار عمرو بن العاص من فلسطين لفتح مصر سنة ٦٣٩، واستولى على بابليون. ثمّ آلت البلاد كلّها إلى المسلمين بمقتضى معاهدة الإسكندريّة سنة ٦٤٢.

في أيّام عثمان بن عفّان توغّلت جيوش العرب شرقًا في باقي أقاليم فارس، كما تقدّمت شمالاً في أرمينيا، وتمكّن الأسطول الإسلاميّ من إحراز النصر البحريّ على البيزنطيّين في معركة ذات الصواري سنة ٦٥٥.

وفي أيّام معاوية الأمويّ استؤنفت الفتوح الإسلاميّة، فهاجم معاوية القسطنطينيّة، وغزت جيوشه أفريقيا، ثمّ توقّفت حركة الإنطلاق العربيّ بسبب عودة الفتن الداخليّة، ووقعت حروب دامية بين الأمويّين وآل زبير في الحجاز والشام والعراق، تمّ النصر النهائيّ فيها لعبد الملك بن مروان. وفي أيّام خلفه الوليد، اندفعت الجيوش من الأراضي الفارسيّة في شعبتَين: إتّجهت إحداهما إلى بلاد ما وراء النهر، واستولت على بخارى وسمرقند وفرغانة وقشغر وبلغت أطراف الصين، واتّجهت الشعبة الثانية إلى الهند بقيادة محمّد بن القاسم الثقفيّ واستولت على بلاد السند حتّى مدينة الملتان. أمّا في شمال أفريقيا فتقدّمت الجيوش من برقة إلى المغرب بعد عدّة معارك، تحت قيادة عقبة وحسّان وموسى بن نصير، ودخل الأهلون في الإسلام. وأوفد موسى القائد طارق بن زياد لفتح الأندلس، على رأس قوّات من البربر والعرب، فقضى على دولة القوط الغربيّين، ووصل إلى جبال البرانس. وفي موجة تالية زحفت الجيوش العربيّة

إلى "غاليا" في جنوب فرنسا، ولكن توقّفت الفتوح عند مدينة "تور ـ بواتيه"، حيث تمكّن شارل مارتل من صدّ الجيوش الإسلاميّة[1].

صاحَبَ هذا التوسّع العربيّ السريع ظاهرة انتشار الإسلام في الأقطار المفتوحة، وانتقال اللغة العربيّة إليها. وفي الهند توقّفت الفتوح الإسلاميّة في زمن الأمويّين، ثمّ استؤنفت في زمن الخليفة المأمون وأخيه المعتصم، إلى كشمير، ثمّ نهض الغزنويّون، الذين استقلّوا بشؤونهم عن الخلافة العبّاسيّة ببغداد (٩٦٢ ـ ١١٨٦)، واتّخذوا غزنة ببلاد الأفغان عاصمة لهم، وقاموا بعدّة حملات موفّقة في الهند، حيث دعم سلاطين المغول: بابر، وأكبر، الإسلام، ولا سيّما في الشمال، في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب ينسحبون من الأندلس، استولى العثمانيّون، بعد تأسيس دولتهم القويّة في آسية الصغرى، على ملك البيزنطيّين في أوروبّا، في أعقاب استيلاء محمّد الفاتح على القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣، ثمّ ضمّوا القرم سنة ١٤٧٥، وجزر بحر إيجة، وجزءًا من إيطاليا. وفي أيّام سليمان القانونيّ (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، اخترقت الجيوش العثمانيّة قلب أوروبّا، واستولت على بلغراد سنة ١٥٢١، ثمّ أصبحت المجر ولاية عثمانيّة سنة ١٥٢٦، ولم تستطع الجيوش الاستيلاء على فيينّا بالرغم من الحصار الطويل. وتمكّن سليمان من طرد الإسبان من شمال أفريقيا، وكانوا يحلمون بضمّ تلك البلاد إليهم.

في أثناء الحكم العثمانيّ للبلدان الأوروبّيّة التي سقطت بأيديهم، اعتنق كثير من السكّان الدين الإسلاميّ، وأصبح مسلمو البوسنة والهرسك وبلغاريا وألمانيا من أشدّ

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٢١٤ ـ ٢١٥.

المسلمين تمسّكًا بالإسلام. وانضمّت إليهم نسبة غير قليلة من سكّان قبرص وكريت ورودوس.

ولقي الإسلام أرضًا طيّبة في الشرق الأقصى بفضل رجال الدعوة والتجّار المسلمين، الذين جاؤوا إلى الملايو وجزر الهند الشرقيّة. وبلغ انتشار الإسلام أوجه في الركن الشماليّ من جزيرة سومطرة في القرن الثالث عشر، حيث أسلم بعض الحكّام، وتبعهم كثير من الأهالي. ثمّ انتشر الإسلام أيضًا في جاوة بفضل الدعاة، وكثرت فيها مراكز الدعوة. ومن هاتَين الجزيرتَين انتقلت جاليات إسلاميّة إلى الملايو منذ القرن الثالث عشر، واستقرّت جاليات إسلاميّة في الأطراف الجنوبيّة من البلاد، وأسّس أحفاد المسلمين مدينة "ملقا". ومن الملايو وجد الإسلام طريقه إلى سيام والهند الصينيّة.

أمّا الصين، فقد دخل إليها الإسلام مع التجّار المسلمين، منذ أن استقرّوا بالمدن الهامّة في القرن الثامن، إذ منحتهم أسرة "تانغ" الملكيّة حريّة العبادة وأداء شعائر الإسلام. وأدّت الفتوح الأمويّة في أواسط آسيا إلى قيام الاتّصال بين الدولة الإسلاميّة والصين، ومن ثمّ نشأت جاليات إسلاميّة بداخل البلاد[1].

الإسـلام
في القارّة الأفريقيّة

إستقرّ الإسلام في الشمال الشرقيّ حيث قامت عدّة دول إسلاميّة، ثمّ نفذ عبر الصحارى الكبرى إلى بلاد السودان، مستخدمًا طرق القوافل. ويرجع الفضل في

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥.

انتشار الإسلام هناك إلى سكّان الصحراء، وحماسة بعض شيوخ قبائل "لمتونة" في مطلع القرن الحادي عشر، وإلى نشاط الفقيه "عبدالله بن يس" الذي كرّس جهوده لنشر الإسلام في غرب أفريقيا مع أتباعه الذين عُرفوا منذئذ باسم المرابطين. ولمّا توفّي سنة ١٠٥٤، كانت دعوته قد بلغت كثيرًا من البلاد المتاخمة للساحل الأفريقيّ. ثمّ وصل خلفاؤه إلى مملكة غانا وبلاد تكرور، وقامت دولة مالي الإسلاميّة (١٢٣٨ ـ ١٤٨٨)، وفي أعقابها سنغاي (١٤٦٤ ـ ١٥٩١). وكانت "تمبكتو" قد أصبحت منذ سنة ١٠٧٧ مركزًا للدراسات الإسلاميّة، وشيّدت المساجد في المدن، وعمرت المدارس برجال الدين. وانتشر الإسلام في السودان الأوسط، إذ أسلم سلاطين كانم، وبورنو، وشعوبهما. وكانت بورنو تقع على الشاطئ الغربيّ لبحيرة تشاد. وتدفّق المسلمون في أنحاء نيجيريا الشماليّة، بفضل قبائل الهوسا والفولة. وهكذا استقرّ الإسلام في قلب أفريقيا، وأصبح في مركز يساعده على الانتشار في اتّجاهات عديدة، بفضل جماعات الطرق الصوفيّة، ولا سيّما القادريّة والتيجانيّة والسنوسيّة[1].

الجدير بالإشارة ما حملته رسالة الإسلام من صنوف العطاء الحضاريّ الذي تحتاجه البشريّة في زماننا، وقد طغت فيه المادّيّات على ثوابت القيم. من ذلك تكريم الإسلام للإنسان في إطار نظريّة الاستخلاف التي أسجد الله بسببها له الملائكة. وكفالة الحقوق الكاملة له حتّى ينهض بهذه المهمّة، ثمّ كفالته الواضحة لحقوق المرأة ووصيّة الرسول ﷺ بها في حجّة الوداع، ثمّ كفالة العدل الاجتماعيّ وتذويب الفوارق بين الطبقات من خلال نظام المواريث والحقوق المقرّرة للفقراء في أموال الأغنياء، وتقديم النموذج التطبيقيّ لهذا التكافل في تجربة "المؤاخاة" بين الأنصار والمهاجرين والتحذير

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥.

من أن يبقى المال حكرًا في أيدي الأغنياء: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[1].

إضافة إلى تقرير الإسلام للتوجّه الحضاريّ في تثمير المال، من دون الربا، الذي يحوّل المال من نقد إلى سلعة ويستغلّ الفقير وذا الحاجة، ولكن من خلال البيع والشراء والتجارة لتحريك الحياة وتوفير مصالح العباد.

وللإسلام في أمر الحرب والسلام رؤية تحصرها في الإطار الحضاريّ لدفع الباطل بالحقّ ودفع الظلم بالعدل والتمكّن في الأرض لقيم الخير والعدل والدفاع عنها. هذا إلى ما قيّدت به الحرب من الضوابط التي تنهي عن الإجهاز على الجريح، أو التمثيل بجثّة القتيل، أو قتل الشيوخ والنساء والأطفال والرجال ما لم يحملوا السلاح، إضافة إلى ضرورة الإنذار بها قبل البدء فيها.. وحسن معاملة الأسير. هذا إلى تميُّز الإسلام بتوجّهه الحضاريّ في شؤون العمران وإقامة منهجيّة التغيير الاجتماعيّ وتغيير ما بالنفس الذي يتمّ عادة بالرشد والهداية: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾[2]. إضافة إلى تحذيره من الفسوق والسفه والترف واعتبار المترفين عنصر إفساد في الأرض يعرّضها للخراب: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

---

١ ـ الحشر: ٧.

٢ ـ الرعد: ١١.

٣ ـ الإسراء: ١٦؛ راجع: الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٢١٥ ـ ٢١٦.

الفَصلُ السَّابع

فَتحُ الأندلُس

عَبد الرَّحمَن الأوّل؛ تمّ أمرُنا وغلّبنا؛

أميرُ الأندلُس؛

التقسِيم الإداري وَشَكلُ الحُكم؛ العمَارة والإنشاءات؛

النّهايَة... غيرُ البدايَة؛ بقايَا عَربيَّة.

عَبد الرَّحمَن الأوَّل

بالنظر لفرادة ظاهرة عبد الرحمن الأموي الأول، الملقّب بالداخل، فرد له بحّاثة محدث فصلاً من كتاب: صانعو التاريخ العربي[1]، بعنوان: عبد الرحمن الأول: صانع التاريخ العربيّ على الأرض الأوروبيّة. وقد عدّه من أئمّة صانعي هذا التاريخ في بلاد الأندلس. فارتأينا اقتباس هذا الفصل في مجال التعريف عن انتشار الإسلام في الأندلس.

لم يكن في الأوامر السريّة التي صدرت سنة ٧٥٠ في العراق لبس أو إبهام: يجب استئصال البيت الأمويّ. وكان صاحب هذه الأوامر التي صدرت بحقّ الأمويّين الخليفة الجديد: أبا العبّاس، الذي هزم مروان الثاني في موقعة الزاب، وقضى على البيت الأمويّ الذي حكم تسعين سنة، وأسّس خلافة جديدة. ولُقّب بالسفّاح. وكان أبو العبّاس قد تزعّم تحالفًا ضمّ جماعة أقرب إلى الرسول ﷺ من الأمويّين، والشيعة الذين كانوا يتطلّعون إلى الثأر من الأمويّين، كما ضمّ ناقمين على الخلفاء الأمويّين الذين لم يكونوا أهلاً للخلافة. وانتشرت عيون العبّاسيّين في كلّ قطر يتعقّبون أخبار الأمويّين. وعندما ضاق وجه الأرض عن أن يحجب الأمويّين عن أبصار العبّاسيّين لجأوا إلى "بطن الأرض" كما يقول ابن خلدون. ولم يسلم الموتى من نقمة العبّاسيّين فراحوا

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٨٥ ـ ١٠٥.

ينبشون القبور ويُخرجون الجثث فيصلبونها أو ينثرونها على وجه الأرض[١]. وأُخرجت جثّة هشام[٢]، وهو آخر خليفة أمويّ عظيم، وجُلد ثمانين جلدة، وأُحرق، وذُري رماده. وهكذا انتهى عهد حلم معاوية وانتهى عهد دهائه السياسيّ.

ثمّ صدر بيان لاحق فيه اعتراف بالتجاوز على الأمويّين، ودعوة لهم أن يسلّموا أنفسهم في مكان ما، وإذا سلّموا أنفسهم فإنّ العفو يشملهم. وقد استجابت جماعة من الأمويّين للدعوة وحضر سبعون أو ثمانون منهم إلى مأدبة أُقيمت لهم بالقرب من يافا. وفي أثناء المأدبة أمر عبداللّه بن علي أن تُضرب رؤوسهم فقُتلوا جميعهم. ثمّ أمر فطُرحت عليهم بُسط وهم بين موتى ومحتضرين. ودعا بالطعام فأكل هو وقوّاده وهم يسمعون أنّات المحتضرين.

نجا من هذا الفخّ الذي نصبه العبّاسيّون للأسرة الأمويّة شاب في التاسعة عشرة من عمره، إسمه عبد الرحمن، حفيد هشام بن عبد الملك. فبدلاً من أن يلبّي الدعوة هرب إلى أرض له على الضفّة اليسرى من أعالي الفرات واختبأ هناك. وكان بصحبته أخ له أصغر منه سنًّا، وأختان وابن له اسمه سليمان له من العمر أربع سنوات. وذات يوم، وبينما كان عبد الرحمن في غرفة عتمة يداوي عينه إذا بسليمان يدخل الغرفة مذعورًا باكيًا. ذلك أنّه رأى فرسانًا يرفعون راية سوداء كالراية التي رآها يوم مقتل عمّه يحيى، ويبدو أنّ راية النبيّ ﷺ كانت سوداء، وراية الشيعة خضراء. فلم يخاطر عبد الرحمن شكّ في أنّ أحد الناس قد أفشى أمر مخبئهم إلى

---

١ ـ راجع: الجزءَين الثامن عشر والتاسع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ هشام بن عبد الملك (١٧ ـ ١٢٥هـ/ ٦٩٠ ـ ٧٤٣م): الخليفة الأمويّ العاشر ١٠٥هـ/ ٧٢٤م، أخو يزيد الثاني وخلفه، في عهده بلغت الأمبراطوريّة الإسلاميّة أقصى اتّساعها، حارب البيزنطيّين واستولت جيوشه ناربونه ٧٢٠ وبلغت أبواب بواتييه في فرنسا حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ٧٣٢ بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل.

العبّاسيّين. فأوكل أمر ابنه إلى أختَيه وأوصاهما أن تقولا لمولى له من أصل روميّ اسمه بدر، أن يلحق به في مكان سمّاه لهما. ثمّ أخذ بيد أخيه وقصد الفرات. أمّا الأخ الأصغر فأحجم خوفًا من التيّار ومن عمق المياه فرجع، لا سيّما وأنّ الفرسان العبّاسيّين أعطوه الأمان قائلين إنّهم لا يريدون به شرًّا، أمّا عبد الرحمن فإنّه سبح إلى الضفّة الثانية وتوارى في غيضة. والتفت إلى الضفّة الثانية فرأى رأس أخيه يتدحرج على الأرض. فحمل الفرسان الرأس وساروا به تاركين جسد الولد على وجه العراء[1].

سار عبد الرحمن نحو الجنوب عابرًا الصحراء السوريّة من الشمال إلى الجنوب. وفي فلسطين لقي خادمه الأمين، بدرًا، الذي كان قد أحضر له مالاً ومجوهرات. ومن فلسطين سارا باتّجاه مصر عبر سيناء قاصدَين شمالي أفريقيا. فلجّ عامل القيروان[2]، عبيد اللّه الفهري، في طلبه ووضع جائزة لمَن يلقي القبض عليه، وكاد أحدهم يفوز بالجائزة، ولكنّ عبد الرحمن نجا بنفسه. ويبدو أنّ عامل القيروان اغتنم سانحة انتقال الخلافة من الأمويّين إلى العبّاسيّين فراح يحاول تثبيت استقلاله. وكان من العسير على عبد الرحمن أن يظلّ متنكّرًا لا يعرفه الناس وذلك لأنّه ورث عن أمّه البربريّة، من قبيلة نفزة، شعره الأحمر وعينَيه الزرقاويين. ويضيف المؤرّخون عند ذكر سيرته إنّه

١ ـ وُجدت قصّة فرار صقر قريش مرويّة بضمير المتكلّم في مخطوطة تاريخيّة عنوانها "أخبار مجموعة" وقد نشرها وترجمها EMILIO LAFUENTEY ALCANTARA (مدريد،١٨٦٧) وتجد أخبار صقر قريش في: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مرجع سابق، ٥: ٥٧٧؛ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٨٦ ـ ٨٧.

٢ ـ القَيرَوان: مدينة في تونس، هي اليوم مركز ولاية القيروان، أنشأها في عهد معاوية عقبة بن نافع ٦٧٠، عاصمة الأغلبة في القرن التاسع، والفاطميّين إلى جانب المهديّة حتّى احتلال القاهرة ٩٧٣، شهيرة بمسجدها، كانت دارًا للصناعة ومحطًّا للقوافل وسوقًا للتجارة، مركز زراعيّ وسياحيّ.

كان له ذؤابتان من الشعر تتدلّيان على فوديه[1]، وأنّه كان أعور، وكان يشكو من ضعف في حاسّة الشمّ. كان عبد الرحمن يأمل أن يلقى ترحابًا عند أبناء الخؤولة من البربر، وأمله هذا كان يبعث في نفسه البشر والعزم، غير أنّ ما كان يحلم به من مجد وعظمة سيلقاهما في إسبانيا التي احتلّها أجداده، كان يشغل باله، ويملأ قلبه، ممّا لم يترك معه مجالاً للشعور بالخوف أو التعب. وتقول الروايات إنّ أهل بيته كانوا يتوقّعون أن تنتهي الخلافة إليه في "الغرب". ويُقال لنا أيضًا إنّ عالمًا بالفراسة توسّم ذلك في ملامح رآها في وجهه وعنقه. فراح جدّه هاشم، الذي نشأ عبد الرحمن في كنفه بعد موت أبيه، يُحسن تربيته ويُعدّه لتسنّم هذه الوظيفة السامية. حتّى إنّ جدّه أقطعه قطعة أرض في إقطاع له في الأندلس لكي يبني قصره العتيد عليها. وذات يوم وفدت إلى بلاط هشام أميرة قوطيّة اسمها سارة القوطيّة لتشكو إليه من ظلم لحق بها وكان لها من العمر ثماني عشرة سنة، وكانت على جانب من الجمال. فقالت للفتى، عبد الرحمن، إنّ الأرض التي أعطيها تجاور أرضها في قرطبة[2].

بعد تسفار دام خمس سنوات وصل الشريد إلى بلاد أخواله عند شاطئ البحر الأبيض المتوسّط المراكشيّ. ومن هنا ألقى أوّل نظرة على الأرض التي كان يحلم بها. لكنّ الحلم انقلب إلى كابوس مزعج. فإنّ شبه جزيرة أيبيريا[3]. كانت، من أقصاها إلى أقصاها، في حالة غليان شديد. ذلك أنّ عرب الجنوب اليمنيّين، وعرب الشمال

---

١ ـ الفَود: جانب الرأس ممّا يلي الأذنين إلى الأمام، والشعر الذي عليه.

٢ ـ قرطبة CORDOBA : مدينة في إسبانيا الأندلسيّة على الوادي الكبير، مركز الإقليم وكرسيّ أسقفيّ، أسّسها الفينيقيّون ثمّ احتلّها الرومان ١٥٢ ق.م.، استولى عليها العرب فأصبحت عاصمة الدولة الأمويّة في الأندلس ٧٥٦، استعادها فرديناند ١٢٣٦، مسقط رأس سينيكا وابن رشد، أهمّ آثارها العربيّة "قصر الزهراء".

٣ ـ شبه جزيرة أيبيريا: إسم أطلق على شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال

القيسيّين، لم يتناسوا ثاراتهم ولم يتخلّوا عن منازعاتهم الجاهليّة بل احتفظوا بها في أرضهم الجديدة. كان القيسيّون سنيّين شديدي التمسك بالسنيّة، وكان اليمنيّون شيعيّين. وكان البربر يعادون الفئتين. فإنّهم لم يكونوا من السنّة ولا من الشيعة بل كانوا، في أغلبهم، من الخوارج[1]. ونذكّر بأنّ الخوارج هم الذين خرجوا على عليّ عليه السلام لقبوله التحكيم، فقتله واحد منهم[2]. أمّا اليمنيّون فكانوا يشعرون بخيبة أمل بسبب عدم المساواة والأخوّة التي بشّر بها الإسلام. فإنّهم لم يشعروا أنّهم على قدم المساواة اجتماعيًّا واقتصاديًّا مع عرب الشمال. وكانت شكواهم الرئيسيّة أنّهم، بالرغم من تفوّقهم العدديّ في الجيش الذي افتتح الأندلس، فإنّ عرب الشمال استولوا على السهول الخصبة وتركوا لهم المناطق الجبليّة الجرداء. وكان في داخل كلّ حزب من هذه الأحزاب قبائل يصطرع شيوخها وزعماؤها على تولّي السلطة. وجميعهم انتقلوا إلى بلاد تختلف عن البلاد التي أتوا منها اختلافًا كليًّا. فإنّ جذورهم لم تكن قد رسخت على عمق في البيئة الجديدة، ولم يكونوا بعدُ قد توصّلوا إلى أسلوب من التعايش السلميّ مع سكّان البلاد من الإسبان. وقد يكون أنّ الحكّام العرب أظهروا براعة واقتدارًا على ساحات المعارك، أمّا في الإدارة فإنّهم أظهروا عجزًا. فمن سنة ٧٣٢ حتّى سنة ٧٥٥ تعاقب على الحكم أكثر من ثلاثة وعشرين أميرًا[3].

ظهر عبد الرحمن، أوّل ما ظهر، كزعيم وسط السياسة الأندلسيّة المضطربة بين السوريّين الذين اشتهروا بموالاتهم للبيت الأمويّ. وكان من بين السوريّين النازحين

---

١ ـ حول القيسيّين واليمنيّين والبربر والخوارج راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٨٨ ـ ٨٩.

إلى الأندلس جماعة من الموالي المخلصين في ولائهم لعائلة عبد الرحمن لا يزيد عددهم عن أربع أو خمسمئة مولّى اعتمدهم عبد الرحمن كنواة لجيشه. وبحسب عُرف الولاء عند العرب، كان أبناء الموالي يولون أبناء أسيادهم الأول الذين أعتقوهم وألحقوهم بنسبهم برباط شبه مقدّس، ما كان يجعل المولى يهبّ إلى نجدة سيّده عند الشدّة. وكان قد دخل الأندلس سنة ٧٤١ قرابة تسعة آلاف جنديّ سوريّ معظمهم من الفرسان، وذلك في عهد خلافة جدّ عبد الرحمن، بقيادة بلج بن بشر القشريّ[١]. واستولى بلج على قرطبة * وأقام نفسه أميرًا عليها. أمّا جند دمشق فاتّخذ مقاطعة إلبيرة[٢] مقرًّا له، وجند حمص اتّخذ إشبيلية[٣]، وجند فلسطين في مدينة عُرفت بـ "مدينة شذونة"[٤].

كان جنوبيّ إسبانيا، من حيث المناخ وسطح الأرض والمنتوجات الزراعيّة، يذكّر السوريّين بموطنهم الأمّ. وكان عبد الرحمن قد أرسل إلى زعماء الأجناد، بواسطة بدر، رسالة يذكّرهم فيها بأيادي سلفه من بني أميّة، ويعرّفهم مكانه من السلطان وسعيه لنيله إذ كان الأمر لجدّه هشام. فهو حقيق بوراثته ويسألهم القيام بشأنه، وملاقاته بمَن يوثق به من الموالي الأمويّين وغيرهم. ويعدهم بإعلاء الدرجة. وكان من الطبيعيّ أن

---

١ ـ **بلج بن بشر عيّاض القشريّ** (ت١٢٤هـ/ ٧٤٢م): قائد الفرسان الشاميّين في الجيش الذي سيّره الخليفة هشام بن عبد الملك لفتح أفريقيا ٧٤١، قُتل في الأندلس بالقرب من قرطبة.

٢ ـ **إلبيرة** ELVIRA : بلاد إسبانيا الجنوبيّة التي أصبحت إقليم غرناطة بعد الفتح العربي، ومدينة إلبيرة أو قشتالة قرب غرناطة، قاعدة هذا الإقليم، سكّانها عرب الشام، ازدهرت ثمّ خربت بالحروب الأهليّة ١٠٠٩.

٣ ـ **إشبيلية** SEVILLA : مدينة في الأندلس، شهيرة بقصرها، فتحها العرب ٧١٢ وانتزعها منهم فرديناند الثالث ١٢٤٨.

٤ ـ **مدينة شذونة** MEDINA-SIDONIA : بلدة في جنوب غربي إسبانيا في إقليم وادي آش، كانت على أيّام المسلمين قاعدة ولاية إقليم إشبيلية.

يختتم رسالته بوعود قطعها على نفسه من أنّه سيولّيهم المناصب الرفيعة في حال انتصاره[1].

تمَّ أمرُنا وغَلَبْنا

لم يكن عبد الرحمن رجلاً متشدّدًا بدينه، ولكنّه كان يقوم بالشعائر المفروضة على المؤمن. وذات يوم، بعد أن أتمّ صلاته رأى رجلاً يرمي بنفسه إلى البحر أمام سفينة مقبلة قبل أن ترسو. كان الرجل بدرًا، مولاه، جاء يبشّره بمقدم زعماء الموالي عليه ومعهم خمسمئة قطعة نقديّة ذهبيّة. وكان اسم أوّل رجل تعرّف إليه "تمّام أبو غالب" فاستبشر عبد الرحمن خيرًا وقال: " اللّه أكبر. الآن تمّ أمرنا وغلبنا بحول اللّه تعالى وقوّته". فأسرع عبد الرحمن في التوجّه إلى الأندلس، وفي الرابع من شهر آب (أغسطس) سنة ٧٥٥، وكان له من العمر ٢٥ سنة، نزل إلى البرّ بالقرب من ملَقا[2]. وكان ناصحه ومشيره عبداللّه بن عثمان قائد جند الشام، وحفيد مولى أعتقه الخليفة عثمان. وكضيف مكرَّم أهدوا إليه جارية شابّة جميلة فنظر إليها وقال: "إنّ هذه من القلب والعين بمكان، وإنْ أنا اشتغلت عنها بهمّتي في ما أطلبه ظلمتها، وإن اشتغلت بها عمّا أطلبه ظلمت همّتي، ولا حاجة لي بها الآن"[3]. وردّها إلى صاحبها.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٨٩.

٢ ـ ملَقا MALAGA: مرفأ في جنوب إسبانيا على البحر المتوسّط، فيه قلاع مغربيّة، وكاتدرائيّة تعود إلى القرن السادس عشر.

٣ ـ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبعة رينهارت دوزي (ليدن،١٨٥٨ ـ ١٨٦١)، ٢: ٢٩.

إنتشر خبر مقدم أمير من سلالة الأمويّين كما تنتشر النار في الهشيم، فتوافدت الوفود إليه تقدّم له الطاعة والولاء. فالتفّ حول نواة جيشه من الموالي والموالين له اليمانيّون والقيسيّون والبربر يحدوهم الولاء للأمير الأمويّ. وكانت مدينة إشبيلية أوّل مدينة أشرعت أبوابها لاستقبال المُطالب بالولاية، وكان ذلك في آذار (مارس) ٧٥٦. وفي إشبيلية استعاد علاقاته مع الأميرة سارة القوطيّة التي كان يعرفها وهو بعدُ فتى في دمشق، وقد ولد لهذه الأميرة بنون وبنات، مسلمون ونصارى، وإحدى بناتها، وهي نصرانيّة أصبحت في ما بعد أمّ عبد الرحمن الثالث المشهور[١].

كانت إسبانيا في هذه الحقبة تابعة لشماليّ أفريقيا وعاصمتها القيروان التي أسّسها عقبة بن نافع. وكان حاكم إسبانيا يوسف الفهري[٢] أحد أحفاد عقبة. وكانت عاصمة يوسف الفهري مدينة قرطبة*. وكان يعوزه بُعد النظر والحنكة السياسيّة ليكيّف نفسه ورعاياه للعيش بانسجام في الموطن الجديد. ولكنّه كان طموحًا يمنّي النفس بالاستقلال الذاتيّ في عهد ابن عمّه الذي كان قد استقلّ بالقيروان. وكان قائد جيشه صهره، الصُّميل بن حاتم[٣]. وبعد تردّد التحق برئيسه في الأندلس. وإغواءً لعبد الرحمن الداخل، وهو اللقب الذي يُلقّب به المؤرّخون عبد الرحمن، عرض على يوسف

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٠.

٢ ـ **يوسف بن عبد الرحمن الفهري** (ت١٤٢هـ/ ٧٥٩م): أمير وقائد أندلسيّ من ذريّة عقبة بن نافع، وُلد في القيروان، حكم الأندلس، انهزم في معركة الوادي الكبير أمام عبد الرحمن الأمويِ، قضى قتلاً.

٣ ـ **الصُّميل بن حاتم** (ت١٤٢هـ/ ٧٥٩م): زعيم المضريّة في الأندلس ومن القوّاد الشجعان، جدّه الشمر قاتل الحسين في كربلاء، مات سجينًا في عهد عبد الرحمن الداخل.

الفهري* استلحاقه وتزويجه ابنته، وجعله أميرًا على مقاطعتَين. لكنّ الأمير الأمويّ رفض العرض لأنّه كان يطمع في غنيمة أثمن من هذه الأمور[١].

عندما زحف عبد الرحمن بجيشه قاصدًا قرطبة* لحظ أبو الصباح يحيى اليحصبيّ، زعيم اليمانيّة في إشبيلية، أنّ الأمير الأمويّ ليس له راية يُعرف بها. فأخذ عمامته الخضراء ورفعها على قناة رمح، وكانت أوّل راية للأمويّين تُرفع في الأندلس لتبقى أجيالاً بعد ذلك.

في آخر الأمر اشتبك الفريقان على ضفّتَي الوادي الكبير على مقربة من قرطبة*. ولجأ عبد الرحمن إلى خدعة حربيّة عندما حمل خصمه على أن يسمح له بعبور النهر لإجراء مفاوضة الصلح. وعندما عبر عبد الرحمن النهر حمل على عدوّه وأحرز نصرًا حاسمًا. كان ذلك في ١٥ أيّار (مايو) من سنة ٧٥٦. وقد نجا الفهري* والصُّميل* بحياتهما. وكان من الصعب على عبد الرحمن أن يلجم شهوات جنوده المتعطّشين للنهب والقتل. فأصدر أمانًا عامًّا، وأعلن وجوب احترام الملكيّة الشخصيّة. وألقى القبض على ولدَين من أولاد يوسف الفهري واحتفظ بهما رهينتَين. فجاءت أمّهما مذعورة خائفة مصطحبة ابنتَيها معها والدمع في عينَيها وقالت: يا ابن عمّي، أحسِن إلينا كما أحسن اللّه إليك. فأمر عبد الرحمن أن يُحسنوا معاملة النساء وردّ إلى العائلة بعض الأشياء الثمينة التي تعرّضت للنهب. فقدّمت له إحدى الإبنتَين جارية له، أصبحت في ما بعد أمّ ابنه هشام[٢] الذي أصبح خليفة بعده.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٢.

٢ ـ **هشام بن عبد الرحمن الداخل:** (ت١٨٠هـ/ ٧٩٦م): وُلد في قرطبة، ثاني ملوكها بعد أبيه ٧٨٨، شجّع المذهب المالكيّ وأتمّ بناء الجامع الذي بدأ به أبوه.

كان عبد الرحمن، حتّى ذلك الحين، أميرًا إسميًّا على الأندلس الإسلاميّة. إذ كان ينبغي أن يمرّ زمن طويل حتّى تتوحّد البلاد تحت إمرته. وراح عدوّاه، الفهري * في طُليطلة[1]، والصُّميل * في جيّان[2]، يبثّان الدعوة لشد عصا الطاعة وإعلان الثورة على الأمير الأمويّ. وأخيرًا قبض على الفهري وقطع رأسه وعلّقه على جسر قرطبة. ومات الصُّميل خنقًا في سجنه في قرطبة.

ظلّت جماعة الفهري، بعد وفاته، تتحدّى الحكم الجديد. فكانت تقوم ثورات محليّة هنا وهناك، وعلى رأس بعض هذه الثورات زعماء من أصدقاء الأمير عبد الرحمن المقرّبين إليه. وجاء أمويّون من الشرق من أقرباء الأمير في أعقاب انتصاره يطالبون بحصّتهم من الغنيمة. وكان أكثر الناقمين استياء جماعة اليمنيّين والبربر الذين حال عبد الرحمن دون نهبهم قرطبة. ولم يكن عبد الرحمن يقمع ثورة حتّى تقوم محلّها ثورات[3].

وقام مَن يتحدّى سلطة عبد الرحمن على أرض بعيدة خارج الأندلس. ذلك أنّ أخبار الانتصارات الرائعة التي أحرزها عبد الرحمن، وصلت إلى مسامع حكّام العراق. ولم يكن الخليفة المنصور، أخو السفّاح وخليفته[4]، ليرضى أن يقصّ الجناح الغربيّ للأمبراطوريّة دون حرب وقتال. فأمدّ عامله على أفريقيا، العلاء بن مغيث،

---

١ ـ طُليطلة TOLEDO : مدينة في أواسط إسبانيا قرب مدريد، فتحها طارق بن زياد ٧١٤، استردّها ألفونس ملك قشتالة ١٠٨٥، آثار عربيّة فخمة، كاتدرائيّة.

٢ ـ جيّان أو خاين JAÉN : قاعدة إقليم جيّان في الأندلس، أنجبت على أيّام العرب عدّة علماء أشهرهم إبن مالك صاحب الألفيّة في علم النحو.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٣.

٤ ـ راجع الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

بالرجال وبالسلاح، وعيّنه أيضًا أميرًا على الأندلس، وطلب إليه أن يتوجّه إليها. فوصل إلى جنوبيّ الأندلس سنة ٧٦٣ ورفع الرايات السود. فناصره جمع من الشيعة، ومن الموالين للعبّاسيّين، ومن الشيوخ والزعماء، ومن القبائل الطامعة في الغنائم والأسلاب. واختار عبد الرحمن أن يلتقي بجيش العلاء بن مغيث في معقل حصين يُعرف بحصن "قرمونة" إلى الشمال من إشبيلية. وقد اشتهر هذا الحصن بمناعته على الأعداء. فضرب ابن مغيث الحصار على الحصن، وبعد شهرَين أدرك عبد الرحمن أنّ الزمن يعمل ضدّه. فوطّد العزم على أن يقوم بمغامرة جريئة، فانتقى سبعمائة مقاتل من أشدّ جنوده بأسًا وشجاعة وسار في مقدّمتهم إلى باب المدينة حيث كانت نار تشتعل، وأخذ غمد خنجره ورماه في النار وقال:

لنرمِ جميعنا خناجرنا هنا في النار ولنُقسم إيمانًا إن فاتنا النصر فإنّنا نموت جنودًا شرفاء. فإمّا النصر وإمّا الموت[١].

أسفر هذا الهجوم المستميت عن مذبحة مروّعة حلّت بابن مغيث حتّى إنّه يُقال إنّ سبعة آلاف رجل من رجاله لاقوا حتفهم في هذه الموقعة. وأخذوا رأس بن مغيث ورؤوس بعض الزعماء الآخرين وألصقوا وريقة تحمل اسم كلّ واحد منهم وحشوها بالمسك ولفّوها بالسجلّ الذي أعطاه المنصور لمغيث وبالراية السوداء، ووُضعت في سفط، وعُهد بها إلى تاجر قرطبيّ كان في طريقه إلى القيروان ليقضي بعض شأنه ومن ثمّ إلى مكّة المكرّمة. وكان المنصور في طريقه إلى مكّة. فتركوا له السفط ليلاً في الطريق التي سيمرّ بها الخليفة صباحًا. وعندما فتحوا السفط قال المنصور:

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٣ ـ ٩٤.

الحمد للّه الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدوّنا بحرًا[1].

وقال أبو جعفر المنصور[2] يومًا لأصحابه: "أخبروني عن صقر قريش مَن هو؟" قالوا: "أمير المؤمنين الذي راض الملك وسكّن الزلازل وحسم الأدواء، وأباد الأعداء". قال: "ما صنعتم شيئًا". قالوا: "فمعاوية". قال: "ولا هذا". قالوا: "فعبد الملك بن مروان". قال: "ولا هذا". قالوا: "فمَن يا أمير المؤمنين؟" قال: "عبد الرحمن ابن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًّا مفردًا، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين، وأقام ملكًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدّة شكيمته". إنّ معاوية نهض بمركب حمل عليه عمر وعثمان وذلّل صعبه، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد برأيه، مستصحب لعزمه[3].

ويبدو أنّ المنصور اتّعظ بالإهانة التي لحقت بأعوانه في الأندلس. أمّا خلفاؤه من بعده فلم يتّعظوا. فقد ظلّ عملاؤهم السرّيّون وجواسيسهم يعملون على بثّ الشقاق وشقّ عصا الطاعة. فراح هارون الرشيد[4]، حفيد المنصور، الذي بلغ البوسفور

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٤.

٢ ـ **أبو جعفر المنصور**: هو عبدالله بن محمّد، الخليفة العبّاسي الثاني ١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م، وُلد في الحميمة ٩٦هـ/ ٧١٤م، خلف أخاه السفّاح، انتصر على عمّه عبدالله بن علي المطالب بالعرش ثمّ أطاح بقائده أبي مسلم الخرساني، أخضع ثورات العلويّين: ثورة محمّد الملقّب بالنفس الزكيّة في المدينة وثورة ابراهيم أخي محمّد في الكوفة كما قضى على فتنة "المقنّع" في فارس والبربر في شمال أفريقيا، بنى بغداد ودعاها "دار السلام"، نظّم الشؤون الإداريّة والماليّة والبريد، توفّي محرمًا بالحجّ.

٣ ـ يرد هذا النصّ بأشكال مختلفة. قابل المقري، ١: ٢١٣؛ ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب، نشر دوزي (ليدن، ١٨٤٩) ٢: ٥٤، ٦١ ـ ٦٢؛ العقد الفريد (القاهرة،١٩٤٤) ٤: ٤٨٨؛ راجع أيضًا: DOZY, *SPANISH ISLAM*, P. 207. وقد نظم عبد الرحمن نفسه في ذلك شعرًا.

٤ ـ راجع الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

عندما كان وليًا للعهد، وعقد مع الروم معاهدة مخزية، يتطلّع ناحية الغرب لعلّه يُحرز نصرًا يغطّي ما مُني به من هزيمة في الشرق. وحاول أن يدخل في عهد مع شارلمان[1]، ملك الفرنجة وأمبراطور الأمبراطوريّة الرومانيّة. وكان شارلمان عدوًّا طبيعيًّا لجيرانه الأمويّين في الجنوب، كما أنّ هارون الرشيد كان عدوًّا لبيزنطة منافسته. وفي سنة ٧٧٧ ائتمر زعماء العرب في الشمال الشرقيّ من الأندلس، وألّفوا حزبًا قويًّا يرئسه زعيم فهريّ وراحوا يراسلون عدوّ الإسلام، شارلمان، ليخفّ إلى مساعدتهم، وقطعوا له عهدًا أنّهم يعترفون بسلطته. وكان شارلمان يطمح، أوّل ما كان يطمح، إلى توحيد أوروبّا تحت صولجانه. فقطع جبال "البيرينيه[2]" على رأس جيوشه، وقطع تخوم الأندلس متّجهًا نحو المدينة الثائرة، سرقسطة[3]. غير أنّ أهل سرقسطة عدلوا عن فكرتهم الأولى، وأغلقوا أبواب مدينتهم بوجه هذا العدوّ الذي يظهر بمظهر الصديق. وبلغت شارلمان أنباء عن اضطرابات وقعت في بلاده ما اضطرّه إلى الانسحاب فالرجوع فورًا. وفي طريق عودته عبر مضايق جبال "البيرينيه" هاجمت قبائل الباسك[4]، وغيرها من القبائل الجبليّة، جيوشه المنهكة، وألحقت بهم

---

١ ـ شارلمان CHARLEMAGNE (٧٤٢ ـ ٨١٤): ملك الفرنجة ٧٦٨ وأمبراطور الغرب ٨٠٠ ـ ٨١٤، مؤسّس السلالة الكارولية أو الكارولانجيّة، جعل "إكس لا شابيل" في "آخن" عاصمة له، حاول الاستيلاء على إسبانيا ففشل في سرقسطة ٧٧٨.

٢ ـ جبال البيرينيه PYRÉNÉES : سلسلة جبال فاصلة بين فرنسا وإسبانيا، تمتدّ على طول ٤٣٥كلم بين الأطلسي والمتوسّط ذروتها "بيك دانيتو" ٣,٤٠٤م.

٣ ـ سرقسطة ZARAGOZA : مدينة في إسبانيا، كانت في عهد العرب الذين فتحوها ٧١٢ تنسج الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية، استرجعها منهم الإسبان ١١١٩، هي اليوم مركز ثقافي.

٤ ـ باسك أو بَشْكَنْش BASQUE: مقاطعات فرنسيّة وإسبانيّة واقعة في منحدرات جبال البيرينيه الشماليّة يقطنها شعب بهذا الإسم، مشهورة بالمضايق التي قُتل فيها القائد رولان ٨٧٧ بطل الملحمة الفرنسيّة المعروفة باسمه وجاء فيها أنّ "البشكنش ناصروا العرب على الفرنجة"، لغة الباسك خاصّة لا علاقة لها بلغات المحيط لم تنصهر نزعتهم القوميّة بالدولتَين اللتَين تضمّان إقليمَيهم إذ لا زالت حركتهم المطالبة بالاستقلال الذاتي حيّة خاصّة في المنطقة الإسبانيّة.

خسارة فادحة في الأرواح. وكان من جملة القوّاد الذين هلكوا هناك "رولاند[1]" الشاعر. وقد خلّد دفاعه المجيد بشكل تاريخيّ أسطوريّ في قصائد رائعة تُعرف بـ "أغنية رولاند" التي تُعتبر من بواكير الكنوز الأدبيّة الفرنسيّة، وملحمة من ملاحم العصور الوسيطة[2].

أميرُ الأندلُس

خرج عبد الرحمن من هذه المعركة منتصرًا ظافرًا دون أن يقاتل. ولكن جاء دور سرقسطة في الانتقام. وبعد أن استولى على المدينة ألقى القبض على أميرها وقطّع يدَيه وساقيه وجلده حتّى الموت. وبعد هذه الحوادث لم يقم في البلاد مَن تحدّى سلطة عبد الرحمن في خلال الإثنتَين والثلاثين سنة بعد استسلام قرطبة. وكان عبد الرحمن يقود الجيوش إلى المعارك بنفسه، ولا نعلم أنّه خاض معركة خسر فيها القتال. وأصبح أمير الأندلس، كما كان يُسمّى في هذه الحقبة، أميرًا بالفعل، لا بالإسم فقط. ويُصرّ المؤرّخون على أنّ عبد الرحمن، في زمن شارلمان، كان يعدّ العدّة لبناء أسطول يغزو به سوريا لينتزعها من سلطة بني العبّاس[3].

---

١ ـ رولاند ROLAND : عاش في القرن الثامن، من كبار فرسان شارلمان الملك، قتل في وادي "رونسفو" من جبال البيرينيه وهو يحارب الباسك، تناولت الأسطورة هذا الحدث وجعلت منه موضوع "ملحمة رولان" الفرنسيّة، ظهر فيها رولان بمظهر بطل العالم المسيحيّ الكبير.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٥ ـ ٩٦.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٦.

لم تكن منجزات عبد الرحمن في حقل السلم ممّا يتناسب مع منجزاته في ساحات الحرب، ولكنّها كانت منجزات ذات شأن. ولم يكن عبد الرحمن مجرّد أمير من الأمراء، وكان عددهم ٢٣، الذين كانوا يستمدّون السلطة من القيروان أو دمشق، بل كان السيّد المطلق الذي يتولّى شؤون دولة مستقلّة. وقد وضع لهذه الدولة أسسًا في التنظيم والإدارة دامت قرنَين ونصف القرن، باستثناء بعض التعديلات التي أدخلها عليها عبد الرحمن الثالث[1].

ليس هذا فقط، بل إنّ هذه الدولة قد دامت واستمرّت طوال هذه الحقبة الطويلة في وجه معارضة داخليّة عربيّة إسلاميّة، يعمل زعماؤها كقوّة نافذة، وفي وجه مقاومة مسيحيّة تضغط من الداخل والخارج. وعبر الحدود الشماليّة عند سفوح جبال "البيرينيه" كانت هناك ممالك صغيرة هي ممالك أراغون[2] ونافارا[3] وليون[4]

١ ـ عبد الرحمن الثالث (٢٧٧ ـ ٣٥٠هـ/ ٨٩٠ ـ ٩٦١م): لقبه الناصر، وُلد وتوفّي في قرطبة، أمير قرطبا الثالث ٩١٢ وأوّل خليفة أمويّ بالأندلس ٩٢٩ ـ ٩٦١، سعى إلى مصالحة العناصر المتطاحنة وتحقيق الوحدة الداخليّة، قضى على فتنة ابن حفصون، أوقف الزحف المسيحيّ، اتّخذ لقب أمير المؤمنين، حارب الفاطميّين في شمال أفريقيا، كان عهده أعظم عهود الحضارة الأندلسيّة.

٢ ـ أراغون ARAGON : منطقة في شمال شرقي إسبانيا، عاصمتها سرقسطة، بقيت مملكة مستقلّة إلى ١٤٧٩ حين تزوّج ملكها فردينان بإيزابيلا وارثة قشتالة فاتّحدت الدولتان ونشأت مملكة إسبانيا.

٣ ـ نافارا NAVARRA : منطقة أوروبيّة تقتسمها فرنسا وإسبانيا، هي في فرنسا جزء من إقليم البيرينيه، وفي إسبانيا مقاطعة سكّانها نحو ٤٥٠ ألف نسمة قاعدتها بمبلونا.

٤ ـ ليون LYON : إقليم ومملكة سابقة في شمال غرب إسبانيا، أهم مدنه: ليون العاصمة التاريخيّة للإقليم، بالانسيا، سلمنقة، بلد الوليد، وزامورا، يرجع تاريخها إلى أيّام الرومان، استولى عليها ملوك أستوريا في القرنين الثامن والتاسع من الغرب، أصبح الإقليم مملكة ليون وأستورياس، غزاها العرب ٨٨٢، حلّت محلّ أوفيدو باعتبارها عاصمة في القرن العاشر، تدهورت عندما أصبحت بلد الوليد مقرًا ملكيًا، اتّحدت مرتَين مع مملكة قشتالة: الأولى إبان حكم فرديناند الأول لقشتالة (١٠٣٧ ـ ١٠٦٥) والثانية في عهد ألفونسو السادس ووساكا ألفونسو السابع (١٠٧٢ ـ ١١٥٧) قبل أن تتّحد بصفة دائمة في عهد فرديناند الثالث ١٢٣٠، من مباني مدينة ليون الكاتدرائيّة القوطيّة العائدة إلى القرنَين الثالث عشر والرابع عشر.

وقشتالة[1] ، تصلّي وتتحيّن الفرص ليوم الخلاص، يوم انتزاع البلاد من أيـدي فاتحيهـا. وسيستمرّ هذا الوضع حتّى القرن الثالث عشر حين استردّ ملوك قشتالة معظم أراضـي المملكة، ولم تبقَ إلاّ مملكة غرناطة العربيّة التي سقطت في يد الملـوك الكـاثوليك سـنة ١٤٩٢ كما سيأتي[2].

١ ـ قشتالة أو كاستيا CASTILLA : منطقة تاريخيّة فـي وسـط إسبانيا، تقسمها الجبـال إلـى قشتالة القديمـة فـي الشمال، حـوض نهر الدورادو، ومن مدنها: برغس، آبلا، بلادوليد، وإلى قشتالة الجديدة في الجنوب، يرويها نهرا الناخا وغواديانا، مـن مدنهـا العاصمـة مدريد، وطليطلة، ووادي الحجارة، نشأت في قشتالة منذ القرن التاسع إمارة عاصمتها برغس ثمّ انضمّت إلـى مملكـة ليـون ١٢٣٠ وأخذت بالتوسّـع علـى حسـاب الإمـارات العربيّـة، اتّحدت أخيرًا مـع الأراغـون بعد زواج وليّـة العهـد إيزابيـلا بفرديـنـاند الثـاني الأرغواني ١٤٦٩.

٢ ـ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة، ص٥٩.

التقسيم الإداري وشكل الحُكم

كان عبد الرحمن، في وضعه الأسس الإداريّة، يتّبع النظام الذي كان متّبعًا في دمشق. كانت السلطة، المدنيّة منها والعسكريّة والقضائيّة، في يد الأمير. وكان بوسعه أن يفوّض أحد أعوانه بعض هذه السلطة، وبالفعل فقد لجأ إلى مثل هذا التفويض في حالات معيّنة. وكان يعاونه في تصريف مهام الحكم "حاجب"، وكان أوّل "حاجب" رفيقه في السلاح "تمّام أبو غالب". أمّا الوزارة، وهي مؤسّسة عبّاسيّة أكثر منها أمويّة، فلم تكن معروفة في الأندلس حتّى زمن عبد الرحمن الثالث*. وكانت تحت إمرة الحاجب جماعة الكتّاب: المال، والجيش، والداخليّة، وغيرهم في مختلف دوائر الحكم.

وكان هنالك مجلس استشاريّ، أو مجلس شورى، أعضاؤه من النبلاء والأشراف، ومن علماء الدين، ومن كبار موظّفي البلاط. وكان أوّل مَن ترأس هذا المجلس عبيداللّه بن عثمان، وكان من أوائل الناس الذين عضدوا عبد الرحمن. وكان عبيداللّه يتولّى إمارة العاصمة في غياب عبد الرحمن. وعُيّن أبو الصبّاح واليًا على إشبيلية. وتقول الرواية إنّ عبد الرحمن نقش على خاتمه "الواثق باللّه".

في تقسيم البلاد إلى ولايات، احتفظ عبد الرحمن بالتقسيم الذي وضعه القوط، ولكنّه رفع الولايات إلى ستّ. وكان لكلّ ولاية والٍ قاض. وكان لبعض المدن الكبيرة الرئيسيّة ولاتها. وكان قاضي قرطبة يُعتبر قاضي القضاة، بمعنى أنّه المرجع القضائيّ الأخير. وكان القاضي من علماء الدين عالمًا بالعلوم القرآنيّة والشرعيّة. أمّا الجرائم وغيرها ممّا تتناوله الشرطة من قضايا، فكان يفصل فيها ويحكم موظّف خاصّ.

أمّا الجيش العربيّ في الأندلس، كما وجده عبد الرحمن، فقد كان منظّمًا حسب الطريقة العربيّة القبليّة البدائيّة. فقد كانت كلّ قبيلة، سواء أكانت عربيّة أم بربريّة، تقتطع أرضًا تقيم فيها ويرئسها شيخ القبيلة الذي يصبح في زمن الحرب قائدها. ولكنّ الأمير عبد الرحمن، على مرّ الأيّام، أنشأ جيشًا نظاميًّا من المرتزقة المجنّدة، معظمها من قبائل البربر في شماليّ أفريقيا. وقد بلغ عدد هذا الجيش النظاميّ أربعين ألف مقاتل. وكانت فرق الفرسان تستخدم البغال المتوفّرة في الأندلس أكثر من الخيل، والتي تلائم طبيعة البلاد أكثر ممّا تلائمها الجياد. وكان لعبد الرحمن حرس من الجنود المجنّدين من أفريقيا. وكان على هذا الجيش أن يحمي الثغور في الشمال، وأن يقمع بدون رحمة أو شفقة، الثورات الداخليّة. وبقدر ما كان الجيش مواليًا للأمير كان الناس يمقتونه. وهذا يذكّرنا بالإنكشاريّة[1] عند العثمانيّين[2].

وكانت شبه جزيرة إسبانيا معرّضة من ثلاث جهات لغزوات من البحر. وهذا ممّا دفع بعبد الرحمن لإنشاء نواة أسطول بحريّ، الأوّل من نوعه في الأندلس الإسلاميّة. وقد بُنيت سفنه حسب النماذج البيزنطيّة، وكانت قاعدته "المريّة". وعيّن عبد الرحمن حاجبه تمّام أميرًا للبحر، فكان أوّل أميرال مسلم في أوروبّا. وفي عهد عبد الرحمن الثالث أصبح الأسطول العربيّ الأندلسيّ أقوى أسطول في غربيّ البحر الأبيض المتوسّط[3].

---

١ ـ الإنكشاريّة: إسم لتنظيم عسكريّ تركيّ، معنى الإسم "الرقباء" أو "الحرّاس" أو "الحافظون"، إذ كانت تُوكل إليهم المحافظة على الأمن، وقد اشتهرت فرقة الإنكشاريّة بسطوتها حتّى كانت أشبه بالجند البريتورياني عند القياصرة، ولذلك قويت شوكتهم فصاروا يتصرّفون بالأحكام بحسب أهوائهم وتوصّلوا إلى عزل السلاطين وقتلهم.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٧ ـ ٩٨.

٣ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص٩٧ ـ ٩٨.

كانت معاملة المسيحيّين في إسبانيا لا تختلف عن معاملتهم في أيّ قطر إسلاميّ آخر. وترتكز معاملة المسلمين للمسيحيّين على ما جاء في القرآن الكريم، وعلى ما جاء بعد ذلك في الحديث وفي التآليف الفقهيّة. فقد كان اليهود والنصارى من أهل الذمّة. وبصفتهم هذه كان لهم حقوق وعليهم واجبات. ومن حقوقهم حماية الدولة لهم، ومن واجباتهم نحو الدولة دفع الجزية، وجاء في الوحي: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[١].

كانت الضريبة تُفرض على الذكور البالغين المتمتّعين بكامل قواهم الجسديّة والعقليّة. أمّا الأولاد والنساء والعبيد والرهبان والمرضى وأصحاب العاهات فكانوا يُعفون من دفع الضرائب. وكانت الضريبة تُدفع نقدًا أو عينًا. وكانت تصاعديّة من دينار إلى أربعة بناءً على قدرة المرء الماليّة ووضعه الاقتصاديّ. وضريبة الأعناق تُضاف إلى ضريبة الخراج. وكان الخراج يُفرض بحسب ما كان عليه قبيل الفتح الإسلاميّ، ومعدّله خمس الإنتاج. وكانت الجزية تُرفع عن كاهل صاحبها إذا اعتنق الإسلام. وأمّا أملاك النبلاء من أهل البلاد الذي نزحوا عنها إبّان الفتح، فكانت تُصادر وتوزّع على المقاتلين من المسلمين. وكانوا يحتفظون بالعبيد الذين كانوا يحرثون الأرض ويزرعونها على أن يدفعوا أربعة أخماس الإنتاج. أمّا النصارى واليهود في الأندلس فقد سُمح لهم، كما كانت الحال في بلدان أخرى فتحها المسلمون، أن يظلّوا خاضعين في مسائل القضاء لرؤسائهم الروحيّين ينظرون في قضاياهم، إلاّ إذا كان في القضيّة مساس بحقّ المسلم، فإنّ مثل هذه القضايا كانت تُردّ إلى المحاكم الإسلاميّة.

---

١ ـ التوبة: ٢٩.

ويرى معظم المؤرّخين الغربيّين أنّ الاحتلال العربيّ وانتزاع السلطة من القوط لم يكن مجحفًا بحقّ الأهلين الأصيلين. بل كان الأمر على نقيض هذا، فإنّه أفاد طبقة الأرقّاء واليهود الذين كانوا يتعرّضون للاضطهاد القوطيّ في كثير من الأحيان. وكان النصارى يبدون النفرة من حكّامهم القوط. فقد كان القوط من برابرة[1] التيوتون، سكّان الشمال، وقبل أن ينضمّوا إلى الكنيسة الكاثوليكيّة كانوا هراطقة من أتباع آريوس[2]. كذلك قضى الفتح العربيّ على سطوة طبقة النبلاء والإكليروس المتمتّعين بالامتيازات على حساب الشيعة. وسمح عبد الرحمن للنصارى بترميم كنائسهم القديمة وببناء أخرى جديدة. ولم يفرض عليهم أيًّا من الشروط الصعبة التي فرضها الخليفة عمر الثاني (٧١٧ ـ ٧٢٠)[3]. ويأسف بعض الكتبة الإسبان على أنّ الفتح الإسلاميّ للأندلس كان سببًا في انقطاع التقليد المسيحيّ وحشره بين حقبتَين: المسيحيّة في العصور المتوسّطة، والمسيحيّة في العصور الحديثة. ولكنّ الواقع أنّ الأندلس بلغت، في العهد الإسلاميّ، الذروة في النموّ الاقتصاديّ والرقيّ الحضاريّ، وعرفت عصورًا من الازدهار لم تعرفها من قبل. وكانت عاصمة الأندلس تباهي القسطنطينيّة وتفاخر بغداد على أنّها مركز عالميّ للأبّهة والوفر والعلم. وكان الكتّاب العرب يسمّون قرطبة "عروسة الأندلس" وسمّتها راهبة أنغلوسكسونيّة "جوهرة الدنيا"[4].

---

١ ـ البرابرة BARBARES: إسم أطلقه في الأصل اليونان ثمّ الرومان على الأجانب من الأمم، ثمّ أُطلق خاصّة على الشعوب الجرمانيّة والمغوليّة التي ابتدأت تجتاح الأمبراطوريّة الرومانيّة منذ القرن الرابع حتّى سقوطها سنة ٤٧٦.

٢ ـ آريوس ARIUS: كاهن اسكندريّ زعم أنّ "الكلمة" غير مساوٍ للآب في الجوهر، فحرمه المجمع النيقاويّ ٣٢٥، ومنه البدعة الآريوسيّة التي استمرّت حتّى أواخر القرن الرابع في الشرق والقرن السابع عند القوط واللومبارد.

٣ ـ راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

العمَـــــارة

والإنشاءات

كانت قرطبة التي خلّفها عبد الرحمن بعد مماته تختلف كليًّا عن قرطبة التي عرفها عند استيلائه عليها. فإلى قرطبة كانت تفد جموع المسلمين من شماليّ أفريقيا وغربيّ آسيا ليجرّبوا حظّهم من العيش والثروة. وكان اللاجئون من الأمويّين يأتون إليها للحماية سواء أكانوا يتلقّون دعوة للذهاب إليها أم لم يتلقّوا. وكان من العُرف أن يحيط الخليفة نفسه بجماعة من أقربائه المقرّبين، وأن يعهد إليهم بالمراكز والمناصب العالية في الدولة. وقد سنحت آنذاك أمام صقر قريش سانحة لإعادة الاعتبار لأهله وذويه.

كان عبد الرحمن يقول إنّ أعظم نعمة أسبغها اللّه عليه بعد الخلافة، تمكينه من توفير وطن لأهله يقيمون فيه آمنين، ومن الانتفاع بهم. وكان يتمنّى أن يرحّب بعودة ابنه سليمان الذي خلّص حياته من القتل عندما كان في الرابعة من عمره ورأى الرايات السود مقبلة إلى مكمن أبيه. كانت النجاة من يد العبّاسيّين نعمة ورحمة، ولكنّ العمّتَين اللتَين عهد إليهما بأمر الصبيّ لم تريا من الحكمة المجازفة بركوب البحر. وكان سكّان العاصمة يزدادون يومًا بعد يوم بسبب ازدياد عدد المسلمين الجدد الذين كانوا يُعرفون بالمولّدين. أمّا سكّان الريف فكان شأنهم شأن سكّان الريف في كلّ مكان، كانوا شديدي الحفاظ على أسلوب عيش آبائهم وأجدادهم. وفي مدى حياة عبد الرحمن، لا بدّ أنّ غالبيّة السكّان صاروا من المسلمين. لذا توجّب عليه أن يكبّر مسجد قرطبة، وكان التوسيع على حساب كنيسة النصارى. وقبل وفاته بثلاثة أعوام، شرع عبد الرحمن بتنفيذ مشروع أكبر: إعادة بناء المسجد وتوسيعه وجعله مسجدًا يليق بعاصمته، وفي الوقت ذاته يضاهي كنائس المسيحيّين الكبيرة من حيث فخامة البناء. وبنى حول المسجد سورًا سماكته سماكة سور القلاع، وحسّنه بفضاء للجامع يقوم سقفه على غابة

كثيفة من الأعمدة الفخمة بلغت ١٢٩٣ عمودًا. وأنفق على بنائه في خلال سنة، ألف دينار، على ما يُقال. وأصبح مسجد قرطبة كعبة المسلمين في بلاد الغرب. وعندما استعاد الإسبان بلاد الأندلس حوّل المسجد إلى كنيسة باسم عذراء الصعود. ولا يزال البناء قائمًا، ويُعرف بـ "المزكيتا" أي المسجد. وبعد الحمراء يُعدّ أكثر الأمكنة الأثريّة اجتذابًا للسيّاح[1].

وبالإضافة إلى مسجد قرطبة، يعزو المؤرّخون الفضل لعبد الرحمن في إنشاء أبنية عامّة في العاصمة، دينيّة وغير دينيّة. كذلك جدّد سنة ٧٦٦ الحصون القديمة التي كان قد انقضى نصف قرن على إنشائها، وكبّر الجسر الممتدّ فوق الوادي الكبير، وحسّن قناة الماء، لا لزيادة الماء للسكّان الذين زاد عددهم فحسب، بل لكي لا تعطش المدينة في حال الحصار أو انحباس المطر. وبنى لنفسه دارًا بالقرب من المسجد الكبير، عُرفت ببيت الإمارة، لكي تحلّ محلّ الدار القديمة التي كانت مقرّ الحكومة منذ عهد القوط. وعلى بُعد ميلَين خارج قرطبة ابتنى لنفسه دارة فخمة وأحاطها بحديقة زرع فيها مختلف الأزهار النادرة الغريبة وأنواعًا كثيرة من الشجر، وسمّاها "الرصافة" على اسم الرصافة في بغداد، وهي ضاحية على الفرات ابتنى فيها جدّه دارة جميلة نشأ وترعرع فيها عبد الرحمن نفسه. وكان من عادة الخلفاء الأمويّين أن يُنشئوا دورًا في الريف للصيد وللاستجمام والراحة ممّا يُشبع فيهم الحنين إلى عيش الصحراء[1].

كان الشعر، كالخطابة، من الشروط الأساسيّة التي يجب أن يتحلّى بها رئيس الدولة، وعبد الرحمن كان شاعرًا خطيبًا. وقد يكون من الإسراف أن نعزو إليه إدخال

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٠٠ - ١٠١.

٢ - المرجع السابق.

النخيل إلى الأندلس، إذ إنّ الفينيقيّين هم الذين أدخلوه إلى البلاد بزرعهم نوى التمر أوّلاً. غير أنّ العرب في الأندلس يجب أن يكونوا قد أدخلوا أنواعًا منه من شماليّ أفريقيا، كما أنّهم أدخلوا زراعة الأرزّ والمشمش والدرّاقن والرمّان والبرتقال، المرّ منه والنوع الذي يُعرف بالإشبيليّ، وقصب السكّر والزعفران، وغيرها من النبات والفاكهة، كما يدلّ على ذلك بقاء أسمائها العربيّة في البرتغاليّة والإسبانيّة. وأسفرت الجهود الزراعيّة التي بذلها العرب في الأندلس عن ازدياد في إنتاج الأرض.

ولم يكن عطاء العرب في حقل الصناعة بأقلّ منه في حقل الزراعة، فإنّهم أدخلوا صناعة تطعيم المعادن بالذهب والفضّة من دمشق التي اشتهرت به. وقد ازدهرت هذه الصناعة في عدد من المدن الإسبانيّة، ومنها انتقلت إلى فرنسا ودول أوروبّيّة أخرى، كما يدلّ على ذلك بقاء كلمات مثل لفظة DAMACENE وDAMASKEEN في اللغات الأوروبّيّة. ولا يزال السيّاح الذين يفدون إلى طُليطلة يبتاعون سكاكين ومقصّات مصنوعة على أنماط دمشقيّة كالتي كانت تُصنع في العصور الوسيطة[1].

***

كان عبد الرحمن صقر قريش، هو الذي شقّ طريق المجد لعاصمة الأندلس الإسلاميّة، غير أنّها لم تصل إلى ذروة مجدها وعزّها إلاّ في عهد خلفه الثالث وسميّه[2]، وخلف سميّه الحَكَم[3].

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

٢ ـ المقصود عبد الرحمن الثالث (٢٧٧ ـ ٣٥٠هـ/ ٨٩٠ ـ ٩٦١م): لقبه الناصر، جاء التعريف عنه سابقًا.

٣ ـ الحكَم الثاني المستنصر (٣٠٢ ـ ٣٦٦هـ/ ٩١٤ ـ ٩٧٦م): الخليفة الأمويّ الثاني في الأندلس ٩٦١، وُلد وتوفّي في قرطبة، ابن عبد الرحمن الثالث، أجبر ملكَي قشتالا ونافارا على عقد صلح معه ٩٦٦، صدّ النورمانيّين والفاطميّين، كان محبًّا للكتب وشجّع العلماء والآداب فغدت قرطبة في عهده مركزًا ثقافيًّا وحضاريًّا يعلّم الرياضيّات والطبّ وعلم الفلك.

في سنة ٩٢٩، أي بعد تسنّمه الإمارة بسبعة أعوام، أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه أمير المؤمنين، في الوقت الذي وصلت فيه الخلافة العبّاسيّة إلى الحضيض. وقد عاشت هذه الخلافة الأمويّة الجديدة في الأندلس حتّى سنة ١٠٣١. وكان عبد الرحمن الأوّل قد أوصى، بعد وفاته، بالإمارة لولده هشام * متبّعًا بذلك ما فعله معاوية عندما عيّن يزيد خليفة بعده[١]. فيكون عبد الرحمن قد حرم ابنه البكر سليمان، الذي كان أكبر من أخيه هشام بإحدى عشرة سنة. وكان هشام، كما كان يزيد بن معاوية، ابنًا لأمّ نصرانيّة. وجعل الإمارة أو الخلافة وراثيّة من شأنها أن تبقي على الاستقرار والاستمرار في حياة الدولة. وفي الذكرى السنويّة الأولى لإمارته، ذكر عبد الرحمن في خطبة الجمعة اسم الخليفة العبّاسيّ. وقد احتُفظ بذكر الخليفة العبّاسيّ في الأندلس زمنًا كما تدلّ على ذلك الكتابة التي كانوا ينقشونها على النقود والتي وصلنا منها بعض النماذج[٢].

النّهايَـــة...
غيرُ البدَايَة

بدأ عبد الرحمن حياته السياسيّة متحلّيًا بحلم معاوية ولكنّه أنهاها متتبّعًا خطى السفّاح العبّاسيّ. نذكر من حلمه ما أبداه نحو الأهلين في قرطبة عندما تمّ له الاستيلاء عليها. ثمّ إنّه حاول بعد ذلك أن يستميل إليه ألدّ عدوّين: الفهري * والصُّميل *. لكنّ الأحداث التي اختبرها في ما بعد بعثت في نفسه اليأس والقنوط من تصرّف الناس

١ ـ راجع: الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٠٢ ـ ١٠٣.

الذين أحسن إليهم. فراح يُظهر من القوّة ضروبًا، فكان الصلب، بعد قطع الرأس، قصاصًا مفضّلاً عنده، وأصبح مع أصدقائه عنيدًا متصلّبًا بقدر ما كان قاسيًا ظالمًا مع أعدائه. لم يُظهر من الرحمة ما يبرّر تسميته عبد الرحمن، والرحمن صفة من صفات اللّه. ولم يمضِ زمن حتّى نشأت في نفسه عقدة العصمة. كان يعتبر ذاته معصومًا عن الخطأ. ومَن لا يشاركه الرأي يصبح متّهمًا في ولائه. ولم يعد عبد الرحمن ذلك الأمير الذي كان يتجوّل في شوارع عاصمته يكلّم الناس ويعاشرهم، بل أصبح الآن كئيبًا نكيد المزاج يؤثر العزلة وراء أسوار تحرسها أسنة الحرّاس، وانقلبت بهجة الحياة ولذّتها إلى كآبة ومرارة. وقد جرؤ يومًا فقيه عالم أن يتحدّى إرادة عبد الرحمن الذي كان طلب إليه أن يتولّى القضاء في قرطبة، وإذ رفض الفقيه أن يقضي لحاكم يعتبر نفسه فوق حكم اللّه وشرعه، أخذ عبد الرحمن يفتل شاربَيه، وكان هذا من دلائل الغضب. وعندما رآه حرّاسه في هذه الحالة العصبيّة أوجسوا خيفة وترقّبوا أن يحكم عليه بالإعدام. لكنّ اللّه سبحانه دفع الشرّ عن الفقيه، وصاح به عبد الرحمن: أخرج من هنا، لعنة اللّه على مَن سمّاك لي قاضيًا. وكان الذي أوصى به قاضيًا ولدَيه سليمان وهشام. وهكذا تفرّق عنه أصدقاؤه الذين كان يأتمنهم ويثق بهم، الواحد تلو الآخر. وكان أوّل مَن غضب عليه عبد الرحمن صديقه ومعاونه أبو الصيّاح الذي رفع عمامته على قناة لتكون راية خضراء. بعد أن فقد عمامته فقد رأسه. أمر عبد الرحمن بقطع رأسه بعد أن عزله عن ولاية قرطبة. ولمّا تزعّم أبو الصيّاح ثورة قام بها اليمنيّون الناقمون، كاد عبيد اللّه، الذي كان عبد الرحمن مدينًا له بالإمارة، أن يلقى المصير نفسه الذي لاقاه أبو الصيّاح، ولكنّ عبد الرحمن استعاض عن قطع رأسه بإهماله ونبذه كلّيًا. ولم يسلم مولاه الوفيّ الودود، بدر، من شرّه. ذلك أنّ بدرًا لم يعد ذلك العبد الذليل الخنوع لأوامر سيّده. فصادر أمواله وممتلكاته ونفاه إلى مدينة عند الحدود. ولكنّ أقسى ما أنزله من عقوبات صارمة كانت تلك التي أنزلها بأقربائه

وأنسبائه. وكان أوّلهم أميران أمويّان كانا يأتمران على عبد الرحمن عندما أفشى أمرهما فأمر بقطع رأسيهما. وأمرّ مِن قتل الأميرَين الأمويَّين كان قتل ابن أخ له: المغيرة ابن الوليد، الذي راح يدبّر مؤامرة مع ابن الصُّميل، ولكنّ افتضاح الأمر أدّى إلى قطع رأس المغيرة بأمر من عبد الرحمن. وفي ساعة كآبة ووجوم راح عبد الرحمن يعبّر عن الألم النفسيّ الذي ألمّ به من جرّاء هذه الحوادث. ويقول:

أعظم ما أنعم اللّه به عليّ، بعد تمكّني من هذا الأمر، القدرة على إيواء مَن يصل إليّ من أقاربي، والتوسّع في الإحسان إليهم، وكبري في أعينهم وأسماعهم ونفوسهم، بما منحني اللّه من هذا السلطان الذي لا منّةً عليّ فيه لأحد غيره... ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم. سعينا في ما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة، وخاطرنا فيه بحياتنا. حتّى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسّر اللّه أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف. ولمّا آويناهم وشاركناهم في ما أفردنا اللّه به، حتّى أمنوا، ودرّت عليهم أخلاف النعم، هزّوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى. فنازعونا في ما منحهم اللّه، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ اطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدّى ذلك إلى أن ساء ظنّنا في البريء منهم. وساء أيضًا ظنّه فينا. وصار يتوقّع من تغيّرنا عليه ما نتوقّع نحن منه. وإنّ أشدّ ما عليّ في ذلك أخي، والدُ هذا المخذول، كيف تطيب لي نفسي بمجاورته، بعد قتل ولده وقطع رحمه؟ أم كيف يجتمع بصري مع بصره[1].

بعد ذلك دفع بصرّة من المال فيها خمسة آلاف دينار، إلى أحد أعوانه، وأمره بالتوجّه إلى أخيه الوليد ليعتذر عن مقتل ابنه. وطلب إلى الرسول أن يقول لأخيه إنّه يجب عليه مغادرة الأندلس إلى حيث يشاء[2].

---

١ ـ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مرجع سابق، ٢: ٣٢.

٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ١٠٥.

في الثلاثين من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ٧٨٨ توفّي الأمير الحزين ودُفن في عاصمة ملقه...

طريدًا من سوريا، ومتشرّدًا في شماليّ أفريقيا، ومطالبًا بإمارة الأندلس، ومؤسّس الدولة الأمويّة المجيدة الثانية، ومناهض أقوى وأعظم سلطانَين حاكمَين في الغرب والشرق، هذا ما كانه عبد الرحمن، أوّل عربيّ خلّد اسمه في سجلّ التاريخ الأوروبّي[١].

بقايا عَربيّة

عبر العرب مضيق جبل طارق سنة ٧١١ وأسّسوا مركز إمارتهم الغربيّة في الأندلس التي ظلّت تحت حكمهم حتّى القرن الثالث عشر حين استردّ ملوك قشتالة معظمها، ولم تبقَ إلاّ مملكة غرناطة العربيّة التي سقطت في يد الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢. وكانت الحقبة العربيّة العهد الذهبيّ للأندلس، ففيه ازدهرت الزراعة والتعدين والتجارة والصناعة والثقافة، ما حقّق رخاءً رائعًا للإقليم، وقد ازدانت غرناطة وإشبيلية وقرطبة بأروع الآثار العربيّة في إسبانيا، وهي لا تزال مراكز للثقافة والعلوم والفنون، ولا يزال تأثير العرب ملحوظًا في أخلاق السكّان ولغتهم وتقاليدهم. ولسكّان إسبانيا ولع كبير بأغاني الأندلس ورقصاتها. ذلك كلّ ما تبقّى من فتح العرب للأندلس، أمّا الإسلام فلم يتمكّن من الصمود، على عكس صموده في سائر الأقطار التي داخلها في أيّ مكان آخر من العالم.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص١٠٥.